شاكر الأنباري

نجمة البتّاوين

رواية

رواية المدى

اسم المؤلف : شاكر الأنباري
عنوان الكتاب : نجمة البتاوين
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠١٠
الحقوق محفوظة

Author: Shaker Alanbari
Title: The Star of Battaween
Al- Mada P.C.
First Edition : 2010
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- ابو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

١

اختطف عمران المهندس في الخريف، ولكن أي خريف، والفصول تتشابه في هذا البلد، وكذلك الأشهر والأيام، حيث في ذلك اليوم الخريفي الفاتر من سماء بغداد الصافية، كانت زجاجة العرق الزحلاوي تتربع في المنتصف، وعدد من علب البيرة الهاينكن تتناثر حولها، وحيث توزعت صحون المازة البلاستيكية على كامل مساحة الطاولة: تبّولة، نقانق دجاج، لبنة، زيتون مخلل، وجبن كرافت زهري اللون، تعبق بكل ذلك شقة البتاوين التي تنتصب بقلق بين البيوت المتهالكة. البيوت المتهالكة لهذا الحي المحصور بين ساحة التحرير وسينما بابل ببنايتها الضخمة المشادة من الطابوق، ففي هذا الخريف البغدادي كان جميع من في الغرفة يدخن بآن واحد، علي محمد أمين يناولهم الكؤوس بسرعة، وهم يستعجلون الإنتهاء من الكأس الأول، إذ هو أصعب كأس في طريق الجلجلة، ودقائق من الصمت، لم ينطق خلالها أحد بكلمة، كما لم يتم التطرق إلى أحلام. وهي عادة موضوعهم المفضل كلما التقوا في الشقة، أحلام وعشاقها، أحلام وحبلها، وعدد الأشهر المتبقية التي تستطيع فيها مضاجعة الزبائن، أحلام والوضع الأمني والديني الذي سيقودها، كما أكّد علي محمد أمين، إلى الذبح ذات يوم.

في أوقات غير هذه، كانت هي المدخل إلى الأحاديث والآراء والقصص، وكانت أصوات انفجارات بعيدة، وصياح ناء لسيارة إسعاف، والسماء موشحة بالغيوم، وقطرات خفيفة تنقر على سياج البالكون، والسطوح المقابلة خالية من البشر، ومدخنة مصفى الدورة تلوح وسط أفق داكن، والكهرباء الوطنية متوفرة، رغم مرور ساعتين على مجيئها، كما أخبرهم بائع الكبب الذي في الأسفل. لم يحدثهم أبو حسن عن الكتب الجديدة في سوق المتنبي، ولا عن آخر الأسعار والتراجم، وظل مطرقاً ينظر إلى وجه زاهر بين لحظة وأخرى، يدعوه للبدء بموضوع عمران، وتفاصيل ما جرى في يوم الإختطاف، فالأمر يمثل خطورة كبيرة عليهم، خاصة ودوافع الإختطاف غير معروفة، هل هي نقود الفدية، الإنتماء الطائفي، السياسي، أم أن هناك دوافع لا يعرفونها حول الإختطاف، وعمران يعرف محل إقاماتهم، وآراءهم بالتكوينات السياسية والميليشيات والأحزاب الدينية والأميركان، وهو يحتفظ بتلفوناتهم في جهازه الموبايل، والخاطفون سيتحرّون عن كافة الأرقام وأصحابها، ماذا يشتغلون، أين يسكنون، ما يملكونه من أموال ومصالح وبيوت، عدد أفراد العائلة ومنحدراتهم الطائفية والسياسية، وهو يعرف كل هذه التفاصيل، في هذا الخريف الغائم الذي يدخل فيهم النشاط بعد أن ودّعوا ذلك الصيف الحار مثل تنور.

أوراق الليمون والتوت والعنب تساقطت على الأرصفة بعد أن تأرجحت مع هبات الهواء وسط حدائق البيوت، وأصبحت نسمة الليل باردة وهي تمسح وجه دجلة، وخفّت لسعات البعوض، وصارت ظلال شقة النجمة أكثر إمتعاعاً، والسعادة لم تتم، صديقهم يختطف عند نفق

الشرطة، ويستلّ من بينهم كما الشعرة، صديق يمضي إلى مصير مجهول، و قبل أسبوع، قال علي محمد أمين، اختطفوا مالك المولدة الكهربائية في الطالبية، واتصلوا بعد ساعات بأهله وطلبوا خمسة آلاف دولار لإطلاق سراحه، جمع أهله المبلغ وسلموه للخاطفين، قالوا لهم عن طريق الموبايل اذهبوا إلى مبنى البريد القديم وستجدون الرجل هناك، وحين دخلوا البناية، وهي تعبق برائحة الخراب، إثر حمّى النهب التي اجتاحت بغداد، وجدوا الرجل مقتولاً بطلقات في رأسه، والدماء لم تجف منه بعد. قتلوه لأنه تعرف على هوياتهم، لكن السؤال هو من يكون الخاطفون؟. سأل زاهر. عصابة، فمنطقة الطالبية منطقة فقيرة وهناك آلاف الشباب دون عمل، ووجدوها فرصة للربح السريع، ليس هناك قانون ولا شرطة تتعقبهم. ربح سهل وسريع، قال علي محمد أمين وهو يحتسي عرقاً مخلوطاً بالبيرة الهاينكن، علامة تدل على أن علي محمد أمين يريد أن يسكر هذا اليوم واحدة من سكراته الفريدة، حيث خلط العرق بالبيرة ينتج سائلاً نووياً في تأثيره على الدماغ. ولكن لماذا يقتلونه؟. إذا كانوا قبضوا الخمسة آلاف دولار فلم القتل؟. قضية المعرفة غير مقنعة. قال أبو حسن.

هناك شيء واحد يبرر القتل، القتيل يعرف القتلة معرفة جيدة. يخشون من إفشاء أسمائهم. من دبروا الإختطاف قريبون من الضحية. لا تستغرب أن يكونوا أخوته أو أبناء عمومته. روح الناس ممسوخة هذه الأيام. قال أبو حسن. صدّق أو لا تصدق، قبل شهر تقريباً خرجت صباحاً من المنزل، قال علي محمد أمين، كنت قادماً إلى الجريدة، حين انعطفت في الفسحة القريبة من السوق رأيت مجموعة من البشر تتحلق حول

شيء ما، فقادني الفضول إلى رؤية ما يتجمعون حوله، وصلت الحشد وأدهشني أنهم يتفرجون على ثلاث جثث مرمية في الفسحة والدماء تسيل منها، واحدة من الجثث كان جهاز الموبايل المعلق في حزامها يرنّ، وظلّ يرنّ دون انقطاع، ولم يتجرأ أحد من الواقفين على التقدم وانتزاع الموبايل والرد على المتصل، وهذه لقطة لا تحصل حتى في أفلام الرعب، ولا يمكن أن يقنعني أحد بقضية التصفيات الطائفية، فالأشخاص يبدو عليهم، من سماتهم، أنهم من المنطقة ذاتها. ما يجري هو جزء من ظاهرة العنف التي نعيشها، قال أبو حسن. في منطقة الصليخ، قال ربيع المحمدي، وهي المنطقة التي ولدت فيها، وترعرعت قبل أن أنتقل إلى مدينة الشعب، قامت سيارة من نوع بي أم دبل يو باختطاف فتاة في العشرين من عمرها، واتجهت السيارة إلى بساتين الراشدية كما ذكر المراقبون للحادث، ولحدّ هذه اللحظة لم يعثر أحد على الفتاة، كما لم يطالب أحد بفدية من أهلها. هذا حادث اغتصاب واضح. قال زاهر. الخاطفون، وبعد أن شبعوا من الفتاة، قتلوها ثم دفنوها في بستان من تلك البساتين، كيف يمكن تقمص روحية المغتصب؟ في تلك اللحظة التي بدأ يمارس عمله مع الفتاة، انتقل إلى حالة غير بشرية، وإلا كيف يتلذذ مع فتاة مرعوبة وتصرخ ربما، أو فاقدة للوعي؟ هنا يمكن وصف هؤلاء الأشخاص بالحيوانات البشرية.

هل كان عمران منتمياً إلى حزب سياسي؟. سأل علي محمد أمين فجأة. حسب ما قال لي إنه لم يعد يفكر بالإنتماء إلى أي حزب، منذ أن غادر الحزب الشيوعي في أواخر السبعينيات، خطأه الوحيد كان حماسته للأميركان في بداية دخولهم، اعتبرهم محررين أكثر مما هم غزاة أو

محتلين، كما باح لي ذات يوم في مشرب أبو جسام، ما كان يعارض حتى الشيطان إذا ما جلب لهم الخلاص. سيطر الجيش الأميركي على بغداد، اتصل بالحامية التي استقرت في مبنى المخابرات العامة، القريبة من المنصور، وأعطاهم قائمة بأسماء كل من يعرفهم من جماعة النظام على مدار ثلاثين سنة، وشكّل فريقاً من الأصدقاء والأقرباء، بالتنسيق مع الأميركان لمطاردة البعثيين السابقين، ومن كانت له علاقة بالسلطة، حتى من المقاولين أصدقائه الذين عرفهم ذات يوم، والمسدس لا يفارق جسده، وأحس أنه مهدّد، وثمة من يريد الإنتقام منه، قلت له أكثر من مرة حاول تصفية أموالك وممتلكاتك وغادر إلى سورية أو الإمارات أو الأردن، لكنه رفض الفكرة، وقال إنه لا يستطيع العيش خارج الوطن، كما أنه، وقالها ضاحكاً، لا يستطيع مغادرة حبيبته الصغيرة، وعشيقته، سماهر، التي استأجر لها شقة في البياع، لا يعلم سوى الرب كيف سينتقم منه الخاطفون، إن كانوا اختطفوه لدوافع سياسية، لا مالية. ثم ارتشف زاهر رشفة من كأسه، وأوشك على مواصلة الحديث عن عمران المهندس إلا أن تكهربا، الوطنية انطفأت فجأة، وسقطت الغرفة بعتمة كثيفة، الجو غائم في الخارج، وأعتمت الغرفة الداخلية، والليل بان على ممرات البناية وتسرب إلى الشقة وملأها بالهواجس والخيوط السوداء، والدخان المتكاثف تحول إلى ستارة ضاغطة على قلوب الجالسين وأبصارهم.

نهض علي محمد أمين ومشى إلى الغرفة الداخلية، حيث الفراش الممدود، وهناك أشعل قداحته الغازية واستدل على طاولة خفيضة تتراكم عليها بعض الملاعق والصحون الصغيرة وعدد من الشموع النحيفة، احترق قسم منها حتى المنتصف، ثم تناول ثلاث شموع، أضاء الأولى

ووضعها على حافة باب الحمام، ثم أضاء الثانية ووضعها في وسط الطاولة، أما الثالثة فثبتها على حافة شباك الغرفة الخارجية المغلق، والذي كان يفتحه صيفاً لكي يتطلع إلى سطوح الجيران المقابلة، شباك البالكون كما سموه، واستحسن الجميع فكرة إضاءة المكان بالشموع، وكانت الظلال وتراقص الخيالات، ورائحة الطعام والشراب، حولت الفضاء الضيق إلى عبوة غريبة لمن يراها من الخارج، وفكر زاهر أن هذه الجلسة من الجلسات التي لن تنسى في حياته، ربما بسبب الحدث الذي شل تفكيرهم جميعاً، ووقع عليهم وقعاً ثقيلاً، وربما بسبب عدم تصديقه لوجوده في هذا المكان، وهذه المدينة، وهذا البلد، ومع شلة من الأصدقاء الجدد، وهم يتداولون بأمر صديقه العتيق عمران الذي عرفه منذ عقود، وهو مختطف الآن، ومصيره غير سارٍّ على الإطلاق، هو زاهر في الطريق الصحيح للتكيف مع إيقاعات البلد، إيقاعات الفقر، الإختطاف، التخلف، الذباب، الأمكنة البائدة، الأصدقاء وكيف يعيشون ويفكرون، في بلد عاش ثلاث حروب، ورقد ملايين من سكانه تحت التراب. سمعوا طبطبات أقدام في ممر البناية وأدراجها، وصنتوا متوقعين قرع أحد ما للباب، الفوضى خارج الباب لا تنبئ على أنها أحلام، فأقدام أحلام خفيفة الوقع، تكاد لا تسمع، فكّر أبو حسن أنها قد تكون مفارز للشرطة دخلت البناية للتفتيش، وقد حدث هذا مرتين في الماضي، وفكّر ربيع المحمدي أنهم قد يكونوا أفراد عصابة أو ميليشيا جاءت لخطفهم، أولاً لكونهم مجموعة تختلي في شقة، وثانياً لأنهم يحتسون أشربة محرّمة، وثالثاً لأنهم يشتغلون في صحيفة معروفة، لها مناوئون وأعداء، فلا أحد يجهل جريدة السلام وخطها الليبرالي.

كل واحدة من تلك الحقائق كفيلة بإغراء مختلف الجماعات، ورغم هذه النهواجس والأفكار والتخيلات التي تدور في أذهانهم، لم يكفوا عن حتساء الكؤوس بلذة وشراهة، يستمدون من السائل السحري شجاعة على تجاوز هذا النهار الخريفي الكئيب، والخطر في الوقت ذاته، كانت نضجة كما تبين لاحقاً، انتقال نزيل جديد إلى البناية. علي محمد أمين يستغرب من استشراء ظاهرة الخطف هذه، قال زاهر بصوت عميق وواثق، منطلعاً في الشمعة التي في منتصف الطاولة، وبتركيزه على الضوء لصغير المتوهج، سيمنح القدرة على مركزة أفكاره وبلورتها لتصبح حقائق صلدة، تستقر عنوة في قلوب سامعيه.... ويستغرب من استشراء نفظة والعنف في نسيج هذا المجتمع، أنا أعتقد أن ما يجري أمر طبيعي. الشخص الذي يقدم على القتل صار لا يهتم كثيراً للموت، سواء موت الضحية التي يقتلها أو الموت الذي ربما يواجهه هو، تبلّد لأحاسيس أمام الموت، ليس وليد يوم أو يومين من عمر الشخص، تربية متدت على مدى سنوات، أو ربما عقود، ثلاثة أجيال أو أكثر تربت وسط دوامة العنف والموت، منذ السبعينيات وحتى الآن، حروب مع لأكراد، حروب بين السلطة والأحزاب السياسية، تصفيات داخل السلطة لواحدة، وأخيراً الحروب المتوالية التي عاشها البلد. أتذكر، أنا زاهر، نني فتحت عيني في منتصف الستينيات على ثلاثة قتلى من الحرس لقومي جلبوهم إلى منطقتنا، ورأيت بعيني كيف كانت الدماء تلوّث لبطانيات التي تلف الجثامين، وكان مشهداً مروعاً. كنت طفلاً لا أفقه ما هو الحرس القومي، ولا الشيوعيين ولا البعثيين، كل ما علق في ذاكرتي بطانيات الدم تلك، والوجوه الشاحبة التي كانت مغمضة العيون، والملابس الخاكية.

علي محمد أمين هو الأدرى بيننا عن مصائب جبهات القتال مع إيران، والقصص المرعبة التي عاشها ملايين الجنود في المتاريس، مئات آلاف الجثث التي كانت تصل إلى كل المدن، ثم هات يا حزن، ويا بكاء، ويا غضب وحقد، بتراكم المشاهد والحقد واللاإهتمام بالحياة، يتحول الإنسان دون أن يشعر إلى كائن فظ وسميك الحواس. في أوربا ينتحرون بسبب هجر حبيبة، أو انزعاج من قتامة الجو، أو بسبب ضغط عائلي أو سياسي، هنا لا ينتحر الإنسان، إنما يراكم غضبه إلى أن تأتي لحظة الإنفجار، يتحول إلى وحش كاسر، يقتل أو يُقتل، لا فرق لديه، والحياة ليست ذات قيمة، ما هي قيمة الحياة لفرد يعيش اليوم في زقاق من أزقة الثورة المنعدمة الخدمات تماماً، وهو محاط برائحة النفايات والماء الآسن حتى في الصيف، لا يجد خبزه إلا عن طريق بيع سقط المتاع، أو بيع البنزين في الشوارع، أو الإنتماء إلى ميليشيات مسلحة؟، وما قيمة الحياة لرجل قضى حياته في سلك الشرطة، ثم على حين غفلة فقد وظيفته وتحول إلى سائق تاكسي وسط الفوضى، والحر، والمياه الآسنة التي تفيض بها الشوارع شتاء؟، وما قيمة الحياة لفلاح تداهم بيته القوات الأميركية كل يوم وتشك فيه بأنه إرهابي، بل وتفجّر بيته أحياناً؟. هل يخاف الموت جندي قضى خمس عشرة سنة بين الجثث والدماء والإنفجارات والصواريخ والإشتباكات البشرية بالسلاح الأبيض؟. ماذا ينتظر أبناء محلّة الفضل والبتاوين والشواكة والشيخ عمر من حياة؟ وقس على ذلك، الموت أصبح في بعض الحالات أرحم من هذه الدوامة القاسية، الموحشة، الخالية من الفرح، المغلقة مثل علبة، وهذا غيض من فيض، وكانت الشموع تذوب، والدخان يتكاثف، والطلقات

الشخينة تشرخ فضاء بغداد الملوث بدخان مولدات الكهرباء، ونجمة البتّاوين ما بزغت في الأفق بعد، ولا نامت نوارس دجلة، ولا سمكه، وكانت شعلة الدورة ما فتئت تضيء الجادرية والجسر المعلق وأطراف الزعفرانية، وعينا زاهر تتألقان في الوجوه، تتلمسان وقع حديثه في العيون المتطلعة إلى النافذة، منتظرة ليل بغداد، والشمعة تتمايل في الوسط مثل آلهة الظلام.

رائحة الطعام تهب من أسفل البناية، صوت بعيد لأنوار عبد الوهاب يأتي من مكان ما، من محل في الأسفل أو بيت عتيق، والصوت أعاد الجميع إلى السبعينيات التي تناءت في ذاكرتهم حتى تحولت إلى شعاع خافت، شعاع الماضي الذي ودعته بغداد، كصت المودة ببويه كصت المودة، هجرك سباني يبويه هجرك سباني، ثم موسيقى ناعمة وحزينة تسيل على لافتات النعي في الشوارع وأقدام المارة المتعجلة وبقايا الطين أمام عتبات البيوت، وهو الحزن ذاته يسيح في فضاء الشوارع ومداخل البنايات وخيوط العتمة المتسللة من السماء، فلم يعد هناك من كلام، أحسوا بالصوت مثقلاً بالحب والموت في الآن ذاته، وصمت الكل في تكسرات صوت أنوار، بمن فيهم زاهر أيضاً، حتى انتهت الأغنية، حيث دارت الكؤوس ودارت معها الألسنة، وقال ربيع المحمدي إننا بحاجة ماسة إلى مركز وطني لجمع القصص، هناك ملايين القصص التي جرت في العشرين سنة الأخيرة، ينبغي توثيقها بطريقة من الطرق، فهي تعكس حقيقة تاريخ البلد، قصص الناس العاديين كالتي نسمعها منكم الآن، تخيلوا ملايين القصص وهي تروى في ذلك المركز، يأتي كتابنا ويغرفون منها ثم يصنعون قصصهم ورواياتهم وقصائدهم

ومراثيهم، أليست فكرة ثمينة؟ إن لم تسجل وتبوب وتفرز، كما يحدث للحكايات الفولكلورية، فهي ستنسى بعد حين ويضيع كنز ثقافي مهم.

الفكرة نالت إعجاب الحاضرين وسكتوا يتأملونها بصمت، وكانت الظلال تتطاول خارج البالكون، وتهتز سعفات نخلة قريبة نشأت من حوش لأحد الدور بفعل ريح ناعمة هبت من جانب المسرح الوطني، وقال زاهر متابعاً حديثه الذي انقطع من حزن أغنية أنوار المتلاشية كما ظلال السعف، الأسباب معروفة، طبعاً يصعب الإتفاق حولها، إلا أن الخطوط العريضة واحدة، هل تستطيع تلك العصابة اختطاف عمران المهندس في وضح النهار لو كانت هناك أجهزة أمن وشرطة واستخبارات تراقب الشوارع وتمتلك خطوط اتصال سريعة وجاهزة؟. طبعاً لا، لماذا غابت السلطة عن الشوارع؟. الأمر معروف، جاء الأميركان وحلّوا الجيش والأجهزة، وحطّموا كل المؤسسات السابقة، ومن البديهي جداً أن يحلّوا الجيش، لكي نتحول إلى شعب من قصص مرعبة، ففي أرض واحدة لا يمكن أن يوجد جيشان في الزمن ذاته، كما أن المجرم لم يعد يخشى العقاب، الخاطف لا يفكر أن ثمة شرطة ستلاحقه وتستدلّ عليه لاحقاً، لو فكر بهذا واقتنع به لما أقدم على الإختطاف.

إذاً زوال الدولة وحل الأجهزة والتحطيم المقصود للمؤسسات، هي عوامل لإستشراء العنف والخطف والقتل والتسليب، وكل المجتمعات البشرية التي انهارت دولها فجأة مرّت بهذه الفوضى، قبل شهر، وأنا أذكرها لأول مرة، كنت راجعاً إلى بيتي في شارع فلسطين، حي المهندسين، وكانت الساعة التاسعة مساء، بدأت الشوارع تفرغ من المارة والسيارات، قريباً من البيت رأيت عن بعد سيارة أنيقة متوقفة، جانب الرصيف، فلم تثر انتباهي، فظللت ماشياً على الرصيف، لم أشعر إلا

وقد نطّ رجل من السيارة نحوي، ووضع المسدس في رأسي، فيما بقي سائق وراء المقعد لكنه شاهر مسدسه باتجاه الفضاء، وقال لي هامساً: كلمة واحدة وأفجّر رأسك، ضع ما لديك من دولارات دون مقاومة. وكان أثناء ذلك يتحسس جيوبي وملابسي، خشية أن أكون حاملاً لمسدس أو سكين. فوهة المسدس الباردة على صدغي أفقدتني الكلام، وكل ما استطعت قوله هو أنني لا أملك دولارات، وسرعان ما نثر الرجل الهوية وبعض الدنانير من جيب قميصي الصيفي، ثم دفعني بغضب وسبّني وشتمني، وقال لي بحقد: لا تلتفت إلى الخلف وإلا فجّرت رأسك. فعلاً لم ألتفت، وهرولت في الزقاق المؤدي إلى البيت، وأنا لا أصدق نجاتي من الموت، زوجتي نضال لمست الإرتباك الذي أصابني، فأوضحت لها أنني تعب من حرارة الصيف الخانقة التي وصلت ذلك اليوم إلى خمسين درجة مئوية، لو كان الرجلان اللذان قاما بتسليبي- يجب أن أذكر هنا أن المبلغ الذي كان معي لا يتجاوز ما قيمته دولاران- يعرفان أن ثمة شرطة في المنطقة لما تجرآ على تسليب المارة، أكيد أنهما راقبا الشوارع جيداً قبل القيام بعمليات التسليب تلك، التي كنت واحداً من ضحاياها، وهنا سمع الجميع طبطبة حذاء في الممر، ثم قرعاً خفيفًا، خائفاً، على باب الشقة. أشاع القرع الهدوء والسكينة على الإنفعالات العميقة التي طغت عليهم في الساعة الماضية، ودخلت أحلام وشعرت بالرعب من المنظر، هكذا لاحظوا تعابير وجهها وعينيها، وكانت الشموع ترسم لقاماتهم خيالات متحركة على الجدران، أظهرتهم مثل مخلوقات تهمس وتوشوش بأمور سرية وخطيرة، قطع الدخان المتجمعة فوق الكراسي، وعلى مصابيح الغرفة، جعلت لتلك الظلال معاني أسطورية، خاصة ورائحة العرق شمتها أحلام منذ الطابق الأول للبناية كما أخبرتهم، وعلي محمد

أمين كان بالكاد يفتح عينيه من السكر، الخليط من البيرة والعرق فعل فعله في رأسه، وأصبحت حركته ثقيلة، ولسانه يتلعثم، وظل يحدق بأحلام فترة من الوقت دون أن يكلمها. من هو الأب المحظوظ؟ سألها علي بعد صمت. كلهم، قالت.

ولاحظ الجميع ارتفاع بطن أحلام الواضح، حين رمت عباءتها قرب الفراش وجاءت تجلس معهم، بدت مثل امرأة قادمة من التاريخ، ظفرت شعرها بايشارب أزرق اللون فبان جيدها الطويل وأذناها المزينتان بحلقين من الفضة الناعمة، ولاحظت التوتر الموجود في الجو، وخفوت الحماس لدى الجميع، وثمة خجل من الغرام كما لاحظت، لسبب ما لم تدر ما هو، حتى علي محمد أمين لم يظهر العشق السابق لها. كلهم آباء، من الشبخ عمر حتى الكرادة، المهم أنهم عراقيون. ردّت ضاحكة على سؤال علي، ونفثت دخان سيكارتها الكلواز في وجوه الجميع، كل ذلك حدث في ذلك اليوم الخريفي الذي توغل في ذاكرة بغداد بنعومة، ويتذكره زاهر في فجرها الأزرق الهال الآن من حافات السماء، والمعلق في غصينات الربيع، وفي الأشجار المقابلة للبيت، وفي سحر الطيور العابرة نحو محلة البتّاوين، فكيف مضى ذلك الخريف بتلك السرعة؟ لا يعرف، فالأحداث المتوالية تختصر الزمن، أو كأن السنين في هذا المكان تفر مسرعة من الخوف، وتذكّر زاهر الأمسية بدقة، تذكرها كما لو حدثت بالأمس، حيث أصبحت جزءاً من عالم ينبغي عليه أن يغادره دون أن يلتفت إلى الخلف. فالصداقات مثل البيوت، كلما اكتملت في مكان سرعان ما تخرب، وتبنى في مكان آخر، سلسلة، كما فكر، تبتدئ من يوم الولادة وتتواصل حتى اليوم الذي ينقل فيه المرء إلى القبر، حينها يسقط كل شيء في العدم: الصداقات، البيوت، الحكايات والحوارات المترددة طوال عقود.

٢

ليلة البارحة جلب له عمران تقريره عن قصة إختطافه، وكان مستعجلاً، جاء بصحبة رجل آخر ظل جالساً أمام مقود السيارة، سلمه التقرير وعانقه بحرارة ثم مضى، لم يعد عمران الذي يعرفه، تجربة لإختطاف غيرته من الجذور، قال له قبل أن يدخل السيارة: لا تلتفت ورائك، امض بعيداً عن هذا البلد، وكان الفجر يمحو والذاكرة تتوهج كشعاع قادم من حافة الشرق، شارعهم يسبح في سكون غامض، ويكاد يرى بوضوح تلك السيارة التي حاولت قتله ذات مساء، خيال تلك الليلة كان مرتسماً هناك، وذلك الرصيف الذي وقف عليه الرجل حامل المسدس لا يبعد عن بوابة بيته سوى خمسين متراً، لحد الآن لم يخبر نضال زوجته بقصة التسليب تلك، وأثر المسدس على صدغه، التصق هناك، ومن الصعب تجاهله، كلمة واحدة وأفجّر رأسك، قال له الشاب الأنيق، وظل لأيام يستغرب كيف ينحتون مصطلحاتهم المرعبة، لو استخدم كلمة أقتل لكان الأمر عادياً، لكن كلمة أفجّر تحيله إلى ما يعيشه الناس هذه الأيام: انفجارات، عبوات، إغتيالات، قصف، صواريخ، والدوامة ذاتها منذ أكثر من عشرين سنة، هو أعاد اللحمة مع الواقع، ووجد نفسه منسرجاً مع إيقاعاته، لكن عليه أن يرحل، لم يعد هناك هامش للمناورة.

حاول إلا أنه لم ينجح، وهل ينجح أحد في هذا البلد؟ تساءل مع نفسه حين وقفت سيارة الجي أم سي، المظللة البلّور، عند الباب، وكانت الساعة حوالي السادسة صباحاً، أمس اتفق مع السائق في مكتب السفر، الكائن في شارع حافظ القاضي، على الرحيل باكراً، والربيع في أفضل أوقاته في بغداد، الحمام في السماء والعصافير على الشجر، الجيران نائمون، وجمعت نضال أغراض البيت الأثيرة ووضعتها في حقائب وكارتونات، كان الكومبيوتر أكثر ما يهم زاهر، فهو يعتبره عقله المتنقّل، وفيه عشرات الخواطر والمقالات والروايات التي استنسخها من بعض المواقع الألكترونية، حذاؤه الشامواه، الذي اشتراه هو وزوجته من حي المنصور، أكّد عليه فوضعته زوجته في كيس بلاستيكي أنيق مع أحذيتها وشحاطاتها، وحقائبها النسائية الكثيرة، وهشام يلعب في الحديقة مطارداً قطة كانت تختبئ تحت أغصان الباميا الجافة.

شهد شارع فلسطين ولادة هشام قبل سنتين، وترعرع في هذا البيت، وكان اليوم الذي شاهدته نضال يتسلق الدرج الحديدي إلى المدخل يوم عيد في حياتهما، اتصلت به في الجريدة وأخبرته ملهوفة بالحدث التاريخي الكبير، كل حدث هو قفزة، وكانت القفزات لا تحصى خلال هذه السنوات، وباع زاهر معظم أثاث البيت، بعد أن قرّر، دون تردد مغادرة بيته، وترك بغداد، والبلد كله، دائرة أيامه أغلقت، وعرف بقرار سفره، الذي طبخه على نار هادئة، أصدقاؤه جميعاً: ربيع المحمدي، وعلي محمد أمين، وعمران المهندس الذي أطلق سراحه من خاطفيه قبل أسابيع فقط، كذلك سهى.

أبو حسن لم يعرف بمغادرته لأنه يرقد اليوم في المقبرة، وما فتئ

يتذكر الخراب الذي حاق بشارع المتنبي بعد الإنفجار، إذ تحول أبو حسن إلى شظايا من اللحم، فالإنفجار حدث مقابل مكتبته بالضبط، هل في ذاكرته شيء عدا الإنفجارات والخطف والقصص؟ قالت له نضال: هي شهور فقط، شهور على الأقل نعيشها بأمان، ومن ثمّ، إن تحسنت الأوضاع نعود إلى بغداد، ونضال كما فكر مراراً اشتاقت إلى أمها وأبيها، وأخواتها، لذلك تستعجل الرحيل، لكنه أعطاها الحق أيضاً، فهي عاشت بضع سنوات في عزلة شبه تامة، عزلة كانت مفروضة من الأحداث التي تعيشها بغداد والبلاد، وزاهر اعتاد على تغيير البيوت، وكأن هذه الخارطة تتشابه يوماً بعد آخر، مرات وأثناء أرقه في الليل يأخذه فكره إلى البيوت التي عاش فيها، وكانت عشرات، في بلدان مختلفة ومدن وأصقاع، الأيام بيوت يغادرها البشر وتتحول إلى قصص وذكريات، وكانت بيوته كذلك، كان ينسى واحداً من البيوت، فيتذكره في يوم آخر، ونضال لا تمل من قصصه عن بيوته السابقة، وهو يرويها في الليالي التي تنقطع فيها الكهربا»، ويجلسان أمام النافذة الواسعة المطلة على بيوت الجيران. كان يحدق إلى أفق الكرخ البعيد ويسامرها عن بيوته الماضية، لكل بيت مكتبته الصغيرة ونمط أثاثه وعدد غرفه ورائحته، للبيوت رائحة خاصة مثل البشر، وخصوصية بيت شارع فلسطين هي أنه أول بيت يولد له فيه صبي، يتألف من صالون واسع يطلّ على الشارع عبر نافذة زجاجية واسعة، وغرفة للنوم، ومطبخ صغير وحمّام، أفقه من الشباك العريض، يمتد نحو الجامعة المستنصرية وخزان المياه القريب من الباب الشرقي ووزارة النفط التي سلمت من الحرائق أثناء دخول الأميركان البلد، أما حين يصعد إلى سطحه فكان يطلّ على

لوحة واسعة من بغداد: مدينة الثورة، حي الشعب الذي يسكنه ربيع المحمدي، قلب بغداد الهائل العمارات، المدخن الفضاء، وكأنه مكان حريق سابق، وملعب الشعب القريب من نادي الأدباء، حيث قضى هو والشلة العتيدة أياماً وأياماً من القصف والشرب والحوارات، تبين لعينيه حتى أطراف منطقة الطالبية التي يسكنها علي محمد أمين.

البيت ببساطة مشتمل عرفه البغداديون منذ ثلاثة عقود، وشاع في البيوت الواسعة، يبنى في طرف الحديقة ويعيش فيه الأبناء المتزوجون حديثاً، مشتمل زاهر كان جزءاً من بيت كبير، يشترك معه في السطح عبر باب صغير ينفتح من نهاية المطبخ ويقود إلى السطح، فصل ما بين المشتمل والبيت الرئيسي سياج عال تظلله أشجار نارنج، وبابه واسع هو الآخر، يؤدي إلى حديقة متوسطة المساحة كان زاهر يزرعها عادة بالباميا، ويزيل النباتات البرية كلما وجد رغبة وفسحة من الوقت. اعتاد أن ينزل بهشام إلى الحديقة في الصباحات حين يكون في إجازة عن العمل، ويدعه يلعب بالتربة الرطبة، أو يداعب الديدان التي تتواجد بكثرة في الحديقة، خاصة الجراد، وذات مرة أوشك على الإختناق حين وضع بزاقتين في فمه دفعة واحدة، ومن وسط ممر الحديقة يبدأ الدرج الحديدي الذي يقود إلى المشتمل، والمشتمل، هو بيت معلق، في الشتاء كان مريحاً جداً لكنه في الصيف يتحول إلى فرن حقيقي، اذ لا يحجب وهج الشمس أي طابق ثان فوقه، كما تشوي الشمس شباك الصالون والجدار الأمامي، فتنفذ الحرارة إلى الداخل.

هشام لا يعرف أنه سيغادر البيت ويرحل، كان يركض في الحديقة سعيداً، إنه يوم آخر جديد بالنسبة له، لا أكثر ولا أقل، يوم آخر يعتقد

فيه أنه سيطارد الجراد وديدان التراب، ويبحث عن الورود وسط الدغل، وكان يتنقل بين كارتون الكومبيوتر وصناديق الأحذية، ويحاول قلع سيقان الباميا العتيقة من جذورها، مفتشاً عن الجراد والبزاق، يقترب من الحنفية القائمة جوار شجرة النارنج، تنهره أمه وتحذره من توسيخ ملابسه، وكان زاهر يقف الآن في البالكون الضيق المطل على الحديقة، مفكراً بحياته الماضية التي قضاها في بغداد، يرى هشام بعين الفرح وهو يلهو بين الأغراض، ولكنه يشعر في الوقت ذاته بحزن عميق، لما آلت اليه الأحداث خلال سنتين فقط، وأصبح العيش في البلد متعذراً. عمران المهندس خرج من بين يدي خاطفيه سالماً، لكنه خرج محطم الروح ولم يعد عمران المهندس ذاته الذي عرفه قبل أكثر من ربع قرن، والتجربة التي عاشها كانت من العمق والبشاعة بحيث أنها تركت في روحه ندوباً لا تمحى، وتقريره، كما سماه، أو قصته مع الإختطاف، يرقد في حقيبته السامسونايت العتيقة التي يحتفظ بها بوثائقه وأوراقه المهمة، تقرير عمران لم يطلع عليه لأنه كان منشغلاً بترتيب رحيله، وفضل أن لا يقرأه إلا حين يكون رائق المزاج، ويرى الأشياء ببرود، إلا بعد أن يبتعد عن مسرح الحدث الرهيب. لا يرغب في مفاقمة رعبه اليومي بالعيش في رعب آخر، فالكلمات المكتوبة، وكما جرّب في الماضي، تكون لها أحياناً، قوة الواقع ذاته، وهو حين ناوله التقرير، وكان على ما خمّن بحدود العشرين صفحة، شاهد ظل دموع في عينيه، هذا ما طلبته مني، قال له والغضينات حول فمه الناعم تعمقت أكثر من ذي قبل، كتبته بصعوبة بالغة، لأن بعض المشاهد لا أريد أن اتذكرها، كونها مؤلمة أولاً، ولأنني لا أتصور أنهم هبطوا إلى هذا الدرك من العنف والساديّة تجاه

بعضهم البعض. وضع الأوراق في ملف من النايلون، بحذق مهندس وأناقة مقاول، يهتم رغم المخاطر والصعوبات بالتفاصيل الصغيرة، حدّثه زاهر عن نيته في السفر إلى الخارج، رحب بالفكرة واعتبرها عين العقل، فالأوضاع تنحدر من سيء إلى أسوأ، وقد تأتي أيام لا يستطيع فيها المرء الخروج من بيته، فكيف بالسفر عبر الطريق البري إلى الشام؟. انقلب عمران المهندس إنقلاباً كاملاً، واستدار، لا مئة وثمانين درجة، لكن ثلاثمائة وستين درجة، أي دورة عكسية كاملة، من متفائل كما التقاه زاهر في البداية، إلى رجل يائس لا يجد راحة في أي مكان يختبئ فيه، الإهتزازات العنيفة التي يعيشون تحت هيمنتها لها سطوة على الجميع كما فكّر، وفي مثل هكذا وضع، لا تستغرق التحولات لدى البشر أسابيع وأشهر وسنوات، كما تفترض الحياة العادية، كلا هي تتم بسرعة برقية خاطفة، ثم ناقش هذه الفكرة مراراً مع الشلة في شقة النجمة، وفي صالة النادي ومع أقربائه وأصدقائه، وهذه السنوات القصيرة التي عاشها في بغداد كادت أن تكون حياة بكاملها، فهي قد ملأت الهوة الداخلية التي نحتتها فيه عشرون سنة من الغياب، من العيش خارج الوطن، وهي في الوقت ذاته كانت حافلة بالأحداث، والصداقات والأمكنة والقصص والحكايات التي كان يسمعها في نجمة البتّاوين، وفي الجريدة والمقاهي وحين يجتمع بأهله، عدا عن الأحداث التي كان شاهداً عليها هو، فكيف مرت السنوات بعجلة، على ما فيها من ألم ولذة وتعب وخوف؟ لكنها مرت وكفى، وأجمل ما فيها أنها أصبحت ذاكرة فقط. ودّع سهى البارحة في التلفون وقالت له بصوت حزين: سافر... لكن قلبي معك، وفكّر في هذه الجملة طويلاً، هل وقعت

سهى في حبّه؟. هذا ما لم يكن يريده في الحقيقة، فهو لا يريد لها أن تتعلق بوهم، رغم أنه وهم جميل.

كان، وطوال علاقته معها، يلعب معها لعبة القط والفأر، وهي لعبة لم تكن نزيهة بالتأكيد، إلا أن الظروف غير الطبيعية التي يعيشون فيها تعطي له بعض الحق في مزاولتها. أبو حسن ذهب إلى السماء في انفجار شارع المتنبي، أوقدوا له الشموع في شقة النجمة، وأبّنوه بقنينتين من العرق وعشر قناني من البيرة الدانماركية نوع توبورغ، وسكر علي محمد مين واحدة من سكراته التاريخية، وقرأ لهم شعراً عن أفاقي العاصمة، ستوحاه من الشخصيات الغامضة التي عاشر بعضها في بار اصطيفان، تي يسمي نفسه أبو جسام، وفي الوجوه التي كان يلتقيها أثناء جولاته لم في أسواق الشورجة وشارع الرشيد وسوق الهرج، كيف خطر لذلك تف تل أن ينسف مكتبة أبو حسن بهذه البساطة؟. ومن كان يظن أن ونك الجهلة، سيستهدفون مقهى الشابندر وشارع المتنبي، الذي سماه ربيع المحمدي (عقل بغداد)، عقل بغداد الذي أكل فيه الشلغم ودخن لأركيلة وتذوق كبة السراي الشهيرة، وبحث فيه عن الكتب النادرة، و تقى فجأة بأصدقاء غابوا عنه عشرات السنين، والتحقيق الذي كتبه محمدي عن شارع المتنبي نال استحسانه، وأعجبته طريقة ربيع تفصيلية في الكتابة، كتابة التفاصيل، فالتفاصيل تخلق الحياة، وتشي بالرائحة واللون والحركة، نعم كيف يمكن الكتابة عن شارع رشيد، مثلاً، دون التطرق إلى ذبابه المربع الذي لم يشهد زاهر مثله في ي مدينة أخرى! ذباب كثيف، لجوج، قارص، متنوع، كما لو أنه يتناسل كل يوم!

أما أبو حسن فكان جريدة متنقلة للكتب الجديدة والأشرطة وأنواع الكومبيوترات والأصباغ والورق، وكل ما يستجد في، (البنية التحتية لعالم الكتابة)، ويقصد علي محمد أمين بذلك شارع المتنبي، صعب أن يفقد الإنسان واحداً يعرفه معرفة جيدة. وهو يفكّر الآن أن أبو حسن كان تجربة جميلة له ساهمت في ردم، (الهوة الاستشراقية)، كما سمى حالته، حالة الشخص الذي فارق وطنه كومة من السنين، ورجع ليجد أن كل شيء تغير، وأن ذاكرته كانت عامرة بتفاصيل لم تعد موجودة، هل كان في بغداد هذا الجيش من الذباب على سبيل المثال؟ أو هذا العدد من الجنود الأجانب؟ أو الشوارع الخربة الماشية بإصرار نحو اندثارها؟ أمكنة تغيّر شكلها، أشخاص ماتوا منذ زمن، وجوه جاءت إلى الحياة وكبرت، وعانت، دون أن يكون زاهر ضمن دائرتها، وملايين الحكايات والقصص التي تحاك على مدار اليوم. لم يكن متعجلاً للإطلاع على تقرير عمران، رغم الفضول الكبير الذي يغازله من الداخل، إلا أنه يحرص عليه كثيراً ولا يريده أن يضيع من بين يديه، على الأقل وفاء للصداقة الطويلة التي ربطته به، وكان خلال تحميله للأثاث والأكياس إلى السيارة يرمق الحقيبة التي بها التقرير بين لحظة وأخرى، وكأنه يتأكد كل هنيهة من وجودها، وأحسّ أن عمران المهندس يجلس هناك، يراقبه وهو يضع الأواني الزجاجية التي حرصت نضال على حملها معها، والجاكيتات الثمينة، والأحذية العصرية التي نادراً ما لبستها بسبب الظروف الخانقة في شارع فلسطين، كما رتب للكومبيوتر مكاناً مريحاً في الحقيبة الخلفية للسيارة، (عقله)، كما وصفه للأصدقاء، ضم مئات التأملات والأفكار والأعمدة التي كتبها في جريدة السلام طوال هذه السنوات، سيحمل

عقله أينما رحل، هذا ما علمته إياه تجربته، وحمل أيضاً الحقيبة السامسونايت ووضعها في الحوض الخلفي قرب نضال وهشام، إن عمران يودعه من الحقيبة، ويبارك خطوته الصارمة.

هذا بيت آخر يخربه ويرحل، أعطى الكتب إلى الشاعر علي محمد أمين، وباع المبردة الجديدة إلى خالة ربيع بمئة دولار، ومكيف الهواء بمئتي دولار فهم لم يستعملوا المكيف إلا ساعة أو ساعتين في اليوم، والمكيف لا يشتغل على كهرباء المولد الصغير بل يحتاج إلى فولتية عالية لا تعطيها سوى الكهرباء الوطنية، وصوندة الماء الطويلة التي كان يستمتع بسقي الحديقة بها، وتشطف نضال بمائها الدرج الحديدي، ورشّ، هو زاهر، من مائها صيفاً جسد هشام الغض، طلبها علي محمد أمين مع الكتب فأعطاها له، والسجادة العادية والقدور الكبيرة والأرائك الأنيقة التي اشتراها ذات مرّة من الكاظمية، ومعها أواني مطبخ وقنينة غاز وكراكيب أخرى طلبتها جارتهم المسيحية العجوز التي تتحدر من مدينة عينكاوه مثل أبو جسام، اشترتها بسعر مناسب كما قالت نضال وهي تضع الثلاثمئة دولار في حقيبتها الجلدية السوداء. ببساطة استطاع تفليش البيت دون عناء، والبناء أصعب من الهدم، وهذا ليس أول بيت يخرّبه ويرحل، كما لن يكون آخر بيت، كما خطر في ذهنه وهو يقطع أوصال بيته قطعة قطعة ليبيعها، أو ليهبها، إلى الأصدقاء طوال الأسابيع الثلاثة الماضية، وكان هذا الموضوع يغريه كثيراً لكي يحدّث به أصدقاءه. ظل طوال عشرين سنة يحدّث أصدقاءه عن موضوعة (البيوت التي نبنيها ونخربها)، وهذا حسب تعبيره ما لا تفعله الطيور ولا الحيوانات ولا الديدان، الإنسان وحده من يبني بيتاً ويخرّبه، أو يمزّقه قطعة قطعة، كحاله هو في بيت شارع فلسطين.

بعض بيوته السابقة لم يمزّقها بل هرب منها هو ذاته، هرب وتركها تواجه مصيرها وحيدة، مثل بيته في جرمانا، المحلة الجالسة بقلق على أذيال دمشق، وكان بيت جرمانا آخر بيوته قبل أن يرجع إلى بيته الكبير الأول، العراق، وكان من أسوأ البيوت في حياته، يتذكره دائماً برعب، وكانت له حديقة خلفية مزروعة بالورود والصباريات والأشجار الدائمة الخضرة، رغم أنها ليست واسعة المساحة إلا أنه كان يضع كرسيه وطاولته في وسطها ويتناول الغداء أو العشاء أو يقرأ جريدة أو يكتب شيئاً ما تحت نظرات الجيران الفضولية التي تتلصص عليه من البالكونات المحيطة، فبيته كان في الطابق الأرضي، تطل عليه نوافذ الجيران وبالكوناته. وفي البيت بانيو وحمّامان، وصالون جلوس واسع، وباب البيت الخارجي من الخشب الأنيق، يؤدي عبر ممرّ قصير إلى شارع فرعي من شوارع جرمانا، كان بيتاً جميلاً دون شك، أعجب كل الصديقات والأصدقاء الذين زاروه فيه، يتذكره دائماً بخوف وأسى، لسبب لا يتعلق بتفصيل البيت أو جماله، عاش فيه الشهر الأخير من الحرب، الحرب التي قلبت الطاولة على الجميع، وأفقدتهم الإتجاهات، والشهر الأخير من بيت جرمانا كان كابوساً بحق، فلم يعد ينام، لم يعد يفكر، لم يعد يأكل، كان عيناً يرى فيها الشاشة الصغيرة للتلفزيون، وأذناً حساسة تسمع أخبار الراديو الصغير بعد أن ينطفئ البث التلفزيوني، شهر من التدخين وشرب العرق الريان والتهويمات والقلق على مصيره الشخصي، وعلى مصير البلد، وذبذبات أصوات بعيدة ومحطات إذاعية وتلفزيونية وتصريحات وأخبار متواترة وعاجلة تتسرب في كل ثانية إلى جسده، حتى استحال كائناً ضوئياً، يشع قلقاً وتهويمات

ومخاوف، كان على مفترق طرق، لياليه صارت أحلام يقظة مرعبة تبعث الخلل في العقل، فماذا لو تم تفجير قنبلة نووية في العراق؟. من من العائلة سينجو حين ذاك؟. لا أحد، كيف يمكنه أن يمضي في حياته وهو لن يرى أمه وأباه وأخوته وأصدقاءه الذين كرّس كل حياته السابقة لكي يراهم؟. ماذا لو لم يحصل أي تغيير في الخارطة وتظل الحدود مغلقة أمامه؟. هل يبقى في دمشق أم يرحل؟. وكيف يفارق صداقاته وعشيقاته وحبيباته اللواتي عرفهن خلال سنوات في هذه المدينة التي أحبها؟. أسئلة ومخاوف وقلق، جعلت من بيت جرمانا ذاك تابوتاً للكوابيس، بيت شارع فلسطين مختلف، له طعم لن ينساه أبداً، وهذا ما جعل من تقطيعه المؤلم الذي دام أسبوعين عملية تشبه الإنتحار.

بيت آخر غادره ذات مرة دون أن ينساه، وذاك ماض ميت، والبيت كان في مدينة تطل على بحر الشمال، مدينة ثلجية عشق فيها امرأة من الفايكنغ، غادر بيته ذاك بسبب الحب، اكتشف أن حبيبته آنا مصابة بالسرطان، هرب من الحقيقة تلك لأنه لا يريد أن يعاني من الألم، آنا لم تفارق خياله حتى هذه اللحظة، ولحد الآن لا يعرف هل قضى عليها السرطان أم مازالت على قيد الحياة. بيت الثلج ذاك كان عادة ما يتذكره وهو ممتلئ بالحنين وتأنيب الضمير، وتتعدد البيوت وتتشابه الأسماء، بيوت نبنيها ونخربها.. يفكر، وحين بزغت الشمس من خلف نصب الشهيد المنفلق القبة، السابح بضباب روحي خفيف، تمّ تحميل كل الأغراض التي كانت مرمية على أرض المدخل الكونكريتية، وصعد زاهر إلى البيت وتطلع في الجدران، والنوافذ، والأبواب. أغلق باب الحمام، ثم نفذ إلى السطح عبر باب المطبخ، وضع المفاتيح فوق سخان الماء المركون

قرب باب المطبخ المطل على السطح، وهو المكان الذي اتفق عليه مع صاحب البيت جارهم، وتأمل لحظات في زرقة الفلقتين في النصب، وهي تمسح أجنحة الحمام بخشوع، الحمام يطير فوق النخلات الصانتات، الحافات بنصب اسماعيل فتاح الترك ذاك، وقرص الشمس ينتأ من وراء السعف كأنه كائن حي، روح كم شهيد تتراقص فوق النصب هذه اللحظة؟ روح ترفرف على شارع فلسطين، وأخرى فوق نخيل المتنزه الشاسع، وأخرى تسافر نحو الشمس الصاعدة إلى قلب السماء، قبة وحمام وريش يتهاوى على الجسور، فرجع من هناك سريعاً، ونزل مودعاً النارنج في الحديقة، وبقايا الباميا، وطبعات الحرارة التي تركها الصيف على جدران البيت الداخلية.

ودّع الجراد، وقطرات الحنفية التي داعبت جسد هشام الغض، وعصافير الصباح، وصراصير الحمام، ودع أغصان شجرة الزيتون المتمايلة قرب الباب، وصحون التلفزيون اللاقطة في أسطح البيوت المقابلة، والنخلة المسكونة بعشرات الحمام والعصافير، الأكيد انه لن يرى هذا البيت، عليه أن يرحل كما نصحه أيضاً عمران البارحة، وقبل ما يقرب السنة من هذا الصباح، كان عمران، وكما حدثه بعد اللقاء، يجلس في مكتبه الواقع في حي الشرطة، وكان يعرف أن زاهر في المدينة، وكان جو المكتب ثقيلاً، بعد أن صمت مكيّف الهواء، وخبر وصول زاهر حسين إلى بغداد أدهشه بعمق، بعد كل هذه السنوات، ما الذي حمل الرجل إلى العودة؟. إنه الجنون بعينه، قال له هذا الكلام لاحقاً وهو يصف ذلك اليوم من حياته، إنه الجنون بعينه، ظل عمران يردد عالياً في المكتب الفارغ، هل هذا بلد يعود إليه المرء؟ كيف يبدو زاهر اليوم؟. هل شاب

شعره؟. هل تجعد وجهه؟. هل سمن؟، وهل بقي على ذات الحيوية التي كانت لديه أيام الجامعة؟ أكثر من خمس وعشرين سنة لم يره فيها.

آخر لقاء معه كان في ليلة عرض فيلم ديرسو أوزولا للمخرج الياباني أكيرا كيروساوا في سينما بابل، أخبره بشكل غامض أنه سيهرب عبر الجبال الشمالية إلى خارج البلد، انقطعت أخباره تماماً، سوى شذرات من الإشاعات الغامضة عن اشتغاله في الثقافة والصحافة، وهو عالم كان يجذب زاهر حسين اليه منذ أيام الجامعة، تحولت إلى أسطورة يا صديقي قال له عمران بعدها في المشرب تحت حائط سينما بابل. سنوات لا تنسى عاشاها في أروقة الجامعة، وكانت الأوقات مشبعة بالسياسة والقراءات والنساء والعلاقات المحبطة، حيث أسسوا آنذاك جمعية الذكر الحزين، زاهر وسامي وعلي ونوري وأصدقاء كثر شتتتهم الأحداث، وجمعية الذكر الحزين لمّت الفاشلين في الحب، ومن لم ير امرأة في حياته، والذين تزوجوا مبكراً وطلقوا، ومدمني الإستمناء علنياً، سامي كما عرف لاحقاً قتل في جبهة الحرب في الكويت، وعلي هجّر مع عائلته إلى إيران، بعض من الأصدقاء الآخرين غادروا إلى بلدان ثانية، قسم استقر في كندا والسويد وبريطانيا واليمن، ومن بقي مثل حاله استسلم للأمر الواقع، واقتنع بالحياة كما هي، أخبره عمران بكل هذه التفاصيل ذلك اليوم.

٣

كان مكتب عمران مكونا من غرفة واسعة، وضع فيها طاولة كبيرة يستقر عليها تلفون وأوراق حسابات هندسية وعقود عمل، وبين تلك الأوراق يستلقي مسدس كبير الحجم تتجه فوهته إلى الباب، وكان عمران يومها يتأمل بذلك الرقم السحري الذي تركه ابن عم زاهر المدعو فلاح قبل يومين، وهو يشعر بالخوف من إدخاله إلى شاشة الموبايل، رقم زاهر حسين، الرقم الذي يبدأ بصفر تسعة سبعة صفر، وهي شبكة الإتصالات الوحيدة في بغداد، قال له عمران بعد اللقاء إنه شعر برهبة، وقتها، وهو يفكر بلقائه، في تلك اللحظة دق جرس التلفون، ورفع عمران السماعة بتردد وكانت زوجته، سألته إن كان سيأتي إلى الغداء أم لا، فأجابها بالنفي، قال لها إنه على موعد مهم مع صديق، وربما يتأخر بالعودة إلى البيت حتى المساء، وكان يدرك بشكل غامض أنه سيرى زاهر هذا اليوم، ولا تفصله عن رؤيته سوى المسافة الضئيلة بين الموبايل والورقة التي عليها رقمه، فيتريث بالإتصال ويؤجله، اللقاء الغامض الوشيك، حينها ترك الطاولة وخرج إلى بالكون الشقة، وكان يطل على نفق الشرطة، رأى السيارات تسيل في الشارع بكثافة، إلى اليمين يقود الشارع إلى حي المنصور حيث بيته ومتنزه الزوراء ثم منطقة علاوي الحلة، هناك قطن

ذات يوم مع زاهر في فندق محمود، وإلى اليسار يقود إلى المنطقة الغربية، حيث تقع مدينة الرمادي التي ولد زاهر فيها، ويسيح الطريق نحو عمان ودمشق. وكان النفق مغلقاً هذه اللحظة، بعد أن تعرضت دورية أميركية لهجوم، قبل أيام ألقى شخص مجهول بقنبلة يدوية على الرتل أثناء ما كان يمر من النفق متجهاً إلى البياع وحي العامل والسيدية، والنفق المغلق سبب الإزدحام في مثل هذه الساعة، ثم نظر عمران إلى أرائك الجلد الموضوعة في المكتب، وشعر أن الوضع، وضعه، يسوء يوماً بعد يوم، بسبب الحرب والفوضى، وتعجب من عودة زاهر، صحيح أنه كان منذ البداية مع التغيير الذي حصل لكنه لم يكن يتوقع أن تسير الأمور بهذه الطريقة، عليه الحفاظ على الثروة المعقولة التي جمعها من خلال عمله في قطاع المقاولات، والمستقبل لا يبشر بخير.

نظر إلى الأسفل فوجد سيارته المرسيدس لم تزل في مكانها، تحت البناية، لم تسرق بغفلة منه، وهكذا رجع إلى الداخل، وأغلق باب البالكون، وجلس إلى كرسي المكتب العالي، وهو يتأمل، بإصرار، الورقة التي أمامه، فتناول جهاز الموبايل بغتة، مع تصاعد خفيف في دقات قلبه، وسجل رقم زاهر، ثم ضغط على زر المكالمات، وسمع الرنين يتواصل في الجهاز الآخر، أين أنت يا رجل؟ قال لزاهر حسين وكأنه لم ينقطع عنه إلا قبل يوم أو يومين، لا تعرف صوتي، ولن تعرفه حتى لو كنت الجن الأزرق..... أنا عمران عبدالله، سأكون عندك خلال ساعة فقط. وهذا ما حدث، فالطرق أصبحت سالكة في بغداد، ونزل الدرج مهموزاً بالفضول لرؤية هذا الصديق بعد الحكايات التي نسجت حوله، وكان يسير جسداً فقط في بغداد، لكن عقله في مدينة أخرى، في

سليمانية، فترة السبعينيات، وتحديداً في السنة التي دخلا فيها سوية في كلية الهندسة، زاهر آنذاك كان يهتم بالقراءة، ولا يعير كبير أهمية للمواد الهندسية الجافة التي تدرّس، وكان نحيفاً يفتقر للأناقة، ويعشق روايات ديستويفسكي، وقرأ كل رواياته التي ترجمها سامي الدروبي عن طريق مكتبة السليمانية العامة. في القسم الداخلي، القريب من مقبرة سيروان على أطراف المدينة، كانت هي المرة الأولى التي يلتقي فيها بزاهر، جذب نظره ذلك الشاب النحيف الذي لم يبلغ العشرين بعد وهو يتمدد في سريره داخل القاعة، ويظل منكباً على كتاب ضخم عرف فيما بعد أنه رواية الأخوة كارامازوف، قاده الفضول إلى التعرف على ذلك الطالب الساكن في القاعة ذاتها، ومنذ ذلك اليوم ربطتهما علاقة متينة، خاصة حين عرف أن زاهر حسين يقرأ جريدة طريق الشعب، وينتمي إلى الحزب الشيوعي، وفي ليالي السليمانية الباردة كانا يسهران حتى وقت متأخر، يناقشان أحداث السياسة وشؤون الدراسة والفتيات، ويأكلان، حين يجوعان، أطباق الدبس مع الراشي، أو اللبن والجبن، مع التمر الخستاوي الذي كانا يحبانه، خاصة مع اللبن الرائب، وذات يوم تعلما شرب البيرة واعتبراه يوماً فاصلاً في حياتهما، حدث هذا في الصيف، صيف الجبال والبطيخ والتين والعنب الذي تشتهر به مدينة السليمانية، ذلك الصيف وحين عادا إلى المدينة بعد العطلة، سكنا في قسم داخلي قريب من الجامعة، في غرفة مشتركة، اتفقا على بدء حياة السكر سوية.

لا يعقل أن يكونا شيوعيين، يهتمان بقراءة الشعر والروايات ولا يصحف ولا يدخلان في عالم الخمر والخمارين، كيف يمكن للشخص أن يقرأ رامبو وحسين مردان ومحمد الماغوط وديستويفسكي دون أن يسكر

كل يوم؟ وقررا أن يبدآ الحياة الجديدة في ليلة خميس، فذهبا إلى مركز المدينة، قرب سينما سيروان، واتجها بخجل إلى محل صغير على مقربة من مقهى مام علي، وهو مقهى يجلس فيه عدد كبير من الطلبة يومياً، اقتربا من المحل بتردد وخوف، وطلبا زجاجتي بيرة شهرزاد، أخفياهما في كيس ورقي واتجها إلى محل لبيع المكسرات، واشتريا الفستق والبطاطا المجففة واللبن، ثم تسوقا خساً وطماطم وخياراً من سوق الخضار قرب الجامع الكبير، ورجعا مشياً على الأقدام إلى القسم الداخلي، وغابت الشمس خلف الجبال، ثم أغلقا الباب وهيآ السلطة والمازة والكؤوس ثم جلسا على الأرض، وبدآ بسكب القنينة الأولى في كأسيهما، ويتذكر عمران كيف كان طعم البيرة حريفاً، وتعجب كيف يستطيع إنسان عاقل استساغة هذا المشروب الشبيه بالدواء. بعد الرشفة الأولى بدآ يعتادان على الطعم الجديد، خاصة حين يترافق مع ملاعق ثقيلة من اللبن الحامض والسلطة، والفراشان على الأرض، الملابس معلقة على مسامير مثبتة في الحائط الأبيض، وكانت رائحة الغرفة ثقيلة من عطن الجوارب والطعام وانعدام التهوية، حديثهما، كما يتذكر عمران اليوم، كان منصباً على الزميلات في القسم، وهو موضوع أثير لكليهما، حجم مؤخرة الزميلة فلانة، وكبر الصدر، وبياض السيقان، وكيف تتصرف أثناء المضاجعة، وغير ذلك من تهويمات لا تجري سوى في الكلام، وبعد زجاجة واحدة فقط من البيرة أحسا بالخدر يدب في أطرافهما. نهض زاهر بعجلة وتقيأ في التواليت، عاد إلى الغرفة ووجد عمران يغط في نوم عميق، إنه شريط طويل من الفتيات اللواتي عشقاهن، والقصص اليومية التي كانت تحدث في ذلك الزمن البعيد،

شريط طويل ينبعث في عقل عمران، هو شريط عمره الذي يمضي إلى النهاية، وحين وصل الى ذكريات الطالبات وجمعية الذكر الحزين ومغامرات آخر الليل، ابتسم وهز رأسه عابراً جسر الجمهورية، متجهاً إلى شارع السعدون.

ترى هل بقي مام علي صاحب ذلك المقهى الصغير وسط السليمانية على قيد الحياة؟. وإبنه الأهبل آوات، هل هو على قيد الحياة أيضاً؟. ماذا حصل لسينما سيروان وقد شاهدا فيها أولى الأفلام العالمية؟. لسوق المسقوف وسط المدينة هل هدم أم أنه باق؟ أسماء أماكن ومطاعم ومكتبات ونواد طالما كانت محوراً لحياتهم الطلابية في تلك السنين، مطعم تارا، جبل بيره مكرون، نادي المعلمين، مكتبة كاكا فؤاد، مطعم راوندوز، صابون كران، مصيف سرجنار، هواء(الرشه به) الذي طالما حطم مظلاتهم الشتوية من قوته، الرشه به التي تندفع من الجبال وتضرب المدينة لأيام متتابة، حاملة إلى الفضاء ريش الدجاج وأوراق الصحف وخيوط الجوت وغبار الأرصفة والأسواق والجسور. أسماء تتوهج في الرأس مثل نجوم بعيدة، لو قارن ما يجري اليوم للبلد بأفكار تلك السنوات لوجد هوة شاسعة تفصل بين التصورين والواقعين، سيطلب من زاهر مستقبلاً، إن تجددت علاقتهما، السفر معاً إلى السليمانية، لكي يتذكرا تلك الأماكن التي عاشا فيها خمس سنوات كاملة من شبابهما، أنا في باب الجريدة، قال عمران لزاهر عبر التلفون ما أن استدار من جنب تمثال عبد المحسن السعدون نحو مدخل الجريدة. هو اليوم من قراء الجريدة الدائمين، فهو يحب نفسها الليبرالي البعيد عن التحزبات، يحس به هو الأقرب إليه من الصحف الأخرى، عادت صحيفة الشيوعيين إلى

العلنية، بعد انهيار النظام، داوم على قراءتها أسابيع، لكنه أحس أنه لم يعد يرتبط بها روحياً. تجاوز كثيراً من الأفكار والمصطلحات المتداولة في مقالاتها ومواضيعها. هو من طبقة أخرى اليوم، مفاهيمه صارت ذات سعة إنسانية تفيض على الطبقات والعمال والاقتصاد الموجه والإلتزام الحزبي، وتمنى أن يجد زاهر من ذات الطينة، خاصة وقد عاش تجارب واسعة في الغربة، فمن الصعب أن تبقى شيوعياً بعد الأربعين، كما تقول(الحكمة) التي قرأها، أو سمعها، في الماضي، حين أوقف سيارته جنب محل يبيع الموبايلات في زاوية الشارع الفرعي، شاهد من بعد خطوات رجلاً تدل ملامحه، والطريقة التي يتفقد بها الشارع، والتعابير الحضارية في وجهه، على أنه زاهر بالتأكيد، إنه هو. سمن قليلاً، ودب الشيب في رأسه، وهدأت نظرات عينيه، وما زالت ابتسامته تشع بالصفاء، رغم مضي تلك السنوات الطويلة، وكان لقاء اختصر بحراً من الأحداث، من الصعود والهبوط في الحياة، وقد قاده زاهر إلى مبنى الجريدة ودخل معه إلى القسم، وكان علي محمد أمين يجلس قرب سهى، وجداهما يتهامسان حول أمر ما، وكان ربيع المحمدي يضع نظارته على رأسه وينكب على أوراق أمامه، وقلمه يشتغل يميناً ويساراً، كما لو كان في معركة حامية الوطيس مع الحروف والأفكار والرؤى.

عمران عبدالله، مهندس وصديق قديم من أيام الجامعة، قال ذلك مشيراً إلى عمران، كانت سهى ترمق زاهر بسرعة خاطفة كلما وجدت متسعاً من العيون المحدقة فيها، اجتمع بهم في اليوم الأول من بداية عمله في القسم واتفقوا على أن نمط العمل سيكون جماعياً، بلا رئيس ومرؤوس، فهو ليس من النمط البيروقراطي، والقضية الوحيدة التي

طلبها منهم هي أن يعرضوا عليه كل شيء ينزل في الصفحة قبل المغادرة إلى التصميم، وذلك من أجل الاطلاع عليه والإنتباه إلى أية غفلة تحصل في المواد، هو يعرف مزاج صديقه سعيد عبد الكريم وعلاقاته السياسية، والتبعات التي سيتحملها إن ارتكب خطأ فادحاً في الصفحة، هذا النفس في العمل أدخل الراحة إلى قلوب الجميع، وجعلهم في قرارة أنفسهم ينظرون إلى زاهر كصديق لا كرئيس قسم، وأخبرهم عمران برأيه في الصفحة الأخيرة وقال إنه يقرأ العمود الأخير دائماً، كما قدم اعجابه بتحقيقات سهى التي تنشرها في الصفحة، وشعر عمران بالفخر كونه يلتقي الصحافية، التي قرأ لها سابقاً، وجهاً لوجه.

تحقيقاتها عن الأعراس والمطربين والأزياء ونقوش الفضة في شارع النهر وطقوس العيد وغيرها من تحقيقات كانت تثيره كثيراً، قال له زاهر بعد ساعة من ذلك اللقاء دعنا نذهب، المكان هنا غير ملائم للحديث، والأسرار لايمكن أن تقال في جريدة، رغم أن الأسرار في هذا البلد في طريقها إلى الزوال كما قال عمران، وتحت جدار السينما بالضبط، في زقاق جانبي يتفرع من شارع السعدون، يقع المشرب الذي اختاره زاهر لجلسة فريدة من هذا النوع. الدخول من وهج الحرارة إلى الباب المعتم يشبه الدخول من الجحيم إلى الفردوس، وقد وجدا المشرب غاصاً بالرواد، وثمة مبردة تنث هواء بارداً، وتلفزيون معلق في الجدار يبث أغاني شعبية دبلجت على صور راقصة، وعشر طاولات في المكان، جميعها من الخشب العتيق، تنتشر عليها قناني البيرة والعرق والويسكي مع صحون صغيرة من المازة، وكان الذباب هنا أيضاً، فهو يتنقل بحرية بين الطاولات، قاد زاهر عمران إلى الطاولة الفارغة القريبة من المكيف، وجلسا قرب عمود

إسمنتي ضخم، وكلاهما لا يعرف من أين يبدأ، فثمة الكثير للسؤال عنه أو الحديث. وكان عمران يتأمل زاهر بين لحظة وأخرى، غير مصدق ما يرى، هل حقاً يجلس مع صديق العمر بعد هذه العقود من السنين؟ هل رجع الغائب إلى عشه كما في الروايات والأساطير؟ وفاجأ زاهر بالسؤال المتوقع قائلاً: لماذا رجعت إلى البلد؟ وما كان من زاهر سوى أن يضحك عالياً، ضحك أثار انتباه الجالسين ولم يفهم عمران سبب ضحكه، رد عليه أنت مثل من يسأل المريض لماذا تتعافى، أسباب خروجي من الوطن انتهت، تذكرت أهلي وعدت، أنا من القلة الذين لم يفقدوا أحداً من أخوتهم وعائلتهم في الحروب التعيسة التي مرت. تذكرت وأنا قادم اليك أيام الجامعة، أعتبرها أيامنا الذهبية: مقهى مام علي، وإبنه آوات، وهواء الرشه به وكل تلك النهارات التي قضيناها في النقاشات والغزل مع الفتيات في نادي الجامعة، قال عمران وهو يحدق بوجه زاهر المتخوم بالسنين، ذي العينين القلقتين الدائرتين في المكان، فأجابه زاهر متأملاً منتقياً كلماته كعادته في الكلام: حتى في مدن أوربية كنت أتذكر مام علي وسينما سيروان وحياتنا في الأقسام الداخلية. أين تعيش الآن؟ بيتي في المنصور وهو بيت ملك، قريب من معرض بغداد الدولي، ولدي ثلاثة أولاد، الكبير ياسر في أول جامعة، والثاني عمره خمس عشرة سنة، وبنت هي الأصغر وعمرها عشر سنوات. وأخبار العشق والنساء يا عمران؟، و ضحك عمران بصوت عال وزادت غضينات شفتيه الرقيقتين، وأحس زاهر أنه لامس وتراً حساساً في روحه، كان عمران آنذاك أهم عضو في جمعية الذكر الحزين في جامعة السليمانية، بلغ عمره واحداً وعشرين سنة ولم ير جسد امرأة في حياته،

هو من مدمني الإستمناء المعروفين، يستمني في الحمام، في مراحيض الجامعة، في الباصات، على أرداف النساء، وهو أول من أدخل المجلات الخلاعية إلى القسم الداخلي، عشق ثلاث طالبات دون أن يجرؤ على الحديث معهن، ضبطه زاهر أكثر من مرة يستمني في فراشه بعد أن يطفئا الضوء في تلك الغرفة الصغيرة المطلة على جبل كويجة المكلكل على مدينة السليمانية.

تلك مرحلة ربطا فيها التمرد والإستمناء برابط ديالكتيكي لا يشك فيه، لكن ذلك كله جرى منذ عقود، قبل أن تتحول بغداد إلى موقد ضخم للدخان، وإلى مصنع لإنتاج الجثث مجهولة الهوية، وغيوم الدخان تهيمن على فضاء المشرب وتشكل ستارة صلبة فوق الرؤوس، وبعض يخرجون وبعض يدخلون، والنادل يسير جيئة وذهاباً بين الطاولات، والقلق كان مرتسماً على وجوه الجميع، إلى اليمين رجال يتجادلون حول السيارات الجديدة التي بدأت تدخل البلد بعد أن فتحت الحدود على مصراعيها، وهم يتناقشون بأسعار أنواع السيارات وضرورة تغيير القديمة ومنعها من المرور في الشوارع، وإلى اليسار جلس رجلان بارزا العضل وعلى وجهيهما سمات الشر، كانا يتداولان حديثاً ملغزاً لم يستطع زاهر فهم معانيه، كان يصيخ السمع لهما، في موجة تتلبسه دائماً من أجل معرفة كل ما يدور في البلد، ومراقبة الحديث، وردم الهوة الواسعة التي فصلته عن البشر، يكرعان قناني البيرة بشهية، زاهر وعمران، تتداخل مواضيعهما حتى يصعب على الجالس جنبهما تتبعها أو إيجاد الرابط فيما بينها، فمن موضوع الجيش الأميركي واحتلاله للبلد الذي يعتبره عمران تحريراً، إلى العمل في الجريدة والفتيات

الموجودات، ومن أيام جامعة السليمانية ونوادر الأصدقاء القدامى وأخبار جمعية الذكر الحزين إلى الجيش الثوري الذي شكله عمران في المنصور لمقاتلة البعثيين وأصحاب النظام السابق، بدعم من الأميركان، وبمرور الدقائق والساعات كانت الهوة تضيق قليلاً قليلاً بينهما، وكانت الأحداث تترابط بعضها ببعض، لتشكل ذلك النسيج الذي تواصل بعد أن غادر زاهر البلد وترك عمران مدمناً للجلوس في مقهى البرلمان، يتابع مؤخرات النساء المارات في شارع الرشيد. وفي فترات الصمت القليلة يبدأ عمران وزاهر يتطلعان أحدهما بالآخر، بنظرات ثابتة تجول على الوجه والعينين والشعر، وكأنهما، كلاهما، لا يصدقان ما يجري في الحاضر، وفي ذهن كل منهما أسئلة معقدة واستفسارات تخص كل شيء، ما يجري في البلد، النساء، العائلة، المعاناة اليومية، التاريخ القريب الذي عاصراه كل من موقعه، وصولاً إلى الأسئلة الفلسفية حول أصل الحياة، وسبب وجود البشر على الأرض، والإكتشافات العلمية الجديدة، وحقبة التحولات العالمية بعد انهيار حلم الشيوعية، ذلك الحلم الذي جمعهما في سبعينيات القرن العشرين، حلم السليمانية المطوقة بالجبال كما سمياه. شقتي في البياع جاهزة إذا ما أردت الخلوة مع إحداهن، وكذلك مكتبي في نفق الشرطة، وبالمناسبة كانت تلك المرأة سهى تنظر إليك بإعجاب، قال عمران، والشقة ضرورية للمتزوجين من أمثالنا، في المستقبل سأعرفك على أصدقائي هنا في بغداد، نجلس عادة في النادي بعد الظهر، لماذا لا تنضم لنا؟. بالتأكيد رد عمران، أنا بحاجة إلى جو آخر غير عالم الحصى والرمل والخرائط والحديد، مللت هذه الحياة الرتيبة، وأفكر بتوظيف أموالي في قطاع آخر غير المقاولات،

ربما الموبايل أو الكومبيوتر، لحد الآن لا أعرف، البلد كما ترى يمر بتحولات هائلة، ويجب اقتناص الفرصة، ثم انتبه زاهر فجأة إلى خلو البار من الرواد، لم يكن سواهما هو وعمران في الصالة. شعر بالخوف، فهذه أوقات فاصلة، ويمكن اختطافهما من المكان بسهولة، لقد رحل الجميع، ونظفت الطاولات وأقفل التلفزيون المعلق، وبدأ النادل بركم الكراسي فوق الطاولات، وهي إشارة إلى الإغلاق، وأصر عمران على دفع الحساب، وكان الزقاق حين خرجا من البار معتماً، وشارع السعدون مقفراً، وزحفت المرسيدس صاعدة نحو جسر الجمهورية، واتجه زاهر إلى موقف الباصات الصغيرة التي تذهب إلى شارع فلسطين، وكانت جدارية جواد سليم تتعملق في غسق دخاني، وزاهر يشعر بسعادة، لقد استرد صديقاً حميماً، استعاد أحداث عشرين سنة من الماضي، وكان وجه سهى ينبعث في ذهنه بقوة، تشبه قوة الغروب الهابط على المدينة، وكانت الصحراء الشاسعة والهادئة تبتلع كل شيء بعد ذلك، الوجوه، الحكايات الماضية، وعمران المهندس، وشقة البتاوين، وتبتلع شهقات سهى التي ترددت في أذنيه مرة في مكتب عمران المهندس، كل ذلك كان يثير الشجن، خاصة من داخل سيارة مسرعة تغادر به نحو مصير مجهول.

مرة أخرى، حكاية البيوت تكرر نفسها، هكذا أحس زاهر وهو يحدق بصمت إلى الصحراء التي يخترقها الطريق الدولي المتجه إلى الشام، وحين تكتمل الحكاية تتحول إلى ذكرى. والذكرى جرس يدق في عالم النسيان مثلما تعلّم جميع جيله هذه الحكمة قبل أربعين سنة، وهشام غفا بين يدي أمه في الحوض الخلفي، والسائق مثله صامت يمد بصره في الطريق أمامه، وبين الحين والآخر تمر بهم دورية أميركية تتكون

من ثلاث عجلات أو أكثر، تتبعها أرتال من السيارات المغادرة إلى دمشق وعمان أو العائدة منهما. هذا المنظر اعتاد عليه، منذ أن رجع الى البلد أول مرة، إنه خزان ينبذ البشر، ويستعيدهم كذلك، رغم أن من ينبذهم أصبحوا هم الغالبية، والسيارة تنطلق بسرعة مئة وخمسين كيلومتراً في الساعة، حين قطعوا نقطة الكيلو مئة وستين، وثمة رتابة الطريق، والمشاهد المتشابهة في الجانبين، وسراب الرمال والعاقول في المساحات الشاسعة، وضوء الشمس المنبسط فوق السهوب، كل ذلك يستدعي الماضي في رأس زاهر ليكون بديلاً عن الرتابة، ومنذ عشرات الكيلومترات والأفق على جانبي الطريق بقي ذا لون رمادي يميل إلى الحمرة، وبلا أي أثر لإنسان، حتى البدو، الذين عادة ما كانوا يقطنون هذه الأماكن، لم يعودوا يسرحون بإبلهم، فالزمان تغير بالنسبة لهم، ووجودهم في الصحاري أصبح خطراً مع هذا الحشد من الطائرات المروحية، والجنود، والدبابات التي لا أحد يعرف من أين تنبع وكيف تختفي، والكثبان الرملية شحيحة ايضاً في هذا الطرف من الصحراء الشامية، وكان يرمق الحقيبة التي فيها تقرير عمران بصمت، وهي مركونة قرب قدمي زوجته، زار عمران المهندس في بيته الواقع في حي المنصور، قبل أن يبيعه ويغادر إلى جهة مجهولة حتى له، هو زاهر، زاره بعد يومين فقط من إطلاق سراحه، وحدثه كثيراً عن الفترة التي قضاها في الإختطاف، والمعاناة التي عاشها، وهو يعتقد أن التقرير لن يأتي بجديد على صعيد الأحداث، ما يغريه هو كيفية كتابة عمران لتلك الحقبة من حياته، فعمران قارئ جيد ويهتم بالثقافة والصحافة منذ أيام جامعة السليمانية، هكذا عرفه، إلا أنه لم يقرأ له أية نصوص مكتوبة،

وهذا ما كان يغريه بقراءة التقرير. مال السائق إلى جهة اليمين، نحو استراحة صحراوية تقع في نقطة قريبة من الحدود السورية، اسم الإستراحة: العشائر، قال السائق: نتغدى هنا، ونشرب الشاي، ثم نمضي، واللوحة المعلقة فوق باب المطعم لا تدل على الإسم، كما لاحظ زاهر، فقرب الإسم رسمت نخلتان باسقتان، تنحنيان على نهرين أزرقين، هما دجلة والفرات، تخيل سمك الشبوط والبني، وسمع المغنية العتيدة صديقة الملاية وهي تنشد على ضفاف أبي نؤاس: يا صياد السمك صدلي بنيّة، عجب انت حضري وآنا بدوية، الحلفاء والشنبلان وأشجار الصفصاف وهي تنحني على جزر دجلة أمام كورنيش الأعظمية.

نهران أزرقان خلقا بلداً من موت وغبار، وكاد الغبار أن يغطي على الإسم واللوحة كلها، لتبدو غارقة في القدم. تتألف الإستراحة من مطعم وعدة دكاكين ومصلى صغير، الساحة أمامها غاصة بالسيارات من كل نوع، وبالبشر الذاهبين إلى دمشق وعمان أو القادمين، هناك أيضاً باعة بانزين الذين يضعون سائلهم في جلكانات بلاستيكية من سعة العشرين تراً. وبدو ملثمون يركبون سيارات بيك أب محملة ببراميل المياه أو نكاز، إضافة إلى السكر والشاي والزيت واللحوم والطحين، وما إلى ذلك من مؤن ربيعية، وأمام دكان صغير جنب المطعم صناديق بلاستيكية ملينة بالطماطم والخيار والفلفل الأخضر، قرب الصناديق سلة من الخوص ملينة بالكمأ الصحراوي، كان لونه رمادياً، اللون أعاد إلى زاهر ذكريات قديمة عن الكمأ والفطر، ووجبات أمه منها، في عشاءات بعيدة، وهناك نساء غير محجبات، لفتت نضال نظر زاهر إليهن، وكن يجلسن في المطعم الذي قسم إلى قسمين، زاهر طلب من زوجته أن تضع ملاءة على

رأسها أثناء الطريق، فهو يدرك أن الطريق غير آمن هذه الفترة، هناك مسلحون يستوقفون السيارات أثناء السفر وقد يعاقبون المرأة السافرة. لذلك تلافياً لهذه المخاطر طلب منها وضع الملاءة ما أن جاوزوا مدينة الفلوجة، خطورة الطريق تبدأ من تلك النقطة حتى هذه الإستراحة، الفلوجة، الحبانية، الرمادي، هيت. وبعدها تكون الطريق آمنة، ولا تعود هناك أية قرى قريبة من المنطقة، وكان الموجودون أغلبهم من المهاجرين إلى الخارج، وهذا واضح من الأثاث الكثير المحمول على سيارات الجي أم سي، والتاكسيات، ومن الخيبة الكبيرة التي كانت تتربع على وجوه الناس، خاصة وجوه النساء، فمنهم من باع بيته ومنهم من أجّره وجمع كل ما هو ثمين في حياته واستأجر سيارة، وغادر إما إلى الشام أو إلى عمان، هل يحملون مثله تقاريرهم عن قصص الموت والإختطاف؟ فكر أنه لم يكن الوحيد بينهم بالتأكيد، هم أيضاً قصص متحركة على حد وصف ربيع المحمدي، قصص ينبغي أن تؤرشف في دائرة وطنية خاصة.

جلس إلى طاولة فارغة في القسم العائلي من المطعم، وجلست نضال أمامه، وكان هشام يتربع قلقاً على الكرسي الثالث ناظراً بدهشة إلى هؤلاء البشر، والحركة الدائبة التي لا تنقطع للداخلين والخارجين، وأحس وكأن الشعب برمته مهاجر، وهذا ما أحزنه جداً، لكنه حين تذكر عمران وتقريره، فهم السبب، وأوصى على نفري كباب وقنينتي كولا وبدأ يسمي لهشام، الذي صار يتكلم حديثاً، الموجودات التي في المطعم، البصل، الثوم، الكباب، الكأس، الماء، النادل، التشريب، العطش، الجوع، الخبز، الرغيف، السيارة، البعير، النقود، وما إلى ذلك من مفردات، محاولاً حشو رأسه بقاموس جديد عليه، وتعابير لم يألفها

ثناء عيشه في بيت شارع فلسطين، وهنا بالضبط تذكر رواية غائب طعمة فرمان المرتجى والمؤجل، هو يمارس دوراً مشابهاً لدور بطل الرواية الذي قضى وقته في المستشفى يلقن إبنه المريض تاريخ بلده، بالتفاصيل المملة، التي حولها الزمن إلى تفاصيل جميلة رغم أنها لم تكن كذلك في حينها، فلماذا يكرر التاريخ نفسه في هذا البلد المصنوع من نهرين وزرقين رسما على لوحة مطعم العشائر؟ للهجرات قاموسها الخاص، ذلك القاموس الذي يتسع ويتسع بمرور الأيام والسنين، وكان زاهر يتلذذ بهذا الدور، الملقن، ويمارسه مع هشام أغلب الأوقات، ونضال كانت تستغرب من هذه الطريقة في التعليم، إلا أن زاهر ظل مقتنعاً بها كل القناعة، وكان يسميها طريقة توسيع العقل بالمعلومات، أي بالمفردات الجديدة على ذهن طفل لم يبلغ الثلاث سنين بعد.

فكر أن يبدأ بالحديث عن أصدقائه: ربيع المحمدي، وعلي محمد أمين، وأبو حسن، وعمران، وسهى، ويسرد قصة كل واحد منهم، كي لا يزولوا من وعيه، طبعاً سيقفز على حكايته مع سهى كي لا تسمع نضال بالأمر، ويمحي أحلام من مساءات شقة النجمة، فهي عصفورة غردت ذات يوم على البالكون ثم طارت إلى أفقها البعيد، وعرفت نضال صورة غامضة عن شقة البتاوين، التي استأجرها قبل أكثر من سنة مع أصدقائه، لكي تكون مكاناً للقصف واللهو، لكنها تجهل تماماً ما كان يجري فيها من حوارات وزيارات ومؤامرات نسائية، كانت حكاياته مع النساء من أسراره الشخصية، (توب سيكرت)، كما يفضل وصف ذلك بالإنكليزية. يتذكر الآن حواره مع عمران المهندس في أول لقاء معه حين قال له جازماً: لن أترك البلد حتى لو واجهت الموت، وها هو يترك البلد

قبل أقل من سنتين على ذلك الحديث، وأقل من خريفين من خريفات بغداد المذهبة بأوراق النارنج والصفصاف اليتيم قرب الجسور وريش اليمام الدانخ من رائحة البارود، وكانا في المشرب الصغير، شبه السري، تحت سينما بابل في شارع السعدون، ولا شيء مؤكداً في هذا البلد سوى الموت والغبار والذباب. نضال تنظر بفرح إلى الناس الموجودين في المطعم، وكأنها تهنئ نفسها بالخروج سالمة، وهي فضلاً عن ذلك ستلتقي بأمها وأبيها وأخواتها وصديقاتها، يداها ما زالتا سليمتان، أظافرها مطلية بالأحمر، شعرها لم يحترق، ووجهها على صفائه السابق، خرجت مكتملة الأعضاء من المحرقة، وسمع زاهر امرأة على الطاولة المجاورة تقول لإبنها بصوت عال: هذا آخر تشريب عراقي آكله في البلد، وخمن أن المرأة وعائلتها من الذين طردوا من الخزان، من أولئك الذين سيمضون إلى مصيرهم المجهول مثله، مشكلة الإقامات، السكن، العمل، مراجعة السفارات، الإتصال بالصليب الأحمر، بمفوضية الأمم المتحدة للاجئين، والطيران بعد ذلك إلى كوبنهاغن، أوسلو، بروكلين، أمستردام، برلين، ريكافيك، وعشرات المدن الأخرى، هذا السيناريو ظل يتكرر طوال عقود، وفي جميع العواصم.

هناك إقبال هائل على الطعام، لمسه زاهر على وجوه الزبائن، فسره على أنه نقيض للموت، وكأن هذا القطيع المسكين يجد في الطعام بديلاً عن الموت الذي يترصده كل يوم وثانية، رائحة التشريب والكباب والتمن العراقي المطبوخ بالزبدة الحيوانية، وتكة لحم الخروف، والبصل والنعناع واللبن الرائب، كل ذلك يصنع في المطعم رائحة خاصة تستثير الجوع حتى في أكثر الناس شبعاً، لذا طلبوا شاياً بعد الغداء، ودلق هشام قنينة

الكولا على الطاولة، فأخرجته أمه إلى الحمام كي تغسل بنطاله الجديد، بعدها خرجوا إلى الساحة باحثين عن السائق، وألفوه يشرب الشاي جنب البائع الذي يتجمع حوله المسافرون، وكان تحت يديه عدد من أباريق الشاي، موضوعة على موقد غازي عريض، ولمحهم السائق وأشار لهم بالتريث، فهو سيدخل المسجد الصغير ويصلي العصر. هذه المحطة مدهشة، فهي منطقة تجمع للصوص السيارات والجماعات المسلحة ومخابرات الدول الأجنبية، فهنا يتشممون الأخبار، ويحدقون في الوجوه، ويترصدون الحوارات عن بعد، ويغامرون أحياناً بتوجيه الأسئلة إلى المسافرين وكأنها أسئلة عفوية، كان الغرض الحقيقي منها فتح باب للحديث، فالحديث مهما قصر يكشف لهجة الشخص، وطائفته ومدينته ودينه وإلى أين يتجه، إذا تعذر ذلك فالمستقصي يبدأ بتخمين المعلومات تلك على هواه، فثمة رجال ملثمون ينتحون جانباً، في ركن الإستراحة أو جنب سيارة أو قرب محل بيع الشاي، يحدقون بالغادين والرائحين، من دون أي عمل، وهناك سيارات تغادر للحظات إلى مكان مجهول ثم تعود، وهناك سواق سيارات يستبدلون نمر سياراتهم بنمر أخرى، ولن يتفاجأ إذا ما رأى شخصاً يغيّر لون سيارته قبل الوصول إلى الحدود، ففي هذه الكيلومترات المتبقية كل شيء ممكن، من تصريف العملات إلى المتاجرة بالسلاح، إلى المتاجرة برؤوس البشر، عبر صفقات خطف وإغتيالات وتصفيات.

فاجأ زاهر شاب أسمر أثناء ما كان ينتظر قرب السيارة، وهو يلقي عليه سلاماً حاراً، ويسميه بإسمه، استغرب من هذا السلام الحار، فاستوضح من الشاب عمن يكون، أخبره أنه واحد من أقربائه البعيدين،

إسمه علي، لم يره هو إلا مرتين لكنه يتذكر زاهر جيداً فأمره معروف بين الأقرباء، قال الشاب إنه متجه إلى عمان لعمل عملية في الخصيتين كونه لم ينجب لحد الآن، ومستشفيات العراق أصبحت تشبه مأوى للمشردين والشحاذين، وهو متفائل بالعملية التي تشبع جوعه للبنين والبنات، وهذا ما أراح زاهر بعد المحادثة، فالمرء لا يعرف اليوم من أين تأتيه المصيبة، ومن هم الذين يخططون لأمور السوء، وعمران المهندس مثال قريب على هذا. أحس بالراحة حين استقر في السيارة هو وإبنه وزوجته، لف السائق الطريق الترابي القصير المنحدر من ساحة الإستراحة ومضى نحو الطريق الدولي، وأثناء ما كان الحصى يرشق الجانبين برذاذه وغباره فكر إنه في نهاية مغامرته، فهم يدخلون منطقة الأمان، فمن هنا وحتى الحدود السورية لن يحدث أي عارض، كما كان جميع المسافرين يؤكدون ذلك، حتى القوافل الأميركية ندر مرورها، والسيارات أصبحت تغذ السير برهافة وترو، وكأنها تفهم مشاعر راكبيها. المجهول. الهجرة. الخروج الأبدي. وذلك التيه المزروع بالخيبات والندم والحنين، المزروع بالأرق والتأمل وقتل الوقت. الصحراء مرة أخرى، وقد بدأت تلالها تقطع خط الأفق في مسافات بعيدة، وثمة تراب أحمر شفيف يتمطى في جانبي الطريق العريض. قرأ زاهر، بسرعة خاطفة، في لافتة حديدية عتيقة، مغروسة على جانب الطريق الأيمن: رمال متحركة، الرمال تسف من مكان إلى آخر، تبني تلالاً صغيرة سرعان ما تكبر، أو تزيل تلالاً كبيرة نحو منطقة أخرى، الرمال المتحركة والتربة المتحركة، فكر زاهر أن ثمة فرقاً بينهما، فالتربة مكان رخو يغوص المرء فيه، وهو يغوص كلما حاول التخلص منه، عكس الرمال المتحركة فهي تنتقل من مكان الى

آخر، ويمكن بسهولة التخلص منها، أو الإحتماء، والعراق اليوم، تربة متحركة، سيغوص فيها الجميع، بل هو طين متحرك لا يدرك عمقه.

هرب هو إلى الرمال المتحركة قبل أن يتورط في تلك التربة، ولم يلمح طيوراً في هذه الصحراء، واستغرب خلوها من الحيوان أيضاً، ربما بسبب هذه الرمال المتحركة، وربما بسبب الحروب التي تعاقبت، هاجرت إلى دولة مجاورة مثلهم هذه الأيام. لن يقرأ تقرير عمران، رغم الهدوء الذي يخيم عليه الآن بعد وجبة الكباب، وشعور الأمان، ونضال نائمة وهشام ايضاً، والحقيبة تستلقي في أرض السيارة، نقل عقله إلى السنوات التي عاشها في بغداد، كانت تجذبه الى أحداثها مثل مغناطيس، أحس كما لو مر عليه عقد من السنين وهو قاطن في شارع فلسطين، ونجمة البتاوين تدق في عالم النسيان، إنها مثل جرس كما تقول الحكمة القديمة، وثمة أخطبوط هائل يتشبث به، أخطبوط يمتلك آلاف الأذرع، ذراع جريدة السلام، ذراع علي محمد أمين وكوابيسه الليلية في غرفته البائسة في الطالبية، ذراع ربيع المحمدي وهو يحدثه عن أرشيف القصص الوطني الذي سيوفر للكتّاب زادهم المصنوع من دماء وحكايات ورنين، ذراع دجلة الذي يربط بين الفرات ودجلة، بأمواهه اللازوردية، وذراع سهى التي قالت له بحزن: إرحل... فقلبي معك، وأراد أن يجد نقطة بداية لحياته فلم يستطع، ثمة خليط من الحوارات والوجوه والشوارع والبيوت، لكنه بكل تأكيد ظل، ولأيام طويلة لايجد سوى ذلك اليوم نقطة دالة، ذلك اليوم الذي وجدوا فيه نجمة البتاوين، لكن لماذا هذا الحدث بالذات نقطة انطلاق لحياته في بغداد؟ سؤال لم يعرف جوابه، إنه مثل كل مرة يستطيع حتى تذكر وجه علي محمد أمين وتعابيره، وهو يبشرهم بالعثور على الشقة.

٤

دخل باسماً من الباب الزجاجي للنادي، ما لم يعتد عليه إلا نادراً، وخمن الجالسون في نهاية الصالة المعتمة أنه يحمل خبراً ساراً، وكان يمسك جريدة وكتاباً، وينقل خطواته بيسر وبطء، تنعكس الأضواء على جبهته السمراء الواسعة، الخالية من الشعر، وبدأ يلقي التحية على الموائد المصفوفة في الصالة، والموجودون أغلبهم من معارفه وأصدقائه، دأب على مجالستهم منذ سنوات، منذ سنوات الحصار، وصالة النادي معتمة بعض الشيء، رغم وجود أضوية خافتة على الجدران، كونها لا تحتوي على نوافذ. النوافذ الصغيرة أغلقت بالمبردات التي ظلت تأز طوال الصيف وحتى فترة قريبة، والصالة قطعة واحدة، يشكل الباب بؤرة لها، يسكب ضوءاً خريفياً على الموائد العامرة بالخمور والمازة وعلب السجائر، وعلى يمين الباب علق التلفزيون الجديد، الذي يضعه النادل أبو قمر على قناة العراقية، كانت سحب الدخان تقف قرب السقف، وهواء الصالة خليط من روائح الكباب والتكة واللبلبي والتبولة، تشوبها عفونة ضئيلة ناتجة عن انغلاق المكان وخلوه من التهوية، عثرت على شقة رائعة، قال علي محمد أمين وهو يسحب كرسياً من الطاولة المجاورة ويضعه في مكان ضيق، بين زاهر حسين وأبو حسن، أين؟، سأله أبو

حسن، وهو يسكب له قليلاً من العرق في الكأس الفائض عن حاجة الجالسين. في حي البتّاوين، وهي مؤلفة من غرفتين. فيها حمام، وتقع في الطابق الثالث. لكنها بحاجة إلى ترميم بسيط. إيجارها مئة وخمسون ألف دينار في الشهر. نسبياً الإيجار رخيص.

أثناء الحوار، ومن وسط ضوضاء النادي، انفجرت سيارة مفخخة في مكان ما من بغداد بدوي عال، ارتجت له الصالة، مكان الإنفجار لا يتعدى محيط ساحة التحرير، ووقع كأس من إحدى الطاولات وتحطم، وتناثرت حبات حمص من ملعقة ربيع وكان يهم بوضعها في فمه، بعد رشفة كبيرة من العرق، والتلفزيون يبث أغنية ياس خضر: وداعاً يا حزن، تلك الأغنية التي يعشقها علي محمد أمين جداً، ويرددها في الجريدة والشارع، ويغنيها للأصدقاء على موائد الخمرة. لم يأت عمران المهندس هذا اليوم، قال زاهر حسين وهو يتأمل في صلعة علي محمد أمين، فكر زاهر أن الشقة ستكون ملاذاً له لكي يتخلص من عبء الأسرة، وراح يحلم بجلب سهى ذات يوم إلى هناك لكي يقبلها، ويتمتع بكنوزها الجسدية التي تثيره باستمرار. لديه مقاولة جديدة وإلا ما تأخر هكذا، قال المحمدي، أو ربما عشيقة جديدة غير عشيقة البياع. ماذا قال اسمها؟ سماهر؟ أكيد أنه اسم مستعار، غجرية على الأغلب. علق أبو حسن وهو ينظر نظرات غائمة إلى وجه ياس خضر الذي ملأ الشاشة، مودعاً حزنه، وكان ذلك الحزن يسيل من شاشة التلفزيون ليغلف جميع الوجوه المنكبة على طاولاتها، وجوه كئيبة، جافة، غير معتنى بها، تنث حولها تعابير متجهمة قلقة، وجوه تردد مع الأغنية: وداعاً يا حزن/ ولا توصل بعد. رضينه بدنيتك/ سنين بلا عدد، نعود الى موضوع الشقة،

قال علي محمد أمين بعد أن كرع كأسه الثاني بلهفة، هل نأخذها؟. أنا أظن أنها ملائمة لنا جميعاً، فهي لا تبعد سوى مئة متر عن الجريدة، وتقع في مركز بغداد، ويمكننا شراء ما نحتاجه من حي البتاوين، هناك كل شيء حتى محلات بيع الخمور، فقط تنزل الدرج وتقع يدك على قنينة عرق مسيّح، أو علبة بيرة من نوع هاينيكن، ثم أطلق ضحكة عالية أبرزت أسنانه الصفراء قليلاً، رغم أنه لا يدخن إلا في حالات السكر الشديد.

الشقة بمواصفاتها التي ذكرها علي محمد أمين ملائمة لهم جميعاً، من ناحية السعر والموقع، بدلاً من الوقوع تحت رحمة إدارة النادي والمناسبات الدينية التي يغلق فيها، سيكون لديهم مكان يجتمعون فيه، ويحتسون الخمرة، ويناقشون الأحداث بحرية. فكر علي محمد أمين وزاهر حسين بسهى، وفكر ربيع أنه يمكنه النوم في الشقة كلما أثقل بالشرب، وقرر الهروب من مناكدات زوجته سعاد، وفكر أبو حسن أنها مكان ملائم لكي يروج أمام الأصدقاء عن الكتب الحديثة التي وصلت مكتبته في شارع المتنبي، فرصة للدخول في عالم الثقافة، وحوارات السياسة، الموجعة للرأس والضرورية في الوقت ذاته، واصطياد النساء إذا ما توفرت الفرصة، لم لا، فحي البتاوين مشهور بكثرة عاهراته، وهناك عشرات البيوت التي تبيع اللذة في أزقة الحي، وصوت سيارة إسعاف، تلاه آخر في الشارع المواجه للنادي، وكان الذباب ينقض على كل شيء، يتسلل إلى حبات الحمص، ويطير فوق التبولة، وينهش بلوامس خفية ذرات الكباب المتساقطة من الصحون، ويثز مثل منشار غير مرئي فوق الرؤوس الحالمة. وساحة الأندلس مكان مكتظ وخطر،

وثمة مستشفى قريب يبدو أنهم ينقلون ضحايا الإنفجار إليه، وطائرة أميركية محلقة غطى ضجيجها على أحاديثهم، فصمتوا هنيهات إلى حين اختفى الصوت، وبدأت همهمات الجالسين تتصاعد، وسمعوا من طاولة مجاورة من يقول إن الإنفجار حدث في منطقة الشورجة، وسط السوق تماماً، والضحايا كثيرون. اختلط الحابل بالنابل، وأغلقت منطقة الشورجة من قبل القوات العراقية والأميركية. حكاية لا تنتهي، قال أبو حسن عقب فترة صمت. يدّعون أنها حرب طائفية، قال علي محمد أمين بتذمر، من قتل في الشورجة قبل دقائق ليس من دين واحد أو طائفة واحدة. أنا اشتغلت سنين في الشورجة، أيام الحصار، إنها منطقة تلم الجميع، الكردي والعربي، المسلم والمسيحي، السني والشيعي والصابئي والتركماني وحتى الجن الأحمر، هناك من يريد الإنتقام منا. لن يوقفوا عجلة الحياة، قال زاهر حسين، والتاريخ لا يعود إلى الورا»، وثمة من لا يرغب في رؤية الزلزال الذي حدث، خلق الفوضى سيعيد الماضي، لكنه وهم لا غير، أو حقد أعمى، قال ربيع المحمدي بكلمات ثقيلة من مفعول الخمر، تغيير بهذا الشكل لا بد أن يستجر الكوارث، تغيير من فوق، عن طريق جيش أجنبي، توقعوا كل شي». يوما ما سيرشون الناس بالغازات السامة، أو يسممون الطعام والمياه، وبدأت الكلمات تفقد ترابطها، وتتناثر الأفكار دون أي عائق، لكن نجمة البتاوين قد ولدت في تلك الأمسية دون شك، نجمة البتاوين تحولت إلى كراس وطاولات وفراش للمضاجعة وحوارات وشموع توقد في ليالي الظلام، ونظرات حالمة تتصيد وريقات أشجار اليوكالبتوس المشعشعة فوق أمواج النهر، وبدأت أشعة الشمس تنسحب قليلاً قليلاً، نحو الغرب، نحو ساحة

التحرير وشارع الرشيد وساحة الرصافي، عابرة رؤوس نخيل الحدائق والعمارات، مخلفة وراءها ظلال المباني المحيطة بالنادي، وأسراب الذباب تتطاير في محاذاة الباب مستمتعة بحرارة الشمس، وكان النادل أبو قمر يذهب ويجيء بين الطاولات، يجلب أرباع العرق واللبلبي وصحون التبّولة والسلطة، والصالة مليئة بالشاربين، وأبو قمر يحاسب المغادرين، وياس خضر غاب منذ زمان عن الشاشة، وبدأ الفريق الكروي يلعب مباريات حامية، ولاحظ زاهر خلو الصالة من النساء، واستغرب من وجود مكان للمتعة والقصف يخلو من النساء، في لندن وباريس وكوبنهاغن، في بيروت ودمشق وعمان، النساء في كل الصالات والنوادي التي جلس فيها، يشربن البيرة، ويدخن، ويحتسين العرق والويسكي، ويناقشن في الثقافة والفن والسياسة، ويضفينّ جواً ناعماً على المائدة. يجري ذلك في كل بلدان العالم إلا هنا، في هذا البلد.

تخيلوا: ماركيز بألفي دينار، ديستويفسكي بثلاثة آلاف دينار، كويللو بألف دينار، الرصافي بألفي دينار، محمود درويش بثلاثة آلاف دينار، رواية العطر كونها مرغوبة بأربعة آلاف دينار، وأبوحسن يعدد الأسماء وأسعارها كما لوكان يقرأ في دفتر مذكرات، يعدد الأسماء ثم يضحك، تلك كتب مستنسخة في شارع المتنبي، إنهم يقرأون الكتب وهم بين فكي الموت، اليوم شارع المتنبي محموم بالكتب الجديدة، تأتينا من دمشق وبيروت وطهران، تجارة الإستنساخ رائجة رغم ذلك، وصنع الأختام للتزوير، وهناك قراء لا يستطيعون شراء النسخة الأصلية، فيعمدون إلى شراء المستنسخ. والكتب الدينية؟ سأل ربيع. رائجة. كل الكتب رائجة، حتى كتب السحر والشعوذة، تخيل أن واحداً من

أصدقائي ربح مئات آلاف الدنانير بإستنساخ كتاب قراءة الكف، هل تصدق ذلك؟ هذا قانون معروف لدى البشر، قال زاهر حسين، كلما شاع الموت بدأ الناس يؤمنون بالخوارق والسحر والشعوذة. هل يوجد لديكم في شارع المتنبي كتاب كيف تصطاد المرأة خلال أسبوع؟ قال علي محمد أمين ساخراً، وهو يفيق من غيبوبة السكر، وينظر إلى أبو حسن بعينين شاردتين، يلوح فيهما مزيج من الأسى والحزن، وراح يغني دون أن ينتظر جواباً على سؤاله: وداعاً يا حزن، صبرن وعوض الله، علينه شما صبرنه، بصوت رخيم وشجي خارج من غياهب روحه المغلقة، يودع الحزن وتعابيره غارقة ببحر منه، وهو مثل قبطان دائخ يحاول التعلق بالغناء والشعر وحب النساء، لم يحدثهم كعادته عن معاناته في البيت، حين تنقطع الكهرباء ويسلق هو في غرفته الصغيرة المعلقة في الطابق الأول، يسلق بين كتبه وكوابيسه وسيدياته وأشرطة الغناء النادرة التي يحتفظ بها، غرفته مصنع حقيقي للكوابيس الليلية، كم مرة استفاق وهو يصرخ بصوت عال نتيجة وجوده الوهمي في معمعة حلم مرعب؟!

وكم مرة صعدت إليه أمه وهي تستعيذ بالشيطان الرجيم وتوقظه من بين أصابع رجل مجهول يحاول خنقه؟!! يهرب من البيت والغرفة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، هذه اللحظات كرسها للشقة الجديدة، وأحلامه في الدخول، عبرها، إلى جنة النساء، وفي الخارج أصوات المؤذنين لصلاة المغرب، عشرات الجوامع تسكب تراتيلها على البيوت والحارات والشوارع التي راحت تخلو من المارة، وساحة الأندلس مقفرة، إلا من دوريات سيارة للشرطة، والشارع المتجه إلى ملعب الشعب بدا معتماً، تتخلله أضواء مبعثرة لسيارات مسرعة وغامضة، السيارات المارقة في

هذه اللحظة غامضة وتثير الريبة. وساحة النادي فرغت من السيارات، وبدأ الندل يستجمعون أغراضهم لغلق المكان، بعد هذه الساعة يصبح البقاء خطراً، حارس الباب المسلح ببندقية كلاشنكوف عتيقة بدأ يغلق درفتي الباب استعداداً لأي طارئ، لم يصل أي واحد منهم إلى درجة خارقة من السكر لذلك قرروا الرحيل، وفي الساحة لم تبق سوى سيارة زاهر حسين الأويل، سيوصل الأصدقاء كل إلى المكان الذي يختاره في بغداد، وحلم الشقة غازل الجميع، شقة وسط حي البتاوين!!

وفي اليوم الثاني يتذكر زاهر أنه خرج مع علي من مبنى الجريدة حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، اتجها نحو تمثال السعدون ليعبرا إلى الجهة الثانية، حي البتاوين، شمس الظهيرة لم تعد حامية، سماء بغداد صافية تماماً، النخيل في حدائق بعض البيوت لا يتحرك، شارع السعدون مزدحم كعادته، والأرصفة امتلأت ببسطات الباعة وهي تعرض ما لا يخطر على بال، تدفقت البضاعة من كل بلدان العالم، مع تدفق الجنود، الحراس الأجانب، الطائرات، الشركات، المسلحون، وأنواع القنابل والعبوات الناسفة والموبايلات المتطورة التي تنقل الرسائل بين الجميع، وتلك فترة كانت الموبايلات فيها هي التي تصنع الأحداث، تختطف البشر، تفجر العبوات، تغازل النساء، تتم صفقات الساسة، وترتب لهجرات طويلة خارج الحدود. التمثال عاد الى قاعدته الصغيرة بعد أن سرقه اللصوص طمعاً بمعدن البرونز، أشهر معلم في بغداد رغم أنه أصغر تمثال يقف على قاعدة، ودخلا في ساحة النصر، ثم انعطفا إلى اليمين حيث الشارع العريض الذي يقود إلى أزقة البتاوين، مرا قرب مطعم الصداقة الواقع على الزاوية، وألهبت رائحة الطعام معدة علي محمد

أمين وتوقف محدقاً إلى واجهة المطعم المليئة بقوائم الخرفان وجرزات البقدونس والطماطم وأشياش الكباب والتكة. لكن زاهر دفعه نحو الشارع مؤجلاً ساعة الغداء الى ما بعد الإنتهاء من أمر الشقة، لم تكن ساحة النصر على هذه الصورة، كانت أوسع، أنيقة، تتجمع فيها الباصات المنطلقة صوب الكرخ، أنيقة ونظيفة، مكتظة بالفتيات المتأنقات والشباب النظيفين الخارجين تواً من الكافتيريات أو الجامعات، وعطورهم تفغم الأنوف، فما الذي حدث لبغداد ؟.

الساحة ضاقت مساحتها وبدت مثل عجوز متهالكة، وتحت شجيرات الساحة كان بائع القلوب والكبدة يحرك مهفته على أسياخ اللحم، وهي تطلق قتاراً لذيذ الرائحة، يتجمع حول عربته الخشبية عدد من الرجال، وامرأة عجوز تغطي نفسها من الرأس حتى القدمين برداء أسود، والذباب يطير فوق معاليق الخرفان، سوية مع الزنابير الحمر، وأكثر من مرة تناول علي وزاهر فطور الصباح هنا قبل ذهابهما إلى مبنى الجريدة، مرة جلبوا سهى في الظهيرة إلى هنا، لكنها قرفت من منظر الزنابير المحومة على الأسياخ واللحم، قالت هذا طعام المشردين والشحاذين، ووقفت تتعجب من اللذة التي بدت على وجوههم وهم يأكلون. وتحت ظلال نخلتين وعدد من الأشجار الصغيرة تقف دورية شرطة متأهبة لإطلاق النار، وثمة شرك حديدي يصل حتى منتصف الشارع، بدأت الشرطة تكثر في الشوارع، وهذا ما لم يكن موجوداً في الأيام الأولى لدخول زاهر إلى بغداد، ومن النفق الذي يقود إلى ساحة التحرير جاءت دورية أميركية مؤلفة من أربع همرات، ألوانها كاكية، فتوقف السير لكي تمر، الشعور بالخطر سرى في قلب زاهر وعلي في

وقت متزامن، لقد حدثت عدة انفجارات في هذه المنطقة مستهدفة دوريات الأميركية، فاستعجلا الإبتعاد عن مصدر الخطر، ولم يتناولا غداء في مطعم الصداقة، و مشيا في الشارع الغاص بالسيارات، تنشرت على جانبيه محلات الكهربائيات الجديدة والأخشاب وعيادات لأطباء. هذا هو شارع المشجّر. شارع المشجر، وهو لا يحتوي على أية شجرة. عكس ما كان قبل عشرين وثلاثين سنة. أين ذهبت الأشجار؟. أين رحلت الفتيات المعطرات، المصبوغات الشفاه المزججات الحواجب تهازات أعطافهن دلالاً ورقة؟ علي يحدث زاهر عن أيام الحصار في فترة التسعينيات، تلك الفترة التي لم يعشها زاهر كونه خارج العراق، بغداد ومنذ ذلك الزمن الكئيب لم تعد بغداد التي يعرفها الجميع، تآكلت بساتينها وتحفرت شوارعها وتصحرت ساحاتها المعروفة بخضرتها وأشجارها، دخل الناس في نفق مظلم لم يخرجوا منه لحد الآن، أنظر اليوم إلى ساحة الطيران، جدارية فائق حسن لم تعد ترى، تغطي وهج ألوانها تلال القمامة وسكراب السيارات، وتغرق بضوضاء الباعة الجوالين وهم يرصفون عرباتهم تحت حمامات الجدارية بكل صفاقة، هذا لم يكن موجوداً قبل عشرين سنة.

المدن تشيخ هي الأخرى، قال زاهر معقباً على كلام علي، وهما ينهيان الشارع المزدحم. وصلا شارع البتاوين الرئيسي الذي يوازي شارع السعدون، فانعطفا فيه إلى اليمين، نحو الشقة الجديدة، زاهر متحمس لرؤيتها، ستكون واحة لهم في حياة بغداد الجافة، الجافة والخطرة في ذات الوقت، الموت يمكن أن يبرز أنيابه في لحظات غير متوقعة، ومن أماكن لا توحي به، كل سيارة واقفة عبوة ناسفة، وكل دورية أميركية مواجهة

محتملة، الحدائق المتبقية يمكنها أن تسفر عن وابل من الرصاص، ينهمر من سطح من السطوح أو محل صغير أو عربة منزوية تحت شجرة ما، وإلى اليسار يمتد الشارع نحو ساحة الطيران، ليصبح غاصاً بالمقاهي والمطاعم والمحلات، وتقطنه جاليات قادمة من السودان والصومال ومصر، في أزقة قذرة وبيوت تسكنها عاهرات البتاوين. تلك الأزقة التي يتزاحم فيها الشباب من طلاب اللذة السريعة، ثم مشيا يميناً أكثر من ثلاثين متراً، وتوقف علي محمد أمين مشيراً إلى بناية من أربعة طوابق تطل على شارع البتاوين الرئيسي، وعلى زقاق ضيق يعود ليقود الماشي نحو شارع السعدون مرة أخرى، تحت البناية تماماً، شاهد زاهر قصاباً لا يبيع اللحم، رغم أنه يحتفظ بالخطاطيف الحديدية في مقدمة المحل، الرجال يدخلون المحل ويخرجون بحركة متوجسة خائفة، وقال علي إن بيع اللحم لم يعد تجارة رابحة مثل الكحول، تحول إلى تجارة العرق والبيرة، الخطاطيف ليست سوى واجهة، وحين تدخل المحل هناك فتحة صغيرة تطل على غرفة داخلية مليئة بالمشروبات، بيرة وعرق زحلاوي وويسكي غير أصلي وجن عراقي قادم من أربيل والموصل ودهوك، عينكاوة أصبحت ممول الكحول الرئيسي للمدن أجمع. هذه علامة جيدة، فمن هنا يمكن شراء العدة اللازمة لجلسات الشقة.

شاهدا أيضاً محلاً صغيراً تحت البناية بالضبط. كان يبيع صحوناً صغيرة جاهزة من المازة. صحون بلاستيكية رصت على طاولة خشب أمام الدكان الصغير، وهي تحتوي على الحمص والتبولة والسلطة والمعكرونة والباقلاء، وحتى القطع الصغيرة من النقانق الطازجة، إضافة إلى اللبن والخس، أي كل ما يحتاجه صاحب المشروب في هذه الأوقات من السنة،

و نعطف علي محمد إلى الزقاق الضيق، ووقف أمام محل آخر لبيع أنواع الكبة، وطلب من زاهر انتظاره لكي يتكلم مع المسؤول عن إيجار الشقق الموجودة في البناية، وفي الواجهة الزجاجية الضيقة للمحل تصطف الكبب من كل نوع وحجم، كبة موصل مفلطحة واسعة الحجم، كبة حلب المدورة، كبة حامض، وأنواع أخرى لا يعرفها سوى المتخصصين وربات البيوت البغداديات، ونظر زاهر إلى شارع البتاوين وهو يتأمل في التفاصيل التي يراها أمامه، ذلك العالم البعيد، كيف يمكن له استرجاعه ثانية؟ الضوء البعيد يتغامز كأنه نجمة ضالة؟ هل يعقل أن مدينة في القرن الحادي والعشرين ما زالت تعيش كل هذا البؤس؟. الحفر في الشارع، تغص بالورق وبقايا الخس والطماطم والعظام والعلب الفارغة وقناني المياه المقطرة، التي صارت تجارة رابحة بعد تلوث مياه الشرب، عربتان لبيع اللبلبي والباقلاء في الشارع، تقفان أمام محل بيع الخمور المقابل للبناية، والبخار يتصاعد من قدرين كبيرين أبيضين، وباب محل الخمور من الحديد المصفح، وهو مغلق تماماً إلا فتحة مربعة بحجم نافذة متوسطة الأبعاد ، يقف أمامها صف من الرجال يشترون الخمور، وقبل أسبوعين قامت مجموعة مسلحة لا تعرف هويتها بإطلاق قذيفة آر بي جي على الدكان فدمرت جزءاً منه، لكن صاحب المحل أعاده مرة أخرى للعمل، وآثار الترميم باقية على الواجهة. حياة باعة الخمور صارت مهددة، من قبل مجموعات إسلامية، بل حتى شاربو الخمر جاء من يتعقبهم، وفي نهاية الشارع مبنى مديرية شرطة البتاوين وهي بناء ضخم أزرق، وضعت عند مداخله عارضات كونكريتية وجذوع نخيل، خوفاً من السيارات المفخخة والمهاجمين، النساء السافرات يتسوقن في الشارع،

كما عبرت عدة نساء لابسات ملاءات سود وهن يتجهن إلى ساحة التحرير، هذا إذن هو إيقاع بغداد اليومي، الذي ينبغي عليه أن يعيشه ويتقبله، بلده مثل أب مريض، وما عليه سوى تحمل رائحته وأمراضه وإفرازات جسده وزفراته المؤلمة، هل هو أبوه حقاً؟، أنت لست في ستوكهولم قال له سعيد عبد الكريم، أنت في بغداد، هل تصدق ذلك؟

نعم عليه أن يتقبل مصيره بحزم وبرود، المرحلة التي يعيشها البلد إستثنائية ولن تتكرر، لذلك عليه أن يعيشها كما هي من دون أوهام أو أفكار مسبقة، هذه الإستثنائية هي التي جذبته، وخرج علي من محل الكبة بصحبة رجل ممتلئ وطويل، وتعابيره تدل على أنه مراوغ، الرجل يحمل مفتاحاً بيده، ويبدو عليه نفاد الصبر، قادهما إلى باب البناية العريض في الزقاق الضيق. الأستاذ زاهر مهندس كومبيوتر، قال علي وهو يشير إلى زاهر غامزاً، سنستخدم الشقة كمكتب للإعلانات، وهي كما تعرف أمورها ماشية هذه الأيام، هناك ايضاً صديق ثالث معنا، وأنت تعرف، فمكاتب الإعلانات عادة ما يدخلها كثير من الناس للعمل، أحيانا تدخلها حتى النساء، وصاحب البناية يؤكد بالدرجة الأولى على دفع الإيجار بداية كل شهر، سأعطيكم الشقة المطلة على الزقاق فهي الأفضل من بين الشقق الفارغة في البناية. ومن الباب هبت رائحة نفاذة لزيت يحترق، ولحوم تقلى، وعجين وبرغل وبهارات، الكهرباء مقطوعة، ومدخل البناية معتم، حيث يبدأ درج ضيق بالصعود إلى الطوابق العليا، ثم مشى الرجل في المقدمة وسار خلفه علي ثم زاهر، والظلام بدأ يتكاثف ببطء، بعد أن اختفى الضوء القادم من الباب.

أشعل الرجل قداحة غازية كانت تضيء خطواته الصاعدة إلى

لأعلى بثبات، علي يسير بتمهل خلفه، زاهر أخذ يعاني من صعوبة وضع خطواته، أخرج جهازه الموبايل ووضعه على تشغيل الضوء فانبعث شعاع خفيف صار يضيء موقع قدميه، وكانت الظلال تنوس في الظلام، تكبر وتصغر، والحيطان تضغط على النفس، وبين الحين والآخر تقرقع ورقة أو كارتونة رطبة تحت الأرجل، وصمت مطبق يستولي على الدرج. هذا المشهد لا يجري إلا في أفلام الرعب. فيلم الطيور لهيتشكوك، وفيلم الأمير دراكولا. وفيلم اسم الوردة. كتاب الضحك، يقود إلى نهلاك. وتوقع زاهر أن ينط على رقبته فجأة شبح أو حيوان مخيف، وفي بعيد المسافة أخذت العتمة تتضاءل، وشقت ذرذرات نور خفيف كتلة السواد في المكان، ولم تكن هناك نوافذ في الدرج، صمت مطبق يذكر بصمت الدهاليز والقبور.

قال الرجل: تجاوزنا الطابق الثاني، مع أن علي وزاهر لم يلحظا تفاصيل المكان بسبب العتمة، درج مظلم فقط يلف ويدور، صاعداً إلى فوق، علي وبخبرته الطويلة في عامة الناس شك لهنيهة أن الرجل يقودهم الى كمين، والكمائن شاعت هذه الأوقات في بغداد، للتسليب والنشل وتفريغ الجيوب، وحتى القتل، لكن الضوء اندلق أخيراً. ففي الطابق الثالث انفتحت نافذة واسعة على الزقاق، سمحت لضوء النهار بدخول الممر الذي قال عنه الرجل إنه شقق الطابق الثالث، والممر مضاء بنور النهار المنسكب من شبابيك جانبية، تنفتح فيه أبواب ثلاث شقق متجاورة. الشقة الأولى كما أوضح الرجل لكاسب يعيش على بيع الخرداوات في ساحة التحرير، والثانية المطلة على الزقاق هي الشقة المقصودة، أما الثالثة فمغلقة، على بابها قفل ثقيل، ورتاج من الحديد.

الممر وسخ، قال علي محمد إنه بحاجة إلى تنظيف، وفتح الرجل الباب ودخلوا، وكان الباب الخارجي يقود إلى غرفة واسعة، أرضيتها من البلاط المنقط، وعلى يمين الغرفة ينفتح باب الحمام والمرافق الصحية في الوقت ذاته، ومن الغرفة ينفتح باب على غرفة داخلية، تشابه الأولى في المساحة، وكانت الغرفتان خاليتين من الأثاث، في نهاية الغرفة باب صغير يقود إلى البالكون، تقدم زاهر إلى ذلك الباب وفتحه بصعوبة، ثم خرج إلى بالكون صغير يطل على الزقاق. ويطل على أسطح بيوت مقابلة، ثم أبعد منها سماء بغداد الشاسعة.

جاء علي الى البالكون حيث يقف زاهر متأملاً في أحياء المدينة المتعبة، وسأله بلهفة بادية على عينيه: ما رأيك؟. نأخذها. رجعا إلى الداخل. أغلقا باب البالكون، ووجدا الرجل واقفاً يتأمل صانتاً في عالمه الداخلي، وهو يحدق براحة يده اليمنى وكأنه يقرأ خطوط الحظ في تشققات الجلد، وناوله علي خمسين ألف دينار كعربون حتى الغد، حيث سيسلمه المئة ألف دينار المتبقية، وافق الرجل ووضع النقود في جيبه ثم ودعهما مسرعا وخرج من الباب، واتفقا على أن أمر الشقة سيبقى طي الكتمان خاصة في الجريدة. لاحظ علي صعود فتاة إلى سطح البيت المقابل للبالكون، وكانت تنشر الملابس على حبل طويل يمتد على طول السطح، والبالكون ملائم إذن لمغازلة بنات الجيران ونسائهم، في منطقتهم الطالبية لا يمكنه أبداً الصعود إلى السطح، الوقوف على الأسطح يعتبر عادة سيئة خاصة للشباب، مرة صعد إلى السطح لكي يحدد موقع الجريدة من هناك، رأى ساحة التحرير بقعاً من الألوان، لم يلمح جدارية فائق حسن، وبدا نهر دجلة مثل خيط رفيع، هل هناك ذهب

تحت مائه كما شاعت الأسطورة ايام الحصار؟ لم يتأكد أحد من ذلك لحد الآن. فاجأته أمه بسرعة وهي تبرز من فوهة الدرج قائلة: عيب إبني علي. ماذا تقول نساء الجيران إن رأينك على السطح؟ وكانت آخر مرة يصعد إلى السطح، رغم أن غرفته تصبح في الصيف مثل تنور، ربما يحصل مستقبلاً على امرأة من هذه البيوت، والبيوت تبدو متحررة بعض الشيء، الفتاة التي نشرت الملابس ترتدي روباً أحمر يكشف عن ذراعيها ورقبتها وجزءاً من ساقيها. هذه علامة تبشر بالخير. الخيط الأسود المتصاعد من مصفى الدورة ينتشر في السماء بعيداً وشاحباً. قصر الجمهوري يعكس أشعة الشمس عبر رخامه الإيطالي الأبيض. الضفة الثانية من دجلة مليئة بالشجر والخضرة. وظلال الجسر المعلق تكاد تتراءى في نهاية خط الأفق. الجادرية والشواكة ومرافئ القوارب الملكية في بنايات القرن الماضي.

فكر علي وهو يقلب الأسماء في ذهنه بشكل مشوش أن النجمة سهم موح وسام، أما زاهر فأخرج علبة سجائره الكلواز الأحمر، واستل سيجارة ثم أشعلها، ونفث كتلة من الدخان اتجهت نحو بلور البالكون، نجمة البتّاوين، الأسم السري لمضاجعة النساء واحتساء الكحول ونقد الوضع وقراءة الكتب، نجمة البتاوين لم تبزغ في الأفق، كانت متخفية هناك، وراء مستقبل دخاني لفّ، ويلفّ، المدينة منذ سنين طويلة، وهذه المدينة لا تشبه التي في رأسه، كان وطوال سنوات وسنوات يتغزل بصورة بندة، بفتاة ماتت ودفنت. غابات من النخيل تغطي مساحات هائلة تمتد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، طوال الطريق وقلبه يخفق بعنف، سيلاقي وجهاً أحبه بعد عقود من القطيعة، هل حقا سيرى المدينة التي أينعت في

أحلامه طوال تلك السنين؟، سيرى شوارعها وأبنيتها وساحاتها وباصاتها ومشاربها ومعالمها التي ظلت حاضرة في ذهنه، رغم تغير أحواله وتقلب مزاجه وتعاقب ليله ونهاره؟ وكان دخوله الأول، يوم اللقاء الذي انتظره عقدين من السنين، ولم تكن نجمة البتاوين قد تركت ميسمها في عقله، لم تعقد جلساتها الحميمة بعد، علي محمد أمين، ربيع المحمدي، عمران المهندس، أبو حسن، سهى، أحلام، شلة كانت في ضمير غيب مغطى بالدخان.

٥

من قمة الجسر رأى النوارس محلقة فوق مياه دجلة، المياه التي نزرت بعد أن ضاقت الضفاف، ونبتت فيها الأعشاب البرية وازدادت جزر الطين فيها، وفي المدى الشاسع كانت المدينة عبارة عن سجادة من النخيل الأزرق، تبقعها هنا وهناك بيوت ذات لون ترابي، وعمارات متناثرة، كالحة المنظر، وكأنها تنام في خدر الظهيرة، لم يعد هناك جيش ولا شرطة ولا نقاط تفتيش، الشوارع تخلو حتى من شرطة مرور، مما جلب زحمة شديدة يصعب التخلص منها، و بقي السائق ساكتاً طوال الرحلة، بينما كان زاهر يسبح في تأملاته للمدينة التي لم تكن تشبه مدينته التي في ذاكرته، هناك شيء ما في الهواء، مع أن الهواء صانت والحرارة على أشدها، هناك أسماء لم تدخل رأسه بعد، وملامح محجوبة لأصدقاء جدد ونساء وقصص، حي الفضل، البتاوين، الشرطة، الصدرية، الكرادة، بغداد الجديدة، أسماء تتراءى كأنها حلم قديم، وثمة موت يقطن زوايا الشوارع ويقيم على أسطح البيوت، وكانت الدوريات الأميركية تروح وتغدو، تتوقف أحياناً لكي تنظم السير في التقاطعات العامة، فهل حقاً هذا هو الميدان؟. الأزبال تملأ الأرصفة، والناس تسير بأسمال لا تنتمي إلى هذا القرن، والسيارات تقف أينما كان، وبائعو اللبلبي والكبة والقلوب المشوية يتوزعون كافة الفسحات في الساحة.

هناك لهفة إلى الأكل، توق إلى الحياة بسبب وجود الموت الكثيف، والتآكل كان بارزاً في أوجه البنايات، والشبابيك والأبواب، ومدخل شارع الرشيد تحول إلى سوق للبضاعة السريعة. أدوية، وسيديات ومجلات عتيقة وكهربائيات متنوعة وألبسة جاهزة، عدد من مصلحي الأحذية يفترشون الشارع، ومطارقهم تصعد وتنزل، ونداءات الباعة تصم الآذان، رائحة البراز تطغي في الجو، تأتي من أزقة الحيدرخانة، هذه الأرض تقيء ما بجوفها، ولا يبدو أن كناسي الشوارع مروا هنا منذ أشهر، والجميع يرمي نفاياته إلى الأركان والزوايا والفسح الرصيفية وقواعد الأبنية، والسيارة نوع برازيلي تسير ببطء، بسبب الزحام، مما جعله يتأمل ويراقب بعمق هذه الحياة الجديدة القادم اليها. على اليمين واليسار تنتصب أعمدة شارع الرشيد، التي بدت لعينيه أقل ضخامة من ذي قبل، وكانت نجمة البتاوين في ضمير الغيب، لم ترد حتى إلى رأس علي محمد أمين، ولم يرها أبو حسن بعد، وقبل أن تفتش سهى عن سرها، بعد أن ضاجعها على الأريكة في مكتب عمران المهندس، لقد دخل بغداد في ذلك اليوم كما يدخل إلى حبيبة عادت من الموت. بحث عن مقهى البرلمان، وهو مقهى كان يرتاده قبل خروجه بصحبة عمران أغلب الأيام، فلم يقع له على أثر. تحول كما أخبره السائق إلى محل لبيع الأحذية، والبرلمان مثل سوق عكاظ حتى لحظة إغلاقه في منتصف الثمانينيات، حيث خرج من جوه الثقيل معظم أدباء العراق وفنانيه وساسته ومفكريه، ولطالما جلس فيه زاهر متأملاً في النساء المارات في شارع الرشيد، ووجوه الأدباء المعروفين في ذلك الزمن، واستمتع بشرب الشاي أو الحامض أو الدارسين بعد سكرة ثقيلة في بار جبهة النهر القريب من جسر الأحرار.

غادر كثير من الأصدقاء وحلّوا في أمكنة أخرى، في بيروت ودمشق وعمان ولندن وكوبنهاغن، في طهران ووهران وأنقرة، نعم سيبدأ صداقات جديدة، و كان عمران المهندس أكثر صديق يلتقيه في مقهى برلمان، اذ أنهيا كلية الهندسة في جامعة السليمانية سوية، وخدما في الجيش سوية، وكانا يقطنان في فندق محمود في منطقة علاوي الحلة ويذهبان إلى بعقوبة حيث الدائرة الهندسية العسكرية التي خدما فيها، يعودا مساء إلى الفندق، واشتركا أكثر من مرة في اصطياد العاهرات من محلة الذهب القريبة من مدخل جسر الشهداء. الأصدقاء البعيدون ختفوا، لم يعد يتذكر منهم سوى قلة قليلة، قد يبحث عنهم ذات يوم اذا ما استقر في بغداد، وقد يلتقيهم صدفة في شارع المتنبي، وهو شارع لكتب والثقافة، من يدري؟، ربما يلتقي بهم صدفة في مكان ما من هذه لمدينة، و تحت الجسر، جسر الشهداء، العابر إلى صوب الكرخ حفر نفق جديد تحت الشارع، تغلق مداخله تلال من الأوراق والعلب وصناديق لخشب المحطمة، وإلى الجهة اليمنى من النفق لاحظ بحزن باب ما كان يسمى بالمتحف البغدادي، دخل هناك عشرات المرات وسمع حفلاته لأسبوعية لتقديم المقام، الواجهة مشققة، والباب متسخ، وثمة سلسلة حديدية ثقيلة تغلق الباب، لا بد أن محتويات المتحف نهبت مثلما نهب لمتحف الوطني خلال الفوضى التي اعقبت انهيار الدولة ورحيل النظام.

شعوبي وأحمد زيدان ويوسف عمر ومحمد القبانجي وسادة الطرب في فضاءات بغداد منذ عشرات السنين، سادة الطرب في الحقبة لفيصلية من تاريخ هذه المدينة المتآكلة، وهناك إلى اليسار، في المنعطف لمؤدي إلى شارع الجمهورية، كانت نار تحت جدران إحدى البنايات

المتهاوية، الدخان يتصاعد كسولاً إلى سماء صافية، وثمة أطفال وسخون يلقون أكداس القمامة إلى النار، اكتظاظ عجيب في ساحة الرصافي تصنعه عربات الخشب التي تنقل البضاعة، والسيارات العتيقة وبعض الباصات المتهالكة الجرم، إضافة إلى باعة المياه والمرطبات الغازية، وهم يتجمعون تحت قاعدة التمثال. لوحة لا يمكن أن تكون موجودة إلا قبل مئة سنة. صادف من خلال الكتب المصورة مشاهد مشابهة عن حياة بغداد اليومية، لو تم رفع أسلاك الكهرباء والسيارات من اللوحة لما راودت العين أية شكوك في أنها تنتمي إلى عهد الوالي العثماني مدحت باشا. شارع الرشيد. شارع ذكوري بامتياز. لم ير أية امرأة منذ دخول السيارة إلى ساحة الميدان. نساء بغداد اختفين على ما يبدو. أكيد حين يختفي القانون والدولة تختفي النساء، ففي مجتمع مثل هذا تصبح المرأة في الشارع فريسة للمهووسين والمجرمين والقتلة وعصابات الإغتصاب. قرأ في كتاب قديم أن بغداد كانت تضم مئة ألف مغنية وقينة وراقصة ذات مرة من حياتها المديدة.

رائحة البراز تتصاعد في جو الشارع كلما توغلوا فيه، كما لو أن البشر يقضون حاجاتهم في الهواء الطلق، أسراب الذباب العجيبة تتكأكأ على البضاعة مهما كان شكلها أو نوعها، ذباب وذباب وذباب، أسرابه تأكل النسئلة، وأسلاك الكهرباء، وتشرب العصير من حاوياته في الدكاكين الصغيرة، وتمتص الدماء من عروق المارة الذين يتلطون في الظلال، ثم بذل السائق جهداً هائلاً من التركيز في شق طريقه خلال أرجل المارة والعربات الخشبية والحمير الناقلة للبضاعة بين دكاكين الشارع والمخازن المختبئة في شارع النهر وسوق الصفافير والبيوت المتوارية في

لأزقة الداخلية، وجوه صخرية خالية من المشاعر، شوارب كثة، رقاب يمنوها البهق، ملابس رثة لا تعير اهتماماً للأناقة، ومياه تسيل من محلات إلى أرضية الشارع، ورجل انتحى جانباً يتوضأ بإبريق من بلاستيك، وآخر افترش الأرض وراح يؤدي الصلاة على قطعة من كارتون. الضجة المتصاعدة في حرارة الظهيرة تنغل في الآذان، وتصنع هزيماً مدوياً يختلط بمزامير السيارات وبذاءات السائقين ومعارك الأطفال، وهم يتقاتلون على نقل بضاعة من منطقة الى أخرى، و بعد عشرات لأمتار خف الزحام، السيارة تدرج نحو ساحة التحرير برخاوة، جدارية جواد سليم تنتصب فوق نفق التحرير، ونفق التحرير مغلق. المحلات موجودة في النفق مهدمة أومخربة.

الأشجار ذابلة. وزحمة السيارات على أشدها. ثمة جندي أميركي يقف في مدخل جسر الجمهورية ينظم السير، بندقيته الحديثة جاهزة للإطلاق، والمكتبات التي يتذكرها زاهر في مدخل شارع السعدون مغلقة، الشارع لم يعد إلا ممراً ضيقاً في الوسط تسير فيه السيارات، مغلق باعة العربات نصفه من الجانبين، لافتات تحمل شعارات سياسية تخفق في الهواء، وصور لرجال معممين نصبت في مدار الساحة، جدارية جواد سليم عن الثورة، مازالت تروي قصة الجندي الذي حطم القيود وثار على جلاديه، المجسمات في الجدارية العالية تشرف على خراب نفق تحرير وساحة الطيران غير البعيدة عن النفق. ساحة النصر لا تشبه ساحة التي في رأسه، هذه عجوز مهدمة وكانت التي في رأسه شابة لامعة، تمثال عبد المحسن السعدون الصغير على قاعدته، أخبره السائق ن اللصوص سرقوه بعد أيام من دخول القوات الأميركية إلى بغداد،

صهروا البرونز وباعوه إلى التجار، ظلت القاعدة فارغة حتى أسابيع ماضية حين تبرع أحد أثرياء بغداد لمثال عراقي أعاد صب تمثال جديد يشبه المسروق، وطلاه باللون الذهبي وأعاده إلى القاعدة، ذلك الرجل الضئيل أحس به زاهر، حين واجهه، وكأنه يرمقه بعينين ساخرتين، لقد بقي كما هو بمشيته الهادئة وقدمه التي تحاول أن تخطو إلى الأمام، وسدارته البغدادية التي تخفي عقلاً أراد أن يقود العراق ذات يوم إلى بر الأمان فلم يفلح، مما قاده إلى الانتحار، في الثاني عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ في ظروف مفاجئة هزت البلاد من اقصاها الى اقصاها، وينظر إلى رئيس الوزراء، وكفاحه الدؤوب الهادئ باحترام عظيم قد لا يدانيه لأي زعيم من السياسيين في ذلك الوقت، يقول عنه الباحث نجدت فتحي صفوت هو عربي المحتد صافي الأرومة، تركي الثقافة، عصري النزعة، نشأ في أسرة عريقة ومحترمة كانت لها الرئاسة بين عشائرها، ودرس في المدرسة الحربية التركية التي كانت تحتذي الأساليب الألمانية وتستعين بأساتذة من القادة الألمان وعمل ياوراً أو مرافقاً للسلطان عبد الحميد، وشهد عن كثب الألاعيب وما يدور في قصر يلدز من مناورات وما يحاك فيه من دسائس ..

ثم انتمى إلى جمعية الإتحاد والترقي التي كانت في بداية عهدها حزباً عثمانياً يهدف إلى صيانة الدستور وحماية الخلافة، ولم تكتشف النوايا العنصرية إلا بعد حين، وبذلك خبر الحياة الحزبية وشهد جوانب شتى منها، ثم أصبح عضواً في مجلس (المبعوثان) يمثل منطقة المنتفك، وإلى جانب ذلك كان الرجل نزيهاً فوق الشبهات، تتمثل فيه السجايا العربية الأصيلة كما يقول صفوت، كريم الطبع، مترفع، شديد الإعتزاز

بسمعته وكرامته الشخصية والوطنية، ويبدو أنه كان قليل الكلام، وهذا بارز في تقاطيع وجهه البرونزية كما فكر زاهر وهو يتطلع فيه من التاكسي، عزوف عن الدعاية لنفسه، معتدل في آرائه ومواقفه، وصل الى الحكم بسهولة بسبب خلفيته العائلية والشخصية فواجه سلطة انتداب أجنبية متصلبة، وملكاً متحذراً وشكوكاً، فلما طعن في وطنيته اعتباطاً واتهم في إخلاصه تجنياً، كان الأمر عنده كارثة لاتحتمل، فعمد إلى انهاء حياته بهذه الصورة الدراماتيكية، التي حافظ بها على سمعته وكرامته، ولكنه دفع حياته ثمنا لها. انتحار عبد المحسن السعدون وهو في رئاسة الوزراء كانت له آثاره المختلفة على كل من الشعب والملك وسلطة الإنتداب البريطانية، هز الانتحار ضمير الشعب وأثار نقمته على الانكليز والمتعاونين معهم، هو انتحار أحرج الملك وأضعف موقفه أمام الشعب وأمام الإنكليز، واهتم المندوب السامي البريطاني على نشر نص رسالته أو وصيته التي تركها لولده علي قائلاً فيها(الشعب يريد الخدمة والإنكليز لايوافقون)، فأثارت الرأي العام العراقي عليهم وخرجت الجماهير، الناس في بغداد تناقلوا على إثر الحادث اقوالاً وإشاعات مفادها أن انتحار السعدون كان بسبب حالة غير طبيعية من الكآبة والمرض النفسي الذي كان كامناً لديه، وإن الأمر كله لم يكن يستوجب الإنتحار، وقال آخرون: فتش عن المرأة وذهبوا إلى أن زوجة عبد المحسن السعدون كانت تزعجه بدرجة لاتطاق وتنغّص عليه حياته مما سوّد الدنيا في عينه وجعله يكره الحياة فعمد إلى التخلص منها في لحظة يأس قاتل، لكن لم يسخر منه رئيس الوزراء المنتحر عبد المحسن السعدون؟، الأنه يسير في الطريق ذاته، محاولاً البدء من جديد في أرض الأدغال

هذه؟، الأرض التي تكورت حول نهرين أزرقين تظللهما اشجار الصفصاف والغرب والنخيل، وجنب السينما اقترب السائق من بائع سجائر وسأله عن الجريدة فأشار له بإصبعه إلى نهاية الزقاق، واتجهت السيارة بهما نحو نهر دجلة، وكانت المياه تتلاصف من بين أشجار اليوكالبتوس والأثل، وعدد من النوارس البيض تحلق فوق المياه.

شاهد محلاً لبيع السمك يقع على ضفاف دجلة، جدرانه تكاد تتساقط، لكنه مفتوح للزبائن، وبعض كلاب تحت أشجار اليوكالبتوس، ونورس صغير يجاهد للوقوف على سارية علم لم يبق منها سوى خشب متآكل. قبل أن تصل السيارة إلى كورنيش أبو نؤاس خرج حارس من مدخل ضيق لبناية قديمة وحاذى زاهر فعاجله بالسؤال، هل هذه هي جريدة السلام؟. أجاب بنعم. هل السيد سعيد عبد الكريم موجود؟. سأل زاهر حسين الرجل كث الشاربين الجالس في المدخل الضيق، ولاحظ خلف جسده رشاشاً نوع كلاشينكوف، مركوناً على الجدار. من يطلبه؟. قل له صديقك زاهر حسين. مع كلمة صديقك التي قالها لمسؤول الإستعلامات، بتضخيم وتأكيد، شعر بالرجل وقد اتسعت عيناه وأبدى شيئاً من الإنتباه، تناول التلفون وأبلغ عن وجوده بكلمات سريعة، ثم أغلق الخط وابتسم بود، وسمح له بالمرور إلى مدخل الجريدة، هذه إذن إمبراطورية سعيد عبد الكريم التي ظل يحلم بها منذ عقود، سعيد عبد الكريم ابتدأ حياته في الصحافة قبل عشرين سنة في دمشق، أسس دار نشر صغيرة، راحت تنمو قليلا قليلاً حتى أصبحت من كبريات دور النشر، وتفتق ذهن سعيد عبد الكريم عن فكرة إصدار مجلة أدبية أيضاً، حين كان زاهر في بيت جرمانا الكابوسي، كان يذهب إلى صديقه يومياً، في مقر الدار

الذي يقع في منطقة الزاهرة، على طريق المطار، وكان سعيد مهووساً بالكتب، طباعتها، أغلفتها، نشرها، الترويج لها، رغم أنه لم يؤلف كتاباً في حياته. وكان يفيق منذ الخامسة فجراً لكي يصف المخطوطات على كومبيوتره العتيق.

وكان زاهر يساعده في تدقيق النصوص، ويبدي ملاحظاته على الأغلفة، ويكتب مراجعات عن الكتب التي تصدرها الدار، ساعات طويلة يظل سعيد يحدثه عن مشاريعه فيما لو عاد إلى العراق، فكرة إصدار جريدة تستولي على خياله كله، وبعد أسبوع فقط من سقوط البلد بيد القوات الأجنبية عاد سعيد إلى بغداد، هو وعائلته المكونة من زوجته وابنته سلام، ولم يمر سوى شهر حتى أنشأ جريدته وسماها بإسم إبنته: السلام، وكان زاهر يتوق لرؤية السلام من الداخل. والداخل هو مشاريع سعيد عبد الكريم الغامضة. انفتح باب المدخل إلى حديقة واسعة يكسوها الثيل الأخضر، زرع على جانبيه بعض ورود الجوري ونباتات الزينة، في طرف الحديقة الأيمن تنتصب ثلاث نخلات منسقة وتبدو فيها عناقيد التمر الأصفر، ويحط بين سعفاتها عدد من الحمام، الحمام رمز للسلام، والسلام جريدة صديقه سعيد عبد الكريم الذي جعلها تطل على دجلة كأنها جنة من الجنائن البابلية المعلقة. ممر يشق الحديقة إلى نصفين، مرصوف بالبلاط الإسمنتي، رشّ للتو على ما يبدو، ويقف عند الظل فلاح بدشداشة داكنة، يتمنطق بحزام من الجلد، ويلف رأسه بيشماغ مرقط، وهو يمسك بمسحاة جديدة. سومرى

بدا لعيني زاهر وكأنه فلاح بابلي جاء تواً من قرى الناصرية أو العمارة، وعكس ما عاشه من ضوضاء في شوارع بغداد، يخيم على

الحديقة هدوء عميق وسكينة، ورطوبة المياه والظلال الملقاة من شجرتي توت ضخمتين أشاع كل ذلك البرودة في فضاء المبنى، فكان تاج الشجرة يظلل شبابيك الدار، وأمام مدخل البناء المكون من طابقين كان ثمة كراس مبعثرة تحت أغصان شجرة التوت، يجلس عليها عدد من الرجال والنساء، بمظاهر عصرية، خمن زاهر أنهم من العاملين في الجريدة، وإلى يسار الباب تقوم الكافتيريا، التي تقدم الوجبات الخفيفة والشاي والمرطبات، بعض يأكل وبعض يدخن، وبعض يجلس للحديث، وقد جذب انتباههم دخول زاهر فظلوا يرمقونه بفضول إلى أن دخل الباب، ورائحة مرقة الفاصوليا، تنتشر في فضاء الجريدة، هذا هو مشروعي الذي حدثتك عنه في دمشق، قال له سعيد عبد الكريم مالك الجريدة، وهو يتمشى داخل الغرفة المبردة، ولاحظ زاهر الشعيرات البيض التي راحت تنتشر في شاربيه المنسقين. بما أنك تود البقاء في بغداد فسوف أسلمك مسؤولية الصفحة الأخيرة في الجريدة.

لا تنس أننا عملنا معاً في دمشق، تحاورنا وتخاصمنا لكننا لم نفقد الود بيننا، والسلام تراها تحت بصرك شابة في طريقها إلى النضوج. وفكر زاهر هل يعني بذلك ابنته سلام أم الجريدة. المسؤول عنها الآن علي محمد أمين، وهو قليل الخبرة بعض الشيء، تعاني الصفحة من الضعف مقارنة مع هيكل الجريدة عموماً، ستسكن في بغداد أليس كذلك؟. طبعاً، لايمكن الذهاب والأياب إلى القرية يومياً. هل وجدت بيتاً للسكن؟ سأبحث خلال هذا الأسبوع. شربا الشاي، واستمتعا ببرودة المكيف، وظلت حركة سعيد لا تهدأ، وهو ينقل خطاه بين التلفون والسكرتيرة. إنه سعيد عبد الكريم الذي يعرفه، حماسه وهو يحدثه عن

مشاريعه هو نفسه، مجلة أدبية، وفضائية حديثة، ومطبعة حديثة من ألمانيا، ومشاريع أخرى لها علاقة بتأسيس تجمعات أدبية وصحافية، لم يعد يفكر بمغادرة العراق، اعتبر أن الصفحة الدمشقية من حياته طويت، لم يعد أمامه سوى حفنة من السنين، كما قال، وحلمه باعتزال الناس والعيش في جزيرة نائية تلاشى ما أن فتحت الحدود، وكان سعيد طلب من زاهر حسين مرافقته لرؤية أقسام الجريدة، والتعرف على العاملين فيها. شيعتهما السكرتيرة السمراء الصغيرة الجسد بإبتسامة فضولية، وكان باب رئاسة التحرير يفضي إلى صالة الإجتماعات، حيث ينفتح في نهايتها باب يقود إلى الدرج مباشرة، فنزلوا إلى الأسفل وبدأ سعيد يحدث زاهر عن تفاصيل عمل الجريدة، هنا غرفة التصميم والصف والإخراج، تبدأ عملية تصميم الصفحات أولاً بأول، صالون واسع تصطف على جانبيه طاولات عليها كومبيوترات حديثة، توزع الكراسي حولها شباب وشابات، كانوا منهمكين بالحروف والصور والخطوط، أوراق مبعثرة تحت الطاولات، ورائحة أحبار ومواد كيمياوية، والهواء بارد ينفذ من فتحات تهوية قرب السقف، وألوان الشاشات المتلامعة بالصور الملونة والحروف حولت الصالون إلى ما يشبه معرضاً للصور، وجه متعب للمطرب داخل حسن، دبابة أميركية تقصف مسكناً يتحصن فيه مسلحون، أقراط للآذان بتخاريم هندية، كرة طائرة تحلق فوق ملعب الشعب، تمثال للرئيس المخلوع يتهاوى في ساحة واسعة غاصة بالبشر واضح أنها ساحة الفردوس الشهيرة، نصب الشهيد بقبته المنفلقة إلى نصفين، وسعيد عبد الكريم أخبر العاملين بصوت عال عن مسؤولية زاهر حسين في الصفحة الأخيرة من الجريدة منذ الغد.

شرع زاهر يبتسم للعيون المستطلعة بخجل وتردد. إنها المرة الأولى التي يقف فيها بمواجهة مثل هذا الحشد من الفنيين والفنانين والمصممين، وبدأ يشعر بالإلفة في المكان، خاصة وأن سعيد عبد الكريم يعمد أحياناً إلى إمساك يده وتقديمه إلى هذه الفتاة أو تلك، باعتباره صديقاً قديماً. سأقودك إلى قسمك الذي ستعمل فيه، قال سعيد عبد الكريم ذلك، وسحب زاهر من يده وعاد به إلى الدرج مرة أخرى، تجاوزا غرفة رئاسة التحرير وصعدا إلى الطابق الأول، حيث غرف التحرير ذات الأبواب الخشبية، وكانت قطع مكتوبة بالكومبيوتر تشير إلى هيئة التحرير والقسم الثقافي والقسم الرياضي، الأبواب مغلقة، والسقوف عالية، ثم واجهتهم نافذة واسعة كانت تطل على نهر دجلة، رأى زاهر نخلة هائلة التاج تقف بموازاة النافذة أمام فندق ضخم لم يتبين اسمه، كما وقع نظره على مطعم السمك المختبئ تحت أشجار اليوكالبتوس.

فتح سعيد عبد الكريم باباً زجاجياً قرب النافذة ودخل بخطوات ثابتة، جاراً زاهر خلفه كما لو كان يقيم احتفالية أمام الآخرين، زاهر حسين، المسؤول الجديد عن الصفحة الأخيرة، قال سعيد بصوت عال، ثم صمت للحظات وكأنه يراقب ردات الفعل على وجوه الموجودين في الغرفة، الغرفة مصنوعة من الخشب المضغوط مع سقف من الستايروبور، ويبدو أنها الحقت مؤخراً الى الطابق الثاني، إذ أن الشبابيك الزجاجية تكوّن معظم جدران الغرفة، عدا الأعمدة المثبتة لهذا الهيكل المربع الشبيه بعلبة زجاجية، وثلاث طاولات من الخشب وعدد من الكراسي الجلدية الفخمة، لا تتناسب مع نوع الطاولات، وعلى طاولة تقع في مؤخرة الغرفة تجلس امرأة سمراء ذات شعر كثيف وعينين سوداوين

نفاذتين، أشار اليها سعيد وقال: سهى. وعلى الطاولة الثانية إلى يمين داخل إلى الغرفة يجلس رجل بمنتصف العمر يرتدي طقماً أنيقاً داكن لون، لا يتناسب مع حرارة الصيف في الخارج، صلع جبهته واضح، وعيناه صغيرتان مشككتان، ظل واقفاً أمام الطاولة مثل مسمار، ويبدو نه تفاجأ من هذا الهجوم المباغت: علي محمد أمين المسؤول السابق عن صفحة، وأحس زاهر أن كلمة المسؤول السابق عن الصفحة التي قالها سعيد عبد الكريم قد صفعت علي بقوة، وظل صامتاً لم يحر بجواب، ونى اليمين، بمحاذاة النافذة المطلة على الشارع، وقف رجل مربوع قامة، قلق الملامح، يضع نظارات على وجهه مربوطة بخيط إلى رقبته: ربيع المحمدي صحفي في القسم، إجلس قليلاً مع الزملاء ثم تعال إلي قبل ترك الجريدة، قال سعيد لزاهر واتجه نحو الباب، خارجاً، وساد صمت لحظات، زاهر يجلس في كرسي قرب علي محمد أمين، كان مجمبع محرجاً في البدء بالكلام، هو اليوم الأول له إذن في جريدة سلام، وتتالت الأيام، حتى أصبح تميمة سهى التي تتعبد لها منذ عاشرة صباحاً حتى العصر.

البنت سهى. قبل الإنفجار وبعده. كانت سهى هناك. ذلك اليوم. كبت على أوراق أمامها، وهي تنظر إليه بين لحظة وأخرى نظرات عجلى، وكأنها تزن نوعيته بين الرجال، وتحاول تكوين صورة أولية عما تكون عليه شخصيته. أعجبتها أناقته، وطريقة كلامه، وتصفيف شعره، وهالة الرزانة التي تحيط بجسده الفارع. وجهه وسيم بعض الشيء. لكن كيف ستكون عليه علاقته معها في القسم؟ هذا ما ستكشفه الأيام قادمة كما أقرت في نفسها. وكان علي محمد أمين يلعق شفتيه

الناشفتين، ويحدق بإتجاه سهى. ظلت مشغولة بأوراقها وقلمها. بين الحين والآخر ترفع خصلاً من شعرها تتساقط على جبينها بحركة سريعة، تردفها بنظرة متفحصة نحو زاهر. من الزجاج المقابل له كان بصره يرتطم دائماً بتاج النخلة الضخم المزروعة أمام الفندق، تأخذه أفكاره أحياناً إلى ماضيه البعيد الذي قضاه في جولان في الأرض والمدن، فيشعر بالعجب ويكاد يظن أنه في حلم لا غير، هل يعقل أنه يجلس الآن في بناية تطل على نهر دجلة؟ ويمتع نظره بسما ء بغداد التي يتصاعد فيها بين الحين والآخر دخان كثيف؟ ويسمع بين فينة وأخرى انفجار عبوة ناسفة أو رشقات رصاص ثخين الوقع؟ وأن سعيد عبد الكريم صديقه منذ عشر سنوات يجلس في غرفة لا يفصلها عنه سوى بضع خطوات؟

يجلس بين امرأة جميلة يخفق وجهها بالأنوثة ورجلين يحس منذ اللحظة أنهما سيكونان مفتاحين ذهبيين له في الدخول إلى روح هذه المدينة، المدينة السابحة على سجادة من النخيل، هل يعقل أن الحروب انتهت على أرض هذا البلد، وسيقضي بقية حياته بين الأهل والأصدقا ء الجدد؟. خمّن أنه ستكون هناك صداقات عميقة بينه وبين الموجودين في الغرفة، فالجميع متقاربون بالسن، عدا سهى التي تبدو في أواسط الثلاثينيات من عمرها، هل هي متزوجة؟. أرملة؟. عانس؟. مطلقة؟. كلما نظر باتجاهها يلتمع في ذهنه سؤال حولها، هذه هي إذن أحلام سعيد عبد الكريم التي كان يرددها في مقر دار النشر في منطقة الزاهرة؟ هذه هي البداية، وهو يعرف كيف يوسع أفق عمله، إنه بارع في نسج العلاقات مع الساسة والصحافيين والكتاب، لا يشك بطاقات صديقه الكامنة، ونهار الإنفجار كانت الساعة تجاوزت العاشرة صباحاً،

مضى عليه أسبوع في رئاسة القسم، وعلي محمد أمين دخل قبل لحظات، حاملاً كالمعتاد دواوين شعر وجرائد يومية، التآلف مع المكان كان لزاهر بداية صعبة، المكان وجوه وعلاقات وحوارات وغرف وممرات وأصوات، وكل ذلك جديد عليه، جديد مثل النخيل ونوارس دجلة وربيع محمدي وسهى التي تخالسه النظر. ينتمي إلى المكان ولا ينتمي، يحبه لكنه حب مريض، يتأقلم ببطء دون نسيان صعوبة المحو، سيموت هنا دون شك، وهذا أفضل من الموت في أماكن غريبة، عليه أن يكف عن الإنغمار بهاجس الموت، ألا يجلس الآن في مكان يدعى السلام؟ وينظر إلى سعف النخلة الوارف كأنه رسم من قبل خطاط مغولي؟ سهى تكتب، سهى تحلم، سهى تزيح خصلات شعرها عن جبينها الأسمر كل يوم، وفي لحظة صمت طويلة انقلب كل شيء فجأة، إذ نط الجميع من أماكنهم على صوت ارتطام مروع حدث داخل المبنى، وتصاعد غبار كثيف من سقف الغرفة، وتكسرت بعض الزجاجات في النوافذ الواسعة، ودب الذعر والصراخ في الأسفل. كان الصوت هائلاً، قلب بعض الكراسي والطاولات، وأثار موجة من الإهتزازات في المبنى كله. ظن زاهر أن المبنى سيسقط على رؤوسهم. لا يعقل أن تكون هزة أرضية، فهم خارج نطاق الهزات الأرضية. ولا يعقل أن يكون قصفاً مفاجئاً على مبنى الجريدة، وإلا لما بقوا على قيد الحياة. أبواب تغلق وأخرى تفتح أو تصطفق، هرج ومرج في الحديقة، وتدافع الأربعة إلى الباب لمعرفة ما يجري في الجريدة، الغبار يغطي الممرات، وأشخاص يتراكضون مندفعين على الدرج، وثمة من يصيح: إخلوا المبنى، إخلوا المبنى، سقط صاروخ على الجريدة، وسط الغبار الذي أغلق منافذ الدرج، وعلى السطح

العريض أمام باب غرفة الاجتماعات، تمدد صاروخ الكاتيوشا مثل جثة هامدة، تصاعد منه بخار خفيف، وشاعت في الجو رائحة زنخة لحريق، تولدت على ما يبدو من احتكاك الحديد مع التراب والملاط والصخر، ونزل الجميع إلى الحديقة، وعيونهم تتطلع إلى فوق، حيث المكان الذي نفذ منه الصاروخ.

جاء الصاروخ من جهة الشمال. اخترق أغصان شجرة التوت العريضة، ثم نفذ عبر جدار غرفة الإجتماعات، وظل في طريقه طائراً إلى أن اخترق الجدار المقابل. وهذا بالضبط ما جعله يفقد من زخمه حين ارتطم بالجدار الثالث، فلم يقو على اختراقه فسقط على مسطح الدرج. بين كراسي الكافتيريا توزعت أوراق توت، وأغصان صغيرات قصفها الصاروخ، وفي الجدار الخارجي تراءت حفرة غائرة مسودة الحواف، ونساء يتصارخن ويولولن في الحديقة، مسلحون يدخلون ويخرجون، إما لماذا لم ينفجر الصاروخ، فكان ذلك سؤال الجميع، البعض اعتقد أن الصاروخ قديم، من مخلفات الجيش السابق لذلك لم ينفجر، والبعض رد القضية إلى الحظ، فجميع من في المبنى محظوظون، وإلا فعلى البناية السلام، هي ومن فيها، لو شاء ذلك الحديد البارد أن ينفجر. هذا الرجل محظوظ. سعيد عبد الكريم يحالفه الحظ منذ الولادة، فكر زاهر مع نفسه، وهو يقف قرب نخلة وارفة تحاذي الجدار الخارجي للحديقة وأمامه الفلاح أبو شعبان يحدق إلى فتحة الجدار بذهول. هل هذه علامة خير له أم نذير شؤم؟ من جهة لم يصب بأذى، ومن جهة أخرى فالطريق الذي اختاره، طريق العودة، سيكون معبداً بالصواريخ والإنفجارات والرصاص الطائش، وشاهد سهى جالسة على واحد من كراسي الحديقة، وهي تنظر

إليـه نظرات لامعـة، إن تلك النظرات تنبئ باتصـال روحي من نوع مـا سيعيشه مستقبلاً، اتصال الشمعة مع العتمة، والطير والفضاء، الشبق مع الرغبة، هكذا أوحت له خبراته السابقة مع النساء، وقال واحد من الجالسين في الكافتيريا: الصاروخ كان موجهاً إلى المنطقة الخضراء، حيث القصر الرئاسي والسفارة الأميركية والحكومة، وقد حدث خطأ في التصويب لذلك وقع في مبنى الجريدة، وأقر الجميع تقريباً بهذا الرأي واعتبروه السبب الأول وراء الحدث، وسط الهرج الذي خلفه سقوط الصاروخ.

فوجئ زاهر حسين بخروفين قد ذبحا في الحديقة احتفالاً بسلامة المبنى والعاملين فيه، وأوصى سعيد عبدالكريم عليهما فور انجلاء الغبار، دم الخروفين فداء لدم العاملين، مجموعة كبيرة من الموظفين تجمعت في الحديقة، وعناصر من الجيش الوطني والجنود الأميركيين يركضون صاعدين الدرج، والفلاح أبو شعبان لطخ سيقان النخلة القريبة من الكافتيريا بالدم تبركاً، وكان سعيد عبد الكريم يقف فوق أكوام اللحم التي بدأت توزع على العاملين، يحيط به طاقم الجريدة، وقال لزاهر مازحاً، الجريدة حالفها الحظ بقدومك إلى الوطن، تذكر أنك تعيش في بغداد لا في ستوكهولم، لم يعد في ستوكهولم أو بيروت أو دمشق، لم يعد في كوبنهاغن أو روتردام، هو في بغداد الشبيهة بتربة متحركة تبتلع الجميع، ومنذ يوم الصاروخ ذاك شرع زاهر مباشرة بالتفتيش عن بيت، لكن هل حالفه الحظ في لحظة سقوط الصاروخ حقاً؟.

٦

العمل بالنسبة إليه هو الخطوة الأولى على مسافة الألف ميل، هذا كيد، الألف ميل من تآلفه مع هذه الحياة الجديدة، وخلال هذه الفترة زمنية كان أول معايشة حقيقية لبغداد هو هوسه اليومي بالتجول في شارع الرشيد، يستعيد تاريخه كله وكأنه بهذا يعيد رتق ذاكرته التي تشظت خلال هذه العقود، كان يتمشى فيه يومياً، إما وحيداً أو بصحبة ربيع المحمدي أو علي محمد أمين، أو معهما كليهما، والخروج مع سهى لم يكن وارداً، رغم أنها تحب مغامرات من هذا النوع، وطلبت منه مرة مرافقته فرفض، قالت إنها لم تدخل شارع النهر منذ خمس سنوات، اما ربيع المحمدي فهو من وجد له البيت في شارع فلسطين، قال له وقتها إنه مشتمل صغير ورخيص الإيجار، لا تدفع سوى مئة وخمسين دولاراً في شهر، وهو يعرف صاحب البيت معرفة بعيدة، وربيع لديه معرفة عميقة في الشارع هو الآخر، وشارع الرشيد ظل لسنوات قبل رحيله الرئة التي يتنفس بغداد عبرها. والشوارع رئات. هناك شوارع دخلت في الذاكرة جمعية للشعوب، وأصبحت خالدة، رغم ما أصابها من تحولات، كاندثار معالمها أو زوالها المادي، كون تلك الشوارع ارتبطت بأحداث سياسية وثقافية واجتماعية، وبحركات وتجمعات وأحزاب ووقائع تاريخية

فاصلة. تربت أجيال في كنف تلك الشوارع، وقضت فترات خصوبتها الفكرية ضمن أجوائها.

أغلب عواصم العالم لديها شوارع خالدة، وخلود شارع ما له مواصفات بعينها، أبرزها على الأغلب تعدد وجوه ذلك الشارع، وبالتالي تعدد قراءة تلك الوجوه على مر الأحقاب والأزمان. شارع أجور رود في لندن، والحمرا في بيروت، والصالحية في دمشق، وشارع المشي في كوبنهاغن، والهرم في مصر، وغيرها من شوارع سمع بها زاهر أو رآها. وشارع خليل باشا، الذي سمي لاحقاً شارع الرشيد واحد من تلك الشوارع المتعددة الوجوه. أشبه بشريان حيوي ورئيسي ، منذ بدايات القرن العشرين حين أسسه الوالي العثماني خليل باشا، وكان يطلق عليه "جاده سي". لم يعرف البغداديون آنذاك، شارعاً بهذه الضخامة، خاصة حين بني من جديد على النمط الانكليزي، بعد خروج العثمانيين ودخول العراق فترة الإحتلال في الحرب العالمية الأولى. تجسدت اللمسة الانكليزية بالأعمدة الضخمة الممتدة من بداية الشارع، أي منطقة الميدان وسط بغداد، وحتى نهايته، عند ساحة التحرير. فكان رصيفا الشارع ينفتحان أمام المحلات برحابة، ليسير المتبضع أو السائح أو المتسكع في رواقين طويلين يتلويان ويفسحان المدى لتأمل واجهات المحلات وأهم الساحات والمقاهي، وبوابات الأسواق المنفتحة على الشارع. عشرون سوقاً ومحلة تجارية تصب في شارع الرشيد، أيام عزّه، وعبّرت حالة شارع الرشيد عن حالة بغداد عموماً، ازدهاره بازدهارها، وبؤسه من بؤسها، ولذلك يمكن قراءة الحالة الاجتماعية والسياسية والفكرية لبغداد، عبر قراءة شخصية هذا الشارع العملاق، الذي صبت فيه أحداث، وذكريات، وقصص غزل وعشق ومؤامرات.

كانت الجموع تخرج من المقاهي المنتشرة حوله وتنضم الى سيل البشر، المتفجر بالغضب، سواء تضامناً مع ثورة الجزائر أو فلسطين، أو مطالبة برحيل الإنكليز عن البلاد، أيامها كانت المقاهي ملاذهم حين لم يكن للتلفزيون كبير أهمية في حياة البشر، وظلت لعقود مدارس للثقافات والأفكار والحركات السياسية، ولم يفت أي من المشاهير، سواء كانوا سياسيين أو مثقفين او مفكرين، الجلوس، ولو مرة واحدة، في مقاهي شارع الرشيد، ومن أشهر مقاهيه مقهى أم كلثوم، وهو دهليز طويل معتم مدخن، تخصص منذ افتتاحه في الخمسينيات بأسطوانات أم كلثوم فقط، وقد يجد فيه المرء العاشق الولهان الذي فارقته الحبيبة، والرجل الذي تركته زوجته، والشاعر الخدر من غيوم الخمرة، والسياسي الآتي لتذكر أيامه الزاهيات، والتاجر المستمتع بدرّ ماله في الأسواق القريبة مثل سوق الشورجة والهرج والغزل والصفافير والبهارات والمتنبي، وكلها أسواق شكلت أجنحة لهذا الشارع، كان يطير فيها عبر سماوات بغداد، والعراق، والعالم، بعد أن وصلت شهرة مصوغاته وترانيم أعواده وروائحة بهاراته وجمال آنيته المشغولة يدوياً، إلى كل مكان من الأرض، واجتمع في مقهى الزهاوي ذات يوم كبار رجالات الفكر والشعر الكلاسيكي، وقبل أن يسمى باسمه كان الزهاوي والجواهري والرصافي من رواد هذا المقهى، ومن الرواد أيضاً واحد من أكبر تراثيي بغداد المغبوني الشهرة، ألا وهو الكاتب محمود العبطة المحامي، الذي كان يعرف حارات بغداد حارة حارة، ومراقدها مرقداً مرقداً.

اعتاد أن ينشر ما عرفه، وحفظه من تقاليد البغداديين وطرائفهم في كتيبات صغيرة. ينشرها على نفقته الخاصة ويوزعها على أصدقائه

وطلابه من الأجيال الشابة التي لم تحفر عميقاً في طبقات هذه العاصمة العملاقة ذات الأزمان الدائرية، والأحداث التي تكرر نفسها، قرناً بعد قرن. عرف زاهر محمود العبطة المحامي في مقهى البرلمان، وكانت أناقته الدائمة رغم أنه تجاوز الستين مثار حسد الشباب كلهم. عرفه قبل أن تشتعل الحرب مع إيران، وقرأ مع عمران معظم كراريسه الصغيرة التي تنبش في روح بغداد القديمة. سكرا معه في بار جبهة النهر ونادي الأدباء، وتسكعا في باحات شارع النهر. كان الأدباء من المدن، ما أن يحطوا رحالهم في بغداد حتى يجيئوا إلى البرلمان لمعرفة الأشخاص الذين قرأوا لهم ولم يتعرفوا عليهم، ورواد هذا المقهى عادة ما يدخلون أو يخرجون وهم يتأبطون كتبهم في الفلسفة والشعر والفن، وسط اعجاب الجميلات اللواتي يمرقن في الشارع، وهن يرتدين آخر الموديلات، موضة أوروبا تصل إلى شارع النهر وهو تابع للرشيد بعد أقل من شهر: عرف البغداديون الميني جوب والماكسي جوب ثم الميكرو جوب قبل ثورة الطلاب في باريس، وتلك أردية للنساء في أوج التحرر، ومقهى "البرازيلية" يقدم القهوة ووجبات السياسة، ومقهى حسن عجمي يغصّ بالشعراء المفلسين، وعند كل ظهيرة في حر بغداد، تبدأ قوافل الأدباء، تسير نشطة الخطى إلى البارات والمطاعم التي تقرفص على ضفاف دجلة، وتقدم العرق الحريف الطعم، المستقطر من التمر، والبيرة والمقبلات، حينها في البارات ينطلق الغناء الجنوبي القادم من أهوار العمارة وبساتين البصرة وصحارى الجزيرة، ليسهم في رسم التراجيديا التي اختطها جلجامش منذ آلاف السنين، أثناء خروجه الإستعراضي الذي أورثه لأحفاده، للبحث عن الخلود. هذا الحزن يرسم لوحة قاتمة

وشفافة في الوقت ذاته للتاريخ المهتز المطرز بالأحمر، التاريخ الفظ والشاعري في الآن ذاته، وفي ليل الحانات وأبخرة الشط، تعرفت الأجيال على الرومانسية والواقعية الإشتراكية والتكعيبية والإمبريالية والمثقف العضوي والواقعية التي بلا ضفاف والسوريالية وعبث كامو ولا جدوى صامويل بيكيت وميشيل عفلق وجيفارا وتروتسكي ولينين وغوركي وجون ريد وسارتر، الذي تلقفته الثقافة العراقية كما لو كان مولوداً في محلة الطوبجي.

وكان زاهر الباحث عن جمال البغداديات، يميل من شارع الرشيد يميناً نحو دجلة، حيث يمتد شارع النهر، في العصاري والغروب ليستمتع بوجوه ذوات خالات وعطور وبخور وأرداف وأجياد، شارع النهر ظل حتى خرب الأخيرة منتجعاً للمتبضعات، ومكاناً تصل بضاعته النسائية من شهر محلات أوروبا: أحذية وأطواق وألبسة حريرية وعقود وحلق وشالات وعباءات سود مطرزة، اشتهرت العراقيات بلبسها والتفنن بإشاراتها، هو كان أيضاً محلاً لاصطياد المتعة، ورصد بائعات الهوى، عبر اكتظاظه بالنساء والرجال، هو النخبة والحضارة، وهنا تسفر بغداد عن وجه التاجرة والغانية وصائدة الرجال والفنانة في عرض نقوشها وإبداعات أياديها ذوات الخبرة التي جاءت من قرون خلت، أيام كانت ربة البيت للعصر العباسي برمته.

وقيل إن الفراهيدي اخترع بحوره الشعرية حين كان يتجول في سوق الصفّارين، وهو واحد من أجنحة شارع الرشيد، كان الشغيل يطرق الصفر والنحاس والفضة، لتحويلها بمطرقته الصغيرة إلى نفائس بتوقيع منتظم، أدرك العالم الجليل سر التفاعيل والإيقاعات والأوزان في الشعر الذي

جاء من صحراء العرب، عبر المعلقات ونفائس القصائد، فوضع أوزانه المعروفة، وقيل ان متصوفة بغداد كانوا يجيئون إلى سوق الصفارين ليجدوا الصفاء في تراتيل المغنين وضاربي الحديد، أي عبر موسيقى الشعوب، ومن هنا طارت رسوم أهل الحرفة إلى المشرق والمغرب، فملأت أسواق اسطنبول ولندن وطهران. وتخرّج في حرارة المنافيخ معلمون نقشوا وزجّجوا وزوقوا ليبدعوا أباريق ومزهريات وحوامل قرائين وصينيات وقدور وسيوف وحراب وملاعق وقوارير، بلغت الكمال في الفن والجودة، ومن واجهات البيوت والمشربيات والشناشيل والأقواس والألوان، استطاع جيل من الرسامين أن يزاوجوا بين المدارس الأوروبية في الفن والبيئة المشرقية، فتكونت هوية واضحة.

الشاعر العبثي عبد الأمير الحصيري، الذي مات من جفاء شارع الرشيد، وتوج في السبعينيات صعلوكه الأوحد بحق، يفطر في سوق الهرج، ويتغدى في شارع المتنبي، وينام مخموراً فاقد الوعي عند أعمدة البوابة التي تقود إلى سوق البهارات، كان يملأ سطلاً بالعرق، ويضيف إليه ربع قالب من الثلج، ويغترف شربه بطاسة، وينشد للجواهري والمتنبي، منذ الصباح وحتى المساء، فكان مدرسة في الصعلكة التي أنتجت حسين مردان وجان دمو وعشرات عشرات، سقفهم شارع الرشيد ومتكأ رؤوسهم أعمدته الإسمنتية الغليظة، وكتبت في هذه الأماكن مئات القصائد، ورسمت آلاف اللوحات، في مراسم وشقق كانت مشمورة في أعلى الشارع، وكثيراً ما طغت أصوات حوارات المثقفين والرسامين على ليالي الشارع وعسسه وقططه ومشرديه، وكأن الثقافة إبنة القاع، تغوص فيه لتنتشل جواهره التي هي عبارة عن حكايات وقصص ووجوه

ونقطات روائية وأبيات. جاءت الضربة القاضية من حروب وهجرات ومطاردات ومنظمات سرية دسّت أنفها في تلافيف كل محلة وزقاق وبيت، في كل قصيدة ومقالة وكتاب، وانتشرت في شارع الرشيد وجوه غريبة تترصد وتتسمع الحوارات، تبطش وتقتل فجأة ثم تغوص وسط الحشود دون أن تترك أثراً. انتشر في ذاكرة المكان سرطان راح يفتك بخلايا حية في الشارع، تلوثت المقاهي بالمخبرين، وترصدت عيون سرية شقق الأدباء والفنانين ومراسمهم، وبدلاً من المدارس الفنية والكتب والموديلات والصرعات بدأت الأسواق والحارات تستقبل الجثث والخطب جوفاء، والسلاح والملابس المرقطة، والحكاية يرويها سوق البهارات، فهو ولعشرات السنين ينث روائحه على رواد الشارع، قرفة وكاري وفلفل ودارسين وكمون وحب محلب وبخور وبطم. يانسون وحنة ونومي بصرة. تجاره أغلبهم من أصول فارسية جاءوا منذ بدايات القرن العشرين وكونوا لهم إمبراطوريات تجارية تهيمن على الشورجة والهرج والصفافير والغزل والصاغة. في لحظة هوس صدرت قرارات بترحيلهم إلى إيران، وجردوا من كل ممتلكاتهم وألقوا على الحدود.

سوق الهرج هو قاع شارع الرشيد، وهو لا يبعد كثيراً عن القلعة، أو السرايا التي كانت مقراً للولاة العثمانيين الذين حكموا ولاية بغداد، وأشهرهم مدحت باشا الذي أسس جريدة ومطبعة الزوراء. أول جريدة في العراق الحديث. وداوود باشا الذي خلده القاص البصري محمد خضيّر في واحدة من أهم قصصه عن رسام العراق الأول عبد القادر الرسام، جاءت تسميته من اللغط الكثير والأصوات المتعالية من باعته وزبائنه، وهم ينادون على بضاعتهم، وهي بضاعة لا تخطر على بال، فيمكن شراء كل

شيء مهما تفه من سوق الهرج: خرزة لمسبحة مثلاً، أو زراً لبنطلون، أو فردة حذاء واحدة، ثم أكوام لا يجمعها جامع من الأشياء المهملة كبطاريات راديو وشاشات تلفزيون ولوحة زيتية رخيصة وأنبوب مياه مهترئ وبراغي ومرايا تراثية وشاشة كومبيوتر وعباءات نسائية. والداخل إلى السوق، الذي عادة ما يصل إليه زاهر في نهاية الجولة، يعجب من سقط المتاع هذا الذي تجمع في هذه البقعة المتكونة من شارع وأزقة وزوايا ودكاكين وعربات متنقلة وبسطات، وكأن هذا السوق يختصر شارع الرشيد برمته.

من يرغب في معرفة هذه المدينة عليه أن يقرأ خارطة سوق الهرج، قال زاهر ذات يوم لربيع المحمدي وهما يجلسان في مقهى شعبي يطل على زقاق في محلة الحيدرخانة، (طبقات المعرفة) تتراكم هناك. كرامافون من القاهرة. عباءة من شيراز. نفنوف حريري عتيق من حلب. مفكرة ذات يوميات غامضة رست هنا بعد تقاسم إرث لإفندي تركي من الفضل. زر بدلة لعفيفة اسكندر. أعشاب من الطارمية. جلود من غنم الجزيرة. هذا هو ذراع سوق الهرج الممتد من شارع الرشيد. عاش شارع الرشيد حروباً غامضة، بيع سريع لممتلكات، إغلاق محلات، دوريات مباغتة، وغاب الأمان من العطفات والبيوت العريقة، ودب الذعر حتى وصل إلى أشجار شارع النهر، وأعمدة الرشيد والمتحف البغدادي وخانات السنك وبارات ساحة الميدان. صار شارع الرشيد يكتنز ذاكرة أخرى، ذاكرة حروب وهجرات واغتيالات وتطرف في الفكر والنظر. أغلق الجميع أفواههم، وكثرت التفاتات الناس أثناء الحديث، وتدفقت عمالة غير عراقية إلى المربعة والميدان وسوق السراي والبهارات والمقاهي

والمطاعم. غصت الفنادق بالوافدين وأرسل أبناءُ البلد إلى الموت في قصر شيرين والمحمرة والأهواز، ولاحقاً إلى الكويت وتخوم السعودية وجبال كردستان وصحارى الرمادي. شخصية الشارع تتخلخل، وتتضعضع، وتتآكل، الأصولية الدينية تتغلغل في مفاهيم الشارع وطقوسه. أغلقت البارات وحوصرت النساء في البيوت، إثر قانون الدعارة الشهير الذي يبيح قتل المرأة من قبل أقربائها، وهاجر أدباء وفنانون ومعلمو مهن واختصاصيون، وانتشرت أخلاقيات بدوية وفظاظات سلطوية، ثم وضعت الحياة في علبة، وكانت هناك حروب وحصارات وتغيرات كبرى، فكان أن تحولت الساحات إلى مزابل، رآها زاهر بأم عينيه في أول يوم دخل فيه بغداد، لم يصدق ما رأته عيناه، المقاهي تحولت إلى دكاكين لبيع الأحذية، والبارات إلى محلات للأجهزة الكهربائية، سابت القطط في الزوايا وهامت الكلاب باحثة عن فطيسة أو عظام، منع الناس من السهر على ضفاف دجلة، وبدلاً من قوارب الأعراس والسفرات النهرية وصيادي أسماك الشبوط والبني والزبيدي، جالت ليلاً قوارب مسلحة تراقب الأجمات والأشجار والأرصفة والصيادين، وبدأت الأسماك تتغذى على نفايات المجارير، وبقايا الجثث، والمحاليل الكيمياوية التي تضخ من مدينة الطب، عند باب المعظم. شارع الرشيد هو بغداد، وهو العراق في لحظته الراهنة. مهجور وغير مهجور، مندثر وشاخص، واجهات براقة وخرائب، حرائر وبائعات هوى. تمرق فيه بين الحين والآخر سيارات شرطة وجيش، مثلما يصبح ممراً لدبابات ومدرعات أميركية توجه أسلحتها الى الناس.

وذات مرة انفجرت سيارة مفخخة تحت قدمي تمثال الرصافي المتطلع إلى الكرخ. قضى ربيع وزاهر ساعة يتأملان ذلك الدمار الفظيع الذي

خلفه الإنفجار. بقايا عربات النقل الخشبية محطمة تحت التمثال، جرائد نصف محترقة، أحذية بلاستيكية مشوهة متناثرة على الأرصفة، أسلاك سوداء وحقائب وألوان ميتة وبرتقال مطبوخ بحرارة عالية أذابت القشور ودمجتها مع اللب في عجائن صغيرة كانت ملتصقة بأعمدة الكهرباء وواجهات المحلات، نثار الأجساد الممزقة أزيل بسرعة، لكن رائحة الموت بقيت عالقة بالهواء وأجنحة الذباب وذرات الغبار الممزوج بالبارود، شارع يؤوب اليه عشاقه القدامى، زاهر على سبيل المثال، كلما ضغطت عليهم الذاكرة، ولكنه لم يعد يمتلك تلك الحميمية السابقة، أصبح مكاناً غير مأمون ما أن تتعدى الساعة السابعة مساء. هناك أعمدته الغليظة تنتصب بشموخ، وهناك صدى لنداءات شارع النهر وسوق البهارات والصفّارين والشورجة، وتمثال الزعيم عبد الكريم قاسم المنتصب حديثاً في الساحة، إلا أن ليله موحش، وأزقته مقفرة، وكأن الجميع اتفقوا على أن شارع الرشيد الذي عرفوه قد رحل، رحل ولن يعود، وكانت هناك صورة للشارع أخذت في الستينيات، وجدها زاهر صدفة في أرشيف سهى، لم يصدق، وكأن الشارع ذاك له أشكال متعددة، كل مرحلة تعطيه روحها، وكان هذا في قسم المنوعات بجريدة السلام، حين رن الموبايل في جيب زاهر، وكان يقف وسط القسم، منشغلاً بمراقبة أرداف سهى الواقفة أمام الطاولة، وطيور الحمام في سعف النخلة الساكن، المتهدل إلى الأسفل بفعل الصيف، وكان بين يدي سهى مغلف كبير فيه صور بأحجام مختلفة.

فنانات من مصر والعراق وسورية والعالم، دأبت سهى على تجميعها من الصحف والمجلات الملونة التي تقع بين يديها بين الحين

والآخر. كل سفرة إلى الخارج يجلب سعيد عبد الكريم مجموعة من المجلات العربية والعالمية، ليعطيها إلى سهى كي تستفيد منها في معالجة صور الصفحة الأخيرة. ميادة الحناوي وأم كلثوم وعفيفة اسكندر وفاتن حمامة وفريد الأطرش وحسين نعمة وياس خضر وسعدون جابر ونزهة يونس وإلهام عبد العزيز وشويكار وهيفاء وهبي وطوني حنا وناظم الغزالي، الذي جمعت له عدة صور لأنها من المعجبات بصوته الفريد. زاهر يستمتع كثيراً بمراقبة جسد سهى المتين والمنتصب مثل عمود فينيقي. سهى لم تلبث أن دخلت في شبكة زاهر الحريرية التي يخرجها كل مرة يذهب فيها إلى الصيد. لكنه لم يعد يتذكر متى حدث ذلك وكيف ولماذا. قال لعمران مرة إنها تمتلك أجمل أرداف في بغداد. وقتها ضحك عمران من جملته وقال له معلقاً: هل رأيت أرداف جميع بغداديات؟، كانت حرارة الجو لا تطاق، وسهى تلبس تنورة طويلة مشجرة تشفّ أحياناً، حين يكون الضوء خلفها، عن فخذين متينين يثيران الشهوة لديه، وهي التفتت إلى رنين الموبايل وحدجت زاهر بنظرة مستطلعة، وكأن لها عينين في مؤخرتها، هل كانت تغار من اتصالات زوجته نضال؟ كان عمران المهندس على الخط.

قال له إن الكهرباء انطفأت في المكتب ولا يرغب بتشغيل مولد الكهرباء، وهو يفضل اللقاء به في ذلك البار الصغير تحت سينما بابل. اتفقا على الساعة الثالثة. بدأت سهى وربيع المحمدي وعلي محمد أمين بتجميع مواد الصفحة، التي يجب أن توزع على نشاطات محلية وأخبار عربية وعالمية، مع عمود يومي يتناوبون على كتابته. كان عمود سهى لهذا اليوم عن ظاهرة كثرة الأعراس في بغداد التي فسرتها بسبب

انتشار الموت بين البشر، مما يدفعهم للزواج وإدامة النسل. الفكرة أعجبت زاهر وأشاد بالعمود وهو يربت على كتفها بحنو. سهى غير متزوجة إذن؟ دأبت سهى على ابتكار مواضيع غريبة للصفحة، كانت تعجب سعيد عبد الكريم أيضاً، ويشيد بها في كل اجتماع للتحرير، لم تبق ظاهرة في بغداد إلا وكتبت عنها: باعة الشلغم في شارع المتنبي وأزقة البتّاوين وشارع السعدون، ظاهرة انتشار الموبايل بين الشباب، مقاهي الإنترنيت في شارع الربيعي والمنصور والكرادة، ليلة الدخلة وما تقوم به العروس من ترتيبات، الكتب في شارع المتنبي، اختفاء المسحراتي من المحلات، وتحقيقات عن أهم شوارع بغداد مثل شارع النهر والمسبح وأسواق بغداد الجديدة، وغير ذلك من مواضيع تؤكد أنها ستربط القارئ العادي بالجريدة، كون هذه الظواهر هي التي يريد معرفة أسبابها وقصصها وطرائفها، بعد أن شبع من السياسة والعمليات العسكرية وأخبار الإنفجارات. في ملفها أيضاً نماذج كثيرة من صور لأقراط، أقراط ذات تصاميم مدهشة، تنتمي إلى حضارات مختلفة وتواريخ قديمة وأخرى معاصرة، بعضها على شكل زهور وأغصان وأوراق، ذهبية وفضية وبلاستيكية، وبعضها يتكون من سلاسل ناعمة تنتهي بأحذية صغيرة وحيوانات وصلبان ونجوم ووجوه ممسوحة الملامح، كانت تعتبرها من(جماليات الأنثى) كما تقول عن تشكيلتها من صور الأقراط تلك، رغم أنها لا تضع في أذنيها سوى قرطين على شكل زهرة لوتس ناعمة، ثم مضت سهى إلى غرفة التصميم في الأسفل، حاملة معها صورة نادرة للممثل الفرنسي ألن ديلون كي تركّبها على موضوع طريف يخص عشيقاته السرّيات وجدته في الإنترنيت، وجلس ربيع أماء

نكومبيوتر يتحدث بواسطة الماسنجر مع إبنه ناظم في كوبنهاغن، في حين كان علي محمد أمين يسوّد صفحات بيضاء من دفتر صغير بقصائد برقيّة سيكرّسها كما قال للهامشيين.

وبعد أن قاربت الساعة الثالثة أغلق زاهر جهاز الكومبيوتر نوضوع أمامه على الطاولة، رتّب المقالات والصحف جنب الجهاز، ثم وضع سجائره الكلواز مع القداحة والموبايل في جيبه، وأخبر علي وربيع بأنه ذاهب إلى سينما بابل لمقابلة عمران المهندس، ومضى نحو الدرج، وكان شارع السعدون شبه مقفر. تمثال رئيس الوزراء المنتحر عبد المحسن لسعدون يقف تحت أشعة تنصب كأنها فحيح فرن. تمثال عار معزول يحدق إلى نفق ساحة التحرير، مفكراً بأحوال هذا الزمان. تساءل زاهر عما سيقوله السعدون وهو يرى العربات الأميركية وهي تنبع من النفق سائرة باتجاهه؟ رحل الانكليز وجاء الأميركان. وهو باق على صهوة قاعدته الملوثة ببقايا البارود. الأسفلت يترجرج تحت الأرجل بفعل حرارة. ساحة الفردوس بدت مهجورة وهي تتناءى في بخار يشبه سراب، تطلقه الأرصفة والجدران الإسمنتية المحيطة بفندق بغداد. كان زاهر يحتمي بعدد اليوم من جريدة السلام التي وضعها على رأسه. وحين دفع باب البار ودخل الممر الضيق رأى عمران ينتظره في الأسفل، وأمامه علبة بيرة من نوع بافاريا حجم نصف لتر. كالعادة كان البار مكتظاً، وكأن الجميع جاء إلى هنا ليحتمي من شمس السماء، ويرطب جسده بالسائل البارد الذي سيحلق عبره إلى فضاءات بعيدة أكثر أمناً وخضرة. طلب زاهر علبة توبورغ دانماركية وصحناً من اللبلبي.

- أين علي وربيع؟ ألا يأتيان إلى هنا؟

- في الجريدة، لديهما موعد في شقة النجمة.
- والجميلة؟
- من؟ سهى؟
- أعتقد أنها راغبة فيك. أين وصلت في الرحلة؟
- نصف الطريق تقريباً.
- مكتبي جاهز.
- هل تتذكر الفيلم الذي شاهدناه في هذه السينما التي خلفنا؟
- كانت آخر ليلة نلتقي فيها. أظنه كان فيلماً روسياً.
- كلا، المخرج ياباني لكن الإنتاج مشترك، ياباني وروسي.
- ماذا كان اسمه؟
- ديرسو أوزولا.
- والمخرج؟
- أكيرا كوروساوا. هل تتذكر شيئاً من مشاهد الفيلم؟
- أظنه كان يجري في غابة أو شيء من هذا القبيل.
- صحيح في سيبريا. كان رحلة اكتشاف طوبوغرافية يقودها الكابتن.

- في تلك الفترة كل ما يمت إلى روسيا يجذبنا. الكتب والأفلام والأفكار والمجلات الملونة التي كانت فتياتها الكولخوزيات والسوفخوزيات يشبهن حوريات الجنة. تتذكر كيف كنا نصف من لا يفرق بين الكولخوز والسوفخوز بالجاهل؟

- لقد رأيت الفيلم ثانية في لندن. شاهدته على الفيديو. لا تتخيل كم تذكرت ليلتنا تلك في بغداد. كنا سكارى وكانت اللقطات تشبه

أحلاه. خاصة مشهد العاصفة حين يبني الصياد والكابتن كوخاً صغيراً من نباتات البرية وسط الثلوج.

- خرجنا سكرانين من بار جبهة النهر. توغلنا في شارع النهر وكان غاصاً بالجميلات، والفتيان المتأنقين والأضواء المشعشعة على واجهات محلات الذهب. تناولنا وجبة من القلوب المشوية في أحد أزقة السنك، مع نظماطم والليمون الطازج والبقدونس.

- ديرسو أوزولا، ذلك التتري الذي كان يسمع الريح ويخاطب النمر ويدخن البايب ويعتاش على صيد الغزلان والخنازير البرية، كان روح الطبيعة التي ستختنق بالضوضاء ورائحة النفط والحروب.

- كنت في لندن حين شاهدته مرة ثانية؟

- أجل ولم تفارق ذهني مسيرتنا الطويلة التي امتدت من شارع ريفولي حتى شارع السعدون. وكل تلك الحروب كانت متخفية وراء الأفق ولم تستطع التكهن بقدومها.

- كنت في بداية زواجي من سميرة.

- وكنت أنا أهيء نفسي لرحلتي الطويلة خارج الحدود.

- هل تعتقد أنها كانت أياماً جميلة؟

- اعتقد ذلك. الآن فقط.

- الماضي لن يعود، سواء كان جميلاً أو بشعاً، وهذه مأساة الإنسان.

في أثناء ما كان عمران وزاهر يجلسان في البار، وخيوط الدخان تتركهما في فضاء الصالة، والحديث يتشعب بهما نحو أفلام ومدن ونساء وأشخاص يعرفانهم، كان علي محمد أمين عائداً من النادي، منطفئاً من

السكر، اتجه مباشرة إلى الدرج، ودخل غرفته الضيقة، وأغلق عليه الباب، وكأنه يروم الفتك بهذا اليوم البليد والتافه من حياته، هذا المدعو زاهر كان وسيماً ولبقاً، سيستولي على قلب سهى مثلما استولى على رئاسة القسم، يتكلم بمقدار ويضحك بمقدار، وكأن الكون يدور حول كلمة تنطلق من بين شفتيه، هؤلاء القادمون من الخارج محظوظون، رأوا العالم كله، إما هو علي محمد أمين فسنوات عمره محشورة ببسطال الحرب فقط، السنوات الوحيدة التي عاش تجربتها بعمق، إما ما عدا ذلك فكوابيس تلك الحرب لا غير. بين الصحو والغياب سمع أمه تسأله إن كان تعشى أم لا، فرد عليها بصوت أحسه بالكاد يخرج من داخله إن نعم، ثم يبحث بين الأشرطة المبعثرة فوق السرير عن شريط ما، أكثر من خمس دقائق وهو يبحث، كان يترنح من السكر، وجد الشريط في النهاية، ووضعه في مسجل قديم يحتل طاولة صغيرة من الخشب، تحت النافذة المفتوحة على زقاق ضيق هو أحد أزقة الطالبية. نزع حذاءه وتمدد على السرير دون أن يخلع ملابسه.

مد يده التعسى إلى زر قرب الباب وأطفأ المصباح المدلى من السقف، وفجأة امتلأ فضاء الغرفة بأغنية ياس خضر وداعاً يا حزن. المغني يمتلك صوتاً شجياً. والكلمات تلخص هزائمه في الحياة. إنه صابر بلا شك. علي محمد أمين الشاعر المجهول، والصحفي البسيط، وكردي بغداد العتيق التائه في أزقة الطالبية. شجن سومري ذكره بأهوار الجنوب التي رآها ذات مرة أثناء ما كان جندياً على جبهة الحرب. صبرنه وعوض الله/ علينه شما صبرنه. بعد ما نرضه بالآه/ ولا يوم بعمرنه. وداعا للذي راح/ بعد ما يعود ثاني. بعد ما نسهر الليل/ ولا نحسب ثواني.

دموعه تنساب على خديه، الجدران تضيق على جسده، والحرارة الخانقة تحمله بأصابع من الفولاذ لتصعد به إلى الأعلى، ثم لتهوي به إلى الأسفل، إلى لا قرار. سيموت من البكاء. استمر الصعود والهبوط زمناً لم يستطع حسابه. كان يبكي بصمت. يبكي كل شيء في حياته. في تلك اللحظة من التوله البكائي ندب الكنوز المسروقة من المتحف الوطني، والعمارات المهدمة في الرصافة، والجداريات المهملة في الساحات العامة. ندب شارع الرشيد وقد صار جثة هامدة تنتظر الدفن. وتعجب من عشق زاهر لهذا الشارع. هل يذكره بشبابه مثلاً؟. أم أنه سائح يتفرج على آلامنا؟.

ندب أيامه الطويلة التي قضاها جندياً في جبهة الحرب مع إيران، وندب حظه السيء بهذه الخلقة القميئة التي جاء معها إلى الحياة، وحظه مع سهى التي يحبها لكنها لا تأبه له. وتوالت على ذهنه مشاهد الأيام الكابوسية التي عاشها في سوق الشورجة وأثناء الحرب، حين كانت صواريخ تضيء سماء المدينة التي أحبها وكرهها في الوقت ذاته. أخرج جهاز الموبايل واتصل بزاهر، محاولاً أن يستشف ما وصلت إليه علاقته بسهى. أخبره زاهر أنه رجع تواً من البار، وكان جالساً مع عمران، وهو في طريقه إلى شارع فلسطين. سأله علي بصوت بالكاد يخرج من شفتيه عن عمران، وعمله في المقاولات، ثم بدأ يشيد بروح زاهر النبيلة في علاقته مع المحررين، والخبرة الكبيرة التي يمتلكها في عالم الصحافة، واستمرت المكالمة غير المترابطة حوالي عشر دقائق، مال بعدها جسده نحو السرير، مطلقاً أنات عميقة من أغوار سحيقة في روحه، لكن كلمات وداعاً ياحزن لم تن تتردد في أذنيه إلى أن هبط فجأة في أصقاع غريبة عصية على الوصف.

٧

في البدء شعر بنفسه يهرول في شارع الرشيد، وهل لشارع آخر أن يكتسب أهمية في ذهنه غيره، هو الطفولة وهو الحصار وهو لهو النساء وهو شرب الخمرة في الحانات، لكنه في الوقت ذاته يهرول بخطوات جراجة أشبه ما تكون بالطيران، إنه يطير، كل خطوة يقطع عشرات الأمتار، فشعر بنفسه خارقاً، وأحس بروحه كبيرة متسامية تكاد تطال النجوم، وفي فسحة واسعة تشبه ملعباً لكرة قدم، أو مكباً للنفايات التي تشتهر بها بغداد، شاهد ثلاث جثث ملقاة على الأرض، ورأى دماء تسيل من ثقوب تلك الأجساد، لتبلل القمصان والبناطيل والأحذية، ضفت في الرأس والصدر، الدماء طازجة، بين الحلم والحقيقة شاهد يد إحدى الجثث تتحرك وتحاول أن تمتد إلى الأسفل، ماذا يوجد هناك عند الخصر؟. كانت اليد تحاول أن تطال جهاز موبايل معلق في الحزام داخل علبة من الجلد الأسود، وعلى حين غرة بدأت الموبايلات الثلاثة ترن بتناسق وتناوب، ولا أحد يرد، يد واحدة فقط حاولت الرد لكنها لم تستطع الوصول إلى الجهاز، همدت عند الخصر، وسقطت على التراب. سقوط اليد على التراب تجاوز علي محمد أمين مكب الجثث ذاك وراح يتقافز على ضفة دجلة عند كورنيش الأعظمية بالضبط، رأى الشنبلان

والحلفاء والقصب تهيمن على منافذ الماء، رائحة طين ودهونات وغراءات تشيع في الجو، رائحة زنخة شمها بقرف، ثم قفز إلى الماء بكامل ملابسه وحاول العبور إلى الضفة الثانية، إنها أسلم طريقة للعبور بعد أن خربت الجسور الواصلة بين الكرخ والرصافة، كم سنة تواصل القصف على جسور بغداد ؟.

كم سنة سيلبث البارود والأشعة النووية في هذه التربة السوداء؟ قبل أن يصل منتصف النهر تراجع مرعوباً، فحين حدق الى نورس طائر فوق رأسه ألفاه ذا حجم عملاق مرعب، كان هواء جناحيه يخلق أمواجاً عاتية في النهر، وما أرعبه أكثر هو رؤية مخلبيه، مخلبان مثل مرساتين تطبقان على جثة انسان لا تبين ملامحه، لم يكن هناك رأس ليتبين الملامح، هل هو شيخ أم شاب؟ أشقر أم أسمر؟ من قطع رأس هذا الرجل؟ سأل نفسه وهو يمتلئ رعباً من المنظر، فكرّ راجعاً إلى الأعظمية وهو يستعيذ من الشيطان، مستعجلاً الوصول إلى اليابسة كي يولي هرباً، هكذا ركض بكل ما يملك من قوة، وما فتئ يجد نفسه في مكانه، حين انتبه إلى قدميه والتفت إلى جانبيه، كان في الحقيقة يركض بين جدارين عاليين من الإسمنت، يستدير عله يجد أفقاً، إلى اليمين، فيقوده الطريق نفسه، ثم يكر راجعاً فيسقط في متاهة الجدران، وبين الحين والآخر يرى لافتات تشير إلى أمكنة بغداد الأليفة، لكنه لايراها: الكاظمية، الوشاش، الأعظمية، حي دراغ، الطالبية، الزعفرانية، الثورة، بغداد الجديدة، أسماء فقط، لكن خطواته لا تقوده سوى إلى مزيد من الجدران والغبش والبياض الرجراج، وبغداد مليئة بالجدران، بالمتاهات الكونكريتية، بالزنازين. يسقط من الإعياء. يقف. يرتمي على دكة

سمنتية عالية. يفقد وعيه، يجد نفسه فجأة في سوق مكتظ. يشق طريقه بصعوبة بين الحشود. تلال من الرمان. سلال من التين المجفف. عربة من الأحذية المستعملة يقف عليها رجل أعور. مماسح للأحذية. برميل قمامة. ورجل يرتدي وزرة متسخة يحمل صينية عليها كؤوس شاي يوزعها على أصحاب المحلات وضيوفهم. أين خان لاوند؟. وخان مرجان وسوق الصفافير والمتحف البغدادي وبار جبهة النهر وسوق نضبور؟.

أين العوينة وساحة الطيران وساحة النسور؟. يستدير إلى زقاق مسقوف، محلاته تبيع الذهب الإماراتي، في عتمة من العتمات ينقض عليه شاب ملتح صخري القسمات ويضع السكين على حنجرته ويصيح به: ضع نقودك في يدي وإلا بترت رقبتك... للرجل ملامح زاهر حسين، رغم أنه ملتح. يتناول جزدانه من جيب البنطلون ويسلمه إياه، ثم يعود لاهثاً إلى زحمة الشورجة، يلتقي فجأة بسهى، طويلة ذات أرداف ثقيلة طالما جعلته يستمني عليها في ليالي غرفته الموحشة، كشاكيش تنورتها تتبره، حاجباها يغريان باللمس، لكنها مغلقة عنه مثل جوز السليمانية، قالت له رافقني إلى بائع الذهب. سأتزوج قريباً، وعلي أن اشتري حلقاً وأطواق ومحابس. سألها هل هو زاهر؟ ضحكت بغنج وتدوَّر خداها مثل تفاحتين من تفاح بعقوبة. وهل هناك رجل غيره؟. لم يلحف بالسؤال، فالقدر لا بد أن يقع. يرافقها طائعاً، وما هي إلا لحظات حتى يسير جمهور غفير خلفهما، كانوا يهتفون بعصبية واضحة: قحبة، قحبة، قحبة، يرددونها بلذة كما لو كانوا يستمنون خلف الحوائط المغلقة، وسهى لا تعير الحشد خلفهما أي اهتمام، تقول له ها نحن قد وصلنا مبنى

الجريدة، ما لك خائف يا علي؟. يسير معها نحو تمثال عبد المحسن السعدون، يحاول الحديث معها لكنه يكتشف أنها لم تعد موجودة. لقد اختفت سهى، ويصرخ فجأة بوجه عبد المحسن السعدون: لماذا انتحرت؟ سيادة رئيس الوزراء؟

ويسمع أمه تقول له بحنو: علي لماذا لا تتزوج، لقد بلغت الأربعين، وشاب شعرك وتساقط، فلماذا لا تجد ابنة الحلال وتخلف اطفالاً وتستقر في حياتك؟. وتترك عادة الوقوف على السطوح والتلصص على فتيات الجيران؟ لقد كبرت يا بني، ويرد عليها بمقطع من أغنية وداعاً يا حزن، صبرنا وعوض الله، فتنظر إليه أمه باستنكار وتعجب، ثم تمضي إلى حوش الدار لكي تدير مولد الكهربا، الصغير من فئة خمسة أمبير، فتضيء الكهربا، في غرفته، ويقضي ساعات يشاهد أحد أفلام الجنس على جهاز الفيديو. تقول له إحدى الممثلات إذهب إلى ساحة التحرير، توغل في الأسواق الجانبية وستجدني هناك، ستجدني مخبأة في السيديات المباعة على الرصيف. بين أشرطة الموالد النبوية والجوارب النسائية وأشرطة الغناء القديم، ومقاتل الطالبيين وعينات الدواء الفاسد الذي يباع بالجملة، أنا نجمة البورنو كرستينا، من لوس أنجيلوس، أنا تانيا من روتردام، أنا أكس أكس من دبي، أنا دورتا ينسن نجمة الجنس الفموي من كوبنهاغن، ثم يعود إلى النهر مجدداً بعد أن قضى وطره من ممثلة البورنو الجميلة، الثقيلة المؤخرة، . ألفى جسده مبتلاً بالماء. أمامه جسر الصرافية المشاد من الحديد.

السيارات تمر عليه بطيئة بسبب الإزدحام. المارة يتريثون على الجانبين وهم يحدقون إلى نخيل العطيفية وكورنيش الأعظمية، ويرفعون

أبصارهم بعيداً لمعانقة عمارة مدينة الطب. لم هو ممتلئ بالأمكنة؟. إصبعه مقهى المعقدين. رأسه مسلة حمورابي. رجلاه ضفتان معشبتان. بطنه ملهى ألف ليلة وليلة. شعره كورنيش أبو نؤاس. دمه خمرة هبهب المعتقة. نوارس ترتفع إلى السماء حتى تغيب في الدخان المتصاعد من أربع جهات بغداد، وغيمات بيض تتراكض مسرعة بإتجاه سماء ديالى، لقد أخبره أبوه أن أصلهم من خانقين، جاءوا إلى بغداد قبل خمسين سنة بسبب الفقر والجوع، جاءوا في أيام ثورة الزعيم عبد الكريم قاسم، وكانوا يحلمون بمياه صافية وكهرباء لا تنقطع ولحوم طازجة وسكن مريح، لكن العاصمة سرعان ما درزتهم مع تراب الأرض، وفجأة يدوي انفجار هائل يطيح بالجسر إلى الماء، كان ينظر بعينين مرعوبتين. انفلق الجسر فلقتين. شاهد ذكريات أربعين سنة تتطاير في الهواء مثل فقاعات ملونة.

فقاعات عشاق وصداقات وصفقات ومسامرات ووحدات وزفرات ودموع وغمزات وتلويحات وأشواق وتأملات ونظرات. الذكريات التي ضمها الجسر، بطريقه وحديده، تساقطت إلى مياه دجلة، كما لو كانت كرات هوائية ذات ألوان قوس قزح. المارة يتساقطون في الماء، نساء ورجال وأطفال وشيوخ وحمير وسيارات ودراجات هوائية، هو علي محمد أمين لا بد أن يكون بطلاً في مثل هذه الأوقات الحرجة، ضرب الماء بقدمه، ولوح بذراعيه، فاندفع نحو البشر الطافين على صفحة الماء مثل أسماك مزهورة، وسحب العجوز الأولى من شعرها، وبضربتين من قدمه وصل إلى الضفة فانتشلها من الماء هي وزنبيلها المليء بالطماطم، ووضعها بين الحشائش، فقالت له بخفوت: رحم الله والديك يا إبني،

وزادته هذه الدعوة قوة فعاد إلى عمق الماء ورأى ولداً صغيراً يبتلع المياه بغرينه ويلوح بأصابعه إلى النوارس، غط تحته ولف جسده الصغير بذراعه اليسرى، ثم نبق من تحت السطح وتوجه به إلى مرفأ قديم يعود إلى زمان الملوك الفيصليين. الغرقى يتمسكون بقشة. هذه حالة الجميع بعد الإنفجار. الجميع يبحث عن الأمان. ركن الولد على ظهره بتؤدة، وعاد مثل سهم نحو قاعدة الجسر المنهار. كان ثمة شاب منهك يشرف على الغرق قال له دعك مني، أنا بخير أنقذ الباقين. تركه وانصرف إلى شيخ جثيث لاحم مكتنز الوجه، أبيض اللحية أصلع الرأس، بدا وكأنه يودع الحياة. اقترب منه وأمسكه الشيخ بكلتا يديه وجره معه إلى الأسفل. حاول علي التخلص من قبضة الشيخ فلم يفلح، فنزل مثل حجارة ثقيلة إلى قاع دجلة. لم يمت. كان يتنفس ويرى ويمشي تحت الماء، بل أحس وكأنه يقوم بجولة للترويح عن النفس تحت دجلة، وكان الهدوء عميقاً وشاملاً، الأصوات، أصوات بغداد اختفت، كنوز بغداد في قاع دجلة، سنطور الجالغي البغدادي، والقيثارة والعود المزركش بالخطوط وعساليج العنب، رأس نبوخذ نصر يحدق إليه بعينين مطليتين بالقار، حمورابي ما زال واقفاً على مسلته يتسلم قوانين الرب، وكانت المسلة مربوطة إلى جثة شاب مقطوع البلعوم. مقبرة نهرية للصواريخ غير المنفجرة والقنابل من زنة نصف طن. وكان يمشي وسط كل ذلك بحذر.

أختام وعربات ملكية للملوك آشوريين وقلائد من اليشب يغطيها الغرين وأشنات تتلاقمها أسماك حمراء فلتت من شباك صيادي أبو نؤاس. طائرات ميغ ومدافع نمساوية وعربات مدرعة روسية الصنع بدأ الطين يغمر أجزاءها شيئاً فشيئاً. وثمة مجمرة هائلة يشرف عليها رجل

سمين يقلب أسماكاً تشوى برويّة ودراية. وبزغت من محيط الأشنات فتاة جميلة سمراء اللون تضحك له بغنج، قالت له أنا إسمي أحلام. تذكّرني جيداً. أنا حبيبتك القادمة. فتش عليّ في أزقة البتاوين تجدني. وفي شارع الشيخ عمر ومحلات الكرادة. بيتي قرب القصر الأبيض وسأمنحك متعة إن وجدتني. مد ذراعه ليمسك شعرها الحريري لكنها غابت خلف غيمة نهرية من نباتات مجهرية وأشن وغرين، ووسط هذه الغرائب النهرية سمع فجأة دوي انفجار مرعب، إنفجار كاد أن يطيح بجسده، مد يده إلى جسده فألفاه بليلاً، عرق ليلة صيفية حارة، لا مياه دجلة الباردة، وكانت النافذة الصغيرة في الغرفة تسكب ضوءاً أصفر على فراشه، لقد تجاوزت التاسعة صباحاً بالتأكيد.

سمع صوت أمه من حوش الدار يقول: سيارة مفخخة انفجرت في سوق الطالبية يا علاوي. وفي المشرب الصغير القريب من الجريدة طلب علي محمد أمين من زاهر تفسير حلمه الذي رآه. الأحلام رموز وإشارات. هي تقرأ المستقبل بطريقة ما. وكانا يقفان أمام البار، وأبو جسام الكهل يناول الزبائن ما يرغبون فيه من مشروبات، كؤوس عرق من نوع مسيّح، جن مغشوش مخلوط بالتونيك، بيرة هاينيكن، بافاريا، توبورغ، كارلسبيرغ، والمروحة متوقفة بسبب انقطاع الكهرباء الوطنية، وأبو جسام لا يملك مولد كهربائي، ثم اتصلت نضال بزاهر تسأله إن كان يفضل نفاصوليا، أم الباذنجان مع اللحم، وأخبرها بأنه سيجلب الكباب معه حين يعود، ولا حاجة للطبخ، ففرحت وأخبرته قبل أن تغلق الهاتف أن جارتهم المسيحية جلبت لهم صحناً من الكبة العينكاوية، وقد ذهب علي محمد أمين وزاهر للغداء حوالي الساعة الواحدة ظهراً، لكن بدل التوجه

إلى مطعم الصداقة الواقع في ساحة النصر لأكل الرز مع الباذنجان، كما اتفقا قبل خروجهما من الجريدة، وبسبب العطش وحرارة الشمس، اتجها إلى مشرب أبو جسام، في الشارع الثالث، الموازي لشارع الجريدة. كان بينهما اتفاق ضمني للذهاب إلى هناك واحتساء بيرة توبورغ مثلجة من البار، وكان أبو جسام سعيداً بوجودهما، فمن النادر أن يرتاد محله أشخاص بهذا الحجم، صحافيون ومثقفون تبدو على وجوههم الرزانة، يدفعون فواتيرهم دون نقاش، وحين يتكلمون يتكلمون ببطء وثقة، باقي الزبائن لهم مواصفات أخرى كما أخبرهم أبو جسام. أغلبهم من الشقاوات والمجرمين الذين أطلق سراحهم قبل أشهر من دخول القوات الأميركية إلى بغداد، و بار أبو جسام، كما سموه، صار محطة عابرة لشرب البيرة. تاريخ هذا البار يعود إلى أكثر من عشرين سنة خلت. في الأصل هو محل لبيع المشروبات. ففي فترة الحصار منعت البارات في بغداد بأمر رئاسي لكن محلات بيع المشروب ظلت فاتحة، وصنف بار أبو جسام كمحل للبيع وليس باراً.

طلب علي محمد أمين أغنية وداعاً يا حزن لياس خضر لكن أبو جسام أخبره أنه لا يملك هذا الشريط. فبان الإحباط على وجه علي وسكت على مضض محدقاً بالزبائن. هؤلاء صعاليك بغداد، قال أبو جسام لزاهر مشيراً بطرف عينيه إلى الواقفين على البار أو الجالسين على كراسي صغيرة في الزوايا أو جنب الباب. أنت في حالة هروب، قال زاهر لعلي محمد أمين. حلمك يدل على القلق والخوف من الحياة، كل تفصيلة، كل مشهد، كل حوار، يؤكد قلقك الكبير من مواجهة الحياة، هناك رموز ذات دلالات مكشوفة لا تحتاج إلى تأويل، الشوارع المسيجة

بصبات الكونكريت واضحة، فأنت يومياً تسير في شوارع بغداد التي حولتها تلك الصبات الى علب كأنها طرق للجرذان، الجثث التي وجدتها في الساحات وتحت الجسر وفي قاع دجلة ما هي إلا قلقك من الموت، أنت تتخيل نفسك وقد فقدت حياتك بواحدة من التفجيرات التي تحدث كل يوم حولنا، مشروعك الشعري مهدد لأن الحياة التي تحياها خالية من الشعر، هذه ليست الحياة التي كنت تنتظرها بعد أن اجتزت مرحلة الحصار والحرب والسواتر الترابية والمقابر الجماعية، دون أن تموت، وهي معجزة بحق، وأنت متعلق بأغنية وداعاً يا حزن، لأنها خيط أمل تتشبث به في هذا الزمن الصعب، لكن خيط الأمل يظل خيطاً واهياً أمام عنف الأحداث التي نشهدها في ساعاتنا اليتيمة هذه، جثث الموبايل لها علاقة بأفلام الرعب، هل تعتقد أن ما نراه معقول؟ وهل تعتقد أنك بهذه السهولة تستطيع الخلاص من حياتك السابقة؟. كلا. كيف لك أن تنسى مئات الأيام والليالي التي قضيتها جندي مشاة على الجبهة، وأنت تتنفس كل يوم رائحة الجثث المحترقة، والمتفسخة، والمرمية في الأرض الحرام بين الجانب العراقي والإيراني؟. لا يمكن القفز على أكثر من عشر سنوات بهذه البساطة. خاصة وأنها سنوات بمنتهى القسوة. سنوات خالية من النساء، خالية من الشعر، خالية من الفرح. وأنت تعتقد أنك ستودعها مع تلك الأغنية الحزينة. لكنه اعتقاد مضلل. فالحياة التي تبغي لن تجد كما يقول السومري في ملحمته.

علي ينصت بخشوع لإسترسالات زاهر، يدرك أن كل التفسيرات تحمل شيئاً من الصحة، وهي في النهاية لا تفسر شيئاً أيضاً. رن جرس موبايل فلم يسمعه زاهر، قال له علي هاتفك يرن، وكان المتحدث ربيع

المحمدي، أين أنت، سأله ربيع، عند أبو جسام، رد زاهر، مع الشاعر الكبير؟ سأله ربيع، وابتسم زاهر وهو يحدق بوجه علي محمد أمين الأسمر، المبقع بالعرق والحزن، نعم قال لربيع بخفوت، أنا في البيت، قال ربيع، أجلس في ظل شجرة العنب وأحتسي كأساً من العرق، أمامي دجاجاتي تنقر القمح في الحديقة، الدجاج أجمل المخلوقات على هذه الأرض، قريباً سأكتب مقالاً عن فوائد الدجاج، وراح يضحك بعمق، وانتقلت العدوى، عدوى الضحك إلى زاهر، ثم انتقلت إلى علي محمد أمين، وتسربت إلى أبو جسام الواقف وراء الحاجز، متسمعاً إلى ما يدور، ناظراً إلى صعاليكه المنحشرين في فسحة البار، ثم راح كل من في البار يضحك دون معرفة السبب. ولكن رغم ذلك أكمل زاهر تفسيره الممل لكابوس علي محمد أمين. وعرف الجميع بتفاصيل ذلك الحلم خاصة ما يشير إلى سهى. وسهى لم تعرف ذلك الجزء الذي تكون فيه هي البطلة. فهم يوحون لها لكنهم لا يصرحون. وبعد يومين من الكابوس، وأكثر من شهرين على سقوط الصاروخ على مبنى الجريدة، حدث أن ربيع المحمدي اشترى من القصاب عدداً من علب البيرة البافاريا، وقنينة عرق زحلاوي ثم ذهب إلى بائع الخضرة قرب محل المشروبات واشترى الخيار والطماطم والخس، ومن جانب القصاب عرج على بائع الثلج فطلب ربع قالب، ربطه له البائع بحبل قنب مما سهل عليه حمله، وعاد إلى دخلة الشقة وألقى التحية على بائع الكبة وصعد الدرج.

هناك التقى بجارهم بائع الخرداوات فسلم عليه ثم واصل صعوده إلى [illegible]، وكانت الكهرباء الوطنية موجودة والممر مضاء، قال لزاهر

وعلي قبل خروجه من الجريدة: لن نذهب اليوم إلى بار أبو جسام بل إلى شقة، لدي أنا الآخر تفسير لحلم علي محمد أمين، لكنه تفسير جنسي بحت، لذلك لا بد من نصب كمائن للنساء، والكمين هو المرابطة في شقة، ووافقاه على الإقتراح، وكأنه بذلك يحقق نبوءة علي محمد أمين حول أحلام التي رآها في كابوسه القديم. أخرج مفتاحه وفتح القفل الثقيل، ثم دلف إلى الغرفة الأولى وأحس بحرارة خفيفة داخل الشقة، فكر أن الصيف تخلف في شقتهم ولا يريد المغادرة، حيث وضع الأكياس على الأرض وفتح الفلينة التي جلبها علي محمد أمين من البيت ورمى الثلج فيها بعد أن كسره إلى قطع، ونشر الثلج على العلب كي تبقى باردة، وغطى الفلينة بالغطاء وأحس أنه انجز عملاً كبيراً. بدقائق معدودة وضع السلطة على الطاولة الكبيرة التي وجدوها في الممر الأرضي ونقلوها إلى النجمة، ورتب الكؤوس والكراسي، التي اشتروها من سوق ساحة الطيران، كل شيء عتيق في الشقة، الكراسي والطاولة والصحون والفراش البسيط الممدود في الغرفة الثانية، لحد الآن لم يدشنه أحد، لم تزرهم امرأة منذ أن استأجروا الشقة.

نزع بنطاله وقميصه وتعرى. دلف الى الحمام الصغير المفتوح على غرفة المدخل وفتح صنبور الماء. مايزال الماء ساخناً، لكنه استمتع بإزالة عرق الظهيرة وغبار اليوم. لبس ملابسه بعد أن نشف جسده بمنشفة صغيرة جلبها من البيت، ومسح رأسه المصلع قليلاً وأحس بالإنتعاش. فتح علبة بيرة بافاريا واتجه إلى البالكون. رمز نجمة البتاوين ملائم لشقة، فهم ليسوا بحاجة إلى فضائح، علي هو الوحيد غير المتزوج بينهم، وهم لا يريدون أن يصبحوا علكة في أفواه العاملين في الجريدة،

لا سهى ولا غيرها، ولا بحاجة الى مشاكل عائلية، وسعيد عبد الكريم يهتم كثيراً لحياة العاملين لديه، هكذا قال له زاهر البارحة. وكانت أسطح البيوت تمتد أمامه، ويستطيع مشاهدة فندق فلسطين من مكانه، كما يرى الدخان المتصاعد من مصفى الدورة في جانب الكرخ، وبغداد تحت ناظريه، كل شيء قلق فيها حتى الطيور، فهي ما أن تسبح في الفضاء برخاوة وتنشر أجنحتها في النسيم بسعادة حتى يفاجئها دوي انفجار لقنبلة أو سيارة مفخخة، أصبحت طيوراً دائخة، الطيور لا تهاجر من الأماكن الخطرة مثل البشر، لذلك تموت في أوطانها، والبشر رغم أنهم لا يمتلكون أجنحة إلا أنهم يهربون سريعاً من الموت. خرجت فتاتان على السطح المقابل وحين شاهدتاه في البالكون بدأتا باللعب لجذب انتباهه، إحداهما تدير مؤخرتها للثانية بوضع مثير، فتضربها على مؤخرتها بقوة وتبدآن بالضحك والتطلع إلى جهته، وكرعة كبيرة من العلبة، ثم وضعها على الحاجز الحديدي أمامه، وشعر براحة داخلية، ينظر إلى الزقاق لكن لم يلمح علي وزاهر، قالا له جهز الأشياء وسنلحق بك بعد ساعة ما أن ننهي الصفحة الأخيرة، أين تذهبون؟ سألتهم سهى بفضول، فقال لها علي إلى النجمة. كان الرد شاعرياً جداً، فأطلقت ضحكة وادعة وقالت هل تذهبون بصاروخ أم بمركبة فضائية؟. تعرف أن علي يكتب الشعر، ويحاول مغازلتها بكلمات شعرية كلما اختلى بها، سهى لا تعيره اهتماماً خاصاً، لأنه دميم، هو ليس من النمط الذي يستهويني كما أخبرت ربيع ذات يوم.

وجذبت أنظار ربيع امرأة تسير في الأسفل ترتدي عباءة سوداء وغطاء للرأس، كانت تمشي ببطء، تتوقف قليلاً وتلتفت إلى المحلات ثم

تسير خطوات وتتوقف، وكأنها تبحث عن شيء، وأصبحت تحته بانضباط، وقفت تحت شجرة التوت المزروعة جنب الرصيف، واستطاع أن يلمح وجهها بوضوح، هي شابة، ووجهها أسمر مثير، كيف يلفت نظرها؟ تساءل مع نفسه، وكان يحدق اليها بتركيز. أخرج رأسه من حاجز البالكون وقال لها بصوت خفيض: هل تبحثين عن مكان معين؟. أجل، أبحث عنك. أين تقيم؟. في البناية التي على يسارك، ادخلي الباب واصعدي حتى الطابق الثالث. سأكون بانتظارك. لم يصدق المحمدي ما دار بينهما. هل استطاع الحصول على امرأة بهذه السهولة؟. ستكون نقطة فاصلة في تاريخ النجمة. المرأة الأولى. فاتحة الأندلس ذات العباءة السوداء. راقبها تدلف من باب البناية فاقتنع أنها قادمة إليه. المرأة لا تخرج إذن. شرب ما تبقى في العلبة دفعة واحدة، ومشى مسرعاً إلى الباب. وقف في نهاية الممر عند فوهة الدرج. النور مضاء. من بعيد، في الأسفل بدأت أصوات اقدام خافتة تطرق سمعه. رمق بابي الشقتين المغلقين، وتمنى أن لا يظهر أحد من القاطنين. نعم امرأة. أول غنيمة تحصل عليها النجمة. بزغت من فوهة الدرج امرأة طويلة في بداية الثلاثينيات من عمرها. حطت قدمها على أرض الممر ونزعت العباءة وغطاء الرأس فكشفت عن جمال واضح، قالت اسمي أحلام، و وضعت أحلام عباءتها على الكرسي واتجهت إلى الحمام وتطلعت في الداخل ثم نظرت إلى السرير المركون في الزاوية، فراش من الإسفنج المضغوط مع مخدة صغيرة جلبها ربيع من بيته، تركته أحلام جالساً على الكرسي ومضت إلى الحمام. فكر ربيع بمضاجعتها لكنه لم يحبذ الفكرة، فهو لا يحمل أي واق، وهاته النساء خطرات، ولا يريد أن يصاب بمرض.

سيشتري غداً علبة من الواقي ويضعها في الشقة تحسباً لمواقف مثل هذه. سمع طرطشة مياه في الحمام وأدرك أن أحلام تستحم.

استغرب من رفع الكلفة السريع هذا، ولكنه فكر أن العاهرات هكذا، يرفعن الكلفة بسرعة، وهذا على ما يبدو جزء من طريقة العمل لديهن. رفع الكلفة السريع يثير الرجال، وهو ما يريده هذا النمط من النساء. فتحت الباب وخرجت عارية تماماً، الماء يتساقط من شعرها وجسدها، وطلبت منه اعطاءها منشفة، ووقف يتفرج على جسدها، كانت تمتلك جسداً نحيفاً لكنه ممتلئ عند الردفين، مع ثديين صلبين متوسطي الحجم، وقد حلقت عانتها مؤخراً فالتمع الضوء على جسدها الزلق الأسمر. كم يغير وجود المرأة من برودة الجدران؟ تساءل ربيع مع نفسه. لكن الأمر لا ينطبق على الزوجات فكر. ما أن يعيش الرجل مع المرأة حتى تفقد جاذبيتها. يصبح جسدها خارطة معروفة. لم يبق في جسد سعاد أي تفصيل سري. صار يعرف بالضبط متى وكيف تبلغ الذروة معه. لذلك كان يفضل الإستمناء على المضاجعة.

على الأقل يمكنه تخيل أوضاع جديدة وشهقات تختلف عن شهقات سعاد. لم تمر سوى دقائق على جلوسهما حتى أطل علي فجأة من الباب. أطل علي محمد أمين من الباب وكانت أحلام قد ارتدت ثوبها دون ملابس داخلية، وجلست على الكرسي، واتسعت عيناه دهشة كما لو رأى عفريتاً واقفاً أمامه، تجمد هنيهة يحدق بالمرأة، ويجيل النظر بينها وبين ربيع، ثم ألقى التحية وقال بارتباك: حلت علينا البركة. ما هي الحكاية؟. ليس هناك حكاية، السيدة أحلام أحبت الصعود إلى الشقة والتعرف علينا. تشرفنا بالسيدة أحلام. أحلام أنت جميلة. شعرك مثل

ليل بهيم، وعيناك عينا جؤذر مستعد للنطاح. ضحكت أحلام بصوت غنج وتساءلت: ماذا يقول؟. لا أفهم. هل أنت شاعر؟. أنا الشاعر، من البتّاوين حتى ساحة الميدان. هذه أول مرة ألتقي فيها بشاعر. أصحابي كلهم قصابون وميكانيكيو سيارات وسواق تاكسيات. أنا تحت قدميك. أأمري تطاعين. كم الثمن؟ ساد صمت قصير في الشقة، وارتفعت في مكان بعيد أصوات سيارات اسعاف تقترب من ساحة التحرير، متجهة إلى شارع السعدون. ضوضاء الشارع المؤدي إلى مركز شرطة البتاوين تنم عن تحضيرات غير مألوفة، وكأن حدثاً ما في طريقه للوقوع. تناول علي علبة بيرة من الفلينة بسرعة، ثم فتحها بلهفة وكرعها دفعة واحدة، أمام انظار أحلام التي راحت تدلك ظهره لكي تثير فيه مزيداً من الرغبة. قام من مكانه وخلع بنطاله بعجلة وذهب إلى الغرفة الثانية جاراً أحلام من يدها. بقي ربيع وحيداً على الطاولة. لحظات وبدأ يسمع التأوهات والهمسات والحركات، فخرج إلى البالكون حاملاً علبة البيرة.

٨

كان المحمدي يقف في البالكون محدقاً إلى أطراف النخيل وأسطح البيوت في العصر المندغم بسماء صافية خالية من الغيوم، بناية السلام وخلفها نهر دجلة يعكس أشعة خافتة لشمس نائية، تاج نخلة فندق السفير يشبه نبتة فطر عملاقة، وفي فضاء بعيد شاطئ الكرخ يغازل ما تبقى فيه من أشجار، وبغداد تنام على كوابيسها ومخاوفها، بغداد العاهرات وهن يجلن في الأسواق وسط صور الرجال المعممين والشعارات السياسية والدعوات القائلة بإخراج المحتلين ومقاومة الغزو الخارجي، بغداد التي اختلط فيها الحابل بالنابل، وبدأت لأول مرة منذ حقب تلفظ ما بجوفها من قيء وحقد ومكبوتات وأوهام، شارع البتاوين غاص بالناس، سيارات الشرطة تذهب وتجيء، الدوريات الأميركية تمشط الأزقة والساحات والشوارع، والجميع خائف في هذه المدينة، حتى أحلام.

انفجارات السيارات والعبوات الناسفة صارت تتكاثر بشكل واضح، سهى تقول إنها تتعرض لمضايقات كثيرة أثناء ذهابها وأيابها من وإلى الجريدة، كل ذلك بسبب عدم ارتدائها الحجاب، البارحة قالت إن أحد الركاب رفض تناول النقود من يدها لهذا السبب، إنها معجبة بزاهر على ما يبدو، رأى ذلك من خلال نظراتها في القسم، والهمسات بينهما

كلما اختليا سوية، قليلاً قليلاً تتحول بغداد إلى قفص، وهم في داخله طيور تنتظر موتها البطيء، دجاج يتقبل السكين بخمول، والكوابيس لا تزور علي محمد أمين وحده، بل تغزو رؤوس الجميع، منظر مكان الإنفجار في سوق شلال القريب من بيتهم كان فظيعاً، يشبه مكان الإنفجار في ساحة الرصافي، يبدو أن العبوات هي ذاتها، ما الذي يحشون به تلك السيارات لكي تسبب كل هذا الدمار؟. شاهد المكان قبل يومين حين رجع إلى البيت وعرّج على السوق، قالت سعاد إنها كانت هناك مع البنات للتسوق قبل ساعة فقط من الإنفجار، لم تكد تضع المشتريات في المطبخ حتى اهتز البيت من أساسه وتساقطت فتات من جص السقف على الأرض، كانت الشبابيك مفتوحة وإلا لتكسر الزجاج كله، وفي الأسفل، رأى زاهر يتجه نحو البناية حاملاً كيس الكباب، لكنه لا يحس بالجوع، هل ينتمي زاهر فعلاً إلى شارع البتاوين؟.

كان منظره من الأعلى يبدو مثل غريب ضال، لا سماته، ولا تعابيره، تدلان على أنه ينتمي إلى هذه المدينة، الغربة غيرت ملامحه تماماً، صارت هجينة، عالمية، غير محددة، وسمع أصوات رصاص بعيد، وكانت أشعة الشمس ترسم ظلالاً وأشكالاً على بالكونات البيوت والأعمدة الحاملة لحبال الغسيل والملابس المعلقة في الشرفات. صمتت تأوهات أحلام وساد سكون ناعم. ارتفعت أصوات المولدات الكهربائية من المحلات في الأسفل، ومن أمام بعض بيوت الزقاق، فأدرك أن الكهرباء الوطنية انقطعت، رغم أنها لم تجئ سوى ساعتين. هذه الأيام لا تأتي الكهرباء إلا بعد أربع ساعات من القطع. سيشتري أثناء رجوعه

في البيت عشرة ألتار من البانزين للمولد. الحياة تصبح جحيماً دون كهرباء. جاء علي محمد ضاحكاً، مرتدياً ملابسه، وعلى سيمائه علامات النشوة والإنتصار، واجتمعوا في الغرفة كلهم، وكانت أحلام تجلس على الكرسي عارية تماماً وتدخن سيجارة كلواز من باكيت زاهر. هذه لحظة تتطلب العرق وليس البيرة، قال علي وفتح قنينة العرق الزحلاوي وسكب نصف كأس مزجه بالماء ووضع فيه قطعة من الثلج ثم دلقه دفعة واحدة في جوفه، وسط ذهول المجموعة، وأحلام عارية تتثنى بجسدها وتداعب وجه زاهر أو رأس ربيع، وعلي يجلس على الأرض جنبها، يداعب ساقيها ويتمسح بها مثل هر أليف، ثم يتمتم مثل مجنون: أنت ملاك الرب الذي هبط في بابل. أنبل امرأة رأيتها في حياتي. أنا مستعد لكي أتزوجك. على الأقل لا تفجرين عبوات ناسفة وتقتلين البشر، لا تختطفين من أجل نقود ولا تسلبين سيارات الناس، فرش زاهر الكباب على الطاولة وبدأوا يأكلون بتمهل، وعلي يحتسي الكؤوس بعصبية وكأنه يريد الإنتقال إلى عالم السكر بسرعة خاطفة، فثمة عالم ضبابي أرحم بكثير من عالمه اليوم، نهضت أحلام من الكرسي وارتدت ثوبها ثم أخرجت علبة ديوديرانت من حقيبتها ورشت العطر على جسدها تحت الثوب وعلى أبطيها وشعرها، ثم لبست غطاء الرأس وارتدت عباءتها وتهيأت للرحيل. متى تكونون في الشقة عادة؟. بعد الثالثة عصراً. دائماً. قال لها علي وهو يودعها بقبلة عند الباب.

أطبق علي الباب خلفها وظلوا يستمعون صامتين إلى خطواتها وهي تتلاشى في الأسفل. خلّفت رائحة عطرها في الشقة، وكان ثقيلاً بما يتمدد إلى البالكون ليصل فضاء الشارع مختلطاً بروائح الكبة

والنفايات القادمة من الأسفل. الخدر يدب في الرؤوس، وكان علي يسبح بغيمة من العطر النسائي والأحلام والتأملات وهو مستمر على احتساء العرق بنهم. كل ما يرغب فيه هذه اللحظات هو دخول عالم السكر الساحر الذي يسحبه إلى ماض ذهبي عاشه ذات مرة. رن تلفون زاهر وكانت زوجته تسأل عنه. ورن تلفون ربيع وكانت زوجته هي الأخرى تستطلع عن وقت رجوعه، وعن البنزين الذي سيجلبه للمولد. إما علي فكان يخشى الرجوع إلى البيت. كان يخشى غرفته الملبنة بالكوابيس والعرق والخيالات المرعبة. نظفوا الطاولة وغسلوا الصحون ووضعوها على جريدة مفروشة في الأرض، ثم أفرغ زاهر ماء الفلينة في بالوعة التواليت وركمها جانباً، وأقفلوا باب البالكون ونزلوا. في الشارع وجدوا بائع الكبة يقف مذعوراً وقد فاجأهم ما أن خرجوا من الباب بالقول: اختطفوا القصاب. جاءت سيارة فيها مسلحون وأجبروه على الصعود بعد أن حطموا بضاعته كلها.

اتجهوا إلى ساحة التحرير، وقد بدا مبنى الجريدة مهجوراً تماماً. وخيوط العتمة أصبحت تلتف خلسة على الموجودات: اقرأوا على روحه سورة الفاتحة. قال لهم بائع الكبة. وفي هذا الوقت بالضبط ضربت لوثة أحلام عقل علي محمد أمين. وتراكمت بمرور الأيام، كما لو أصبح عاشقاً أو مهووساً بتلك المرأة السمراء. امرأة من الشوكولاتة، تحضر في رأسه حين يكون في النادي والجريدة وسوق الشورجة، وفي بيتهم المحصور بين بنايتين عتيقتين ويستجلب الكوابيس، ما أن يخف جسده بسبب الخمر حتى يراها في أوضاع غريبة: تطير بجناحين حريريين فوق مياه دجلة. تجلس معه في شقة النجمة، تحيطهما الشموع وهي ترفع شعرها كلما

تهاوى على جيدها الرفيع الناعم، يراها بعض اللحظات متجسدة بوجه سهى الأسمر هو الآخر، فيهمّ أكثر من مرة بالإنقضاض على سهى وسط ذهول الآخرين، تحل الظهيرة ويبدأ بالتململ والمشي جيئة وذهاباً في الغرفة الزجاجية، يمشي مثل ذئب جائع في صحراء من الثلج. الذئب ينظر تارة إلى مياه دجلة، وتارة إلى وجه سهى. يرمق ساعته الواسعة الميناء ويجلس إلى طاولته مقلباً الأوراق بنفور، وعيناه شاردتان في الوجوه. تصبح الساعة الواحدة ويقول لزاهر سأذهب للغداء، جعت، ثم ينزل سريعاً من الدرج ويغيب، وسهى لا تدرك بالضبط ما يجري، تسأل ربيع وزاهر عن حالة علي فيجيبانها بأجوبة غامضة، تحاول معرفة سر النجمة فتجد الطرق أمامها مسدودة كلها، إلى أن خمنت بأنه بار يلتقون فيه، مثل بار أبو جسام القريب، وحدثوها عن القصص التي تجري فيه واللصوص الذين يحضرون لأيام متتالية ثم يختفون، ونكات أبو جسام عن الوضع الجديد. حدثوها أيضاً عن جلساتهم في نادي الأدباء، وما يحصل على الطاولات، النجمة هي الكلمة الوحيدة التي ظلت لغزاً، وخمنت أنها بيت دعارة، وخمنت ذات يوم أن لديهم تنظيماً سرياً، إلا أن تخميناتها كلها لم توصلها إلى إجابة مقنعة.

وذات يوم سألها علي مازحاً إذا ما كانت راغبة في مرافقته لمعرفة سر نجمة البتاوين فرفضت، وكان علي محمد أمين يعيش صراعاً حاداً في داخله، كما لاحظ الجميع، كان ينزل إلى الأسفل، ويهمس زاهر لربيع، دون أن تحس سهى الجالسة على الطاولة: ذهب لرؤية أحلام، يرجع بعد نصف ساعة إن لم يلتق أحلام في الشارع، وهي عادة ما تحوم في مكان باحثة عن زبون من أصحاب المحلات والشقق الموجودة في المنطقة.

إما إذا صادف والتقاها فسوف يصعد إلى النجمة ليجلس فيها منتظراً صوت حذائها الصاعد على الدرج، عندها لا يعود إلى العمل. يجلسون في النادي فيغرق علي بكؤوس الخمرة ثم يبدأ بسرد تفاصيل لقاءاته الحميمة مع أحلام، ويعيد عليهم الأسطوانة ذاتها: إنها أفضل بكثير من هؤلاء القتلة الذين يفجرون البشر بالتي أن تي. هي أفضل من اولئك الزنادقة الميليشيات التي تختطف البشر على الهوية، وهي تقيم حواجزها الطيارة في الشوارع والطرقات البعيدة، على الأقل تمتع الشباب وتزيل عنهم التوتر، نصف ما نعانيه من عنف وقتل ناتج عن التوترات الجنسية، يقول لهم وهو ثقيل الكلام، لسانه يصبح بطيئاً متعثراً بالحروف والكلمات، من واجب الدولة، إن أرادت الاستقرار وخلق مواطن صالح ومتوازن، إقامة مباغ رسمية وصحية تضع فيها عاهرات من كافة الأجناس والأنواع، ثم تضع عليهن أطباء يفحصونهن من الأمراض كل أسبوع، وتفتح الباب للشباب الذين لا يستطيعون إيجاد امرأة، وبهذه الطريقة فقط يمكننا إقامة مجتمع صحي بدلاً من هذا القطيع الهائج جنسياً.

أصبح علي محمد أمين مهووساً بأحلام، يفترضها حبيبة رغم أنه يشاهدها وهي تضاجع من يرغب من الشلة في شقة النجمة، مرة غابت أحلام عن المنطقة أكثر من اسبوعين، لم يشاهدها علي في أزقة البتاوين، ولا صعدت إلى النجمة، فصار ينتظرها كل يوم بلهفة، اعتقد أنها قتلت، أو هاجرت مثل زميلاتها إلى الإمارات أو دمشق أو عمان، وكاد أن ينساها بعد ذلك الغياب، ولا يتذكرها إلا في لحظات السكر والسلطنة، لكن في ذلك العصر الخريفي كانوا جالسين في الشقة،

والسماء بها غيوم خفيفة، والهواء بارد بعض الشيء، كذبت أحلام كل هواجسه. فهي لم تمت، ولم تهاجر. قبرها هنا كما قالت في ذلك النهار. كان الجميع في الشقة. أبو حسن وزاهر وعمران وربيع وعلي محمد أمين، وكان باب الشقة مفتوحاً، وعلي محمد أمين يطل على ممر الشقة بين لحظة وأخرى، يتسمع، عسى أن يأتيه صوت شخص يصعد الدرج، والأحاديث كانت، وكالعادة، هي ذاتها. في ساحة الميدان بالضبط، قال أبو حسن مكملاً حديثه لهم، أثناء ما كان علي محمد أمين يروح ويرجع بين الطاولة والممر، حدثت الحادثة، البارحة ظهراً، ذهبت إلى الساحة لأجلب كتباً من أحد الأصدقاء يرغب في عرضها في المكتبة، كتب قديمة في مكتبته، كنا نجلس في تلك المقهى الصغيرة المطلة على دائرة لإتصالات نشرب الشاي، في باب المعظم، ونحدد سعر كل كتاب حين جاءت السيارات. سيارات شرطة، لكن الجميع كانوا ملثمين، وطوقوا مجموعة لا على التعيين من المارة، ثم ساقوهم إلى باص صغير جلبوه معهم، وحين امتلأ الباص أغلقوا الباب وأخذوهم معهم ومضوا باتجاه الوزيرية، هم اختطفوا أكثر من عشرين فرداً، لا على التعيين ثم غادروا. ويقيناً مذهولين، من هؤلاء، ولم اختطفوا الناس بدون تمييز؟. ولماذا؟ كنت محظوظاً، اذ وصلت قبل دقائق إلى المقهى، وإلا لكنت الآن في عداد الموتى بالتأكيد. من يكونون يا ترى؟. سأل عمران وهو يحتسي كأس بيرة من نوع بافاريا. أعتقد أن للأميركان يداً في ما يجري في البلد قال ربيع. إنهم يبلبلون الأوضاع لكي يقولوا انظروا، البلد مضطرب وهو بحاجة لوجودنا. قبل فترة حدثني صديق أثق بقوله، بدأ عمران يهندس كلامه بجدية وألم، قال: في تخوم حي البياع، وعلى الطريق

الرئيسي وعند المساء، وقفت مفرزة مسلحين، كلهم ملثمون كالعادة، أوقفوا باصاً صغيراً للركاب، من نوع كيا، وبدأوا يدققون بالهويات، طبعاً كانوا يبحثون عن هوية الشخص الطائفية، إن كان سنياً قادوه إلى الجهة الشمال، وإن كان شيعياً قادوه إلى الجهة اليمين، واعتقد كل طرف أن المقصود هو الطرف الثاني، لكن احزروا ماذا كانت النتيجة؟ قبل أن يجمعوا أمورهم للإنصراف من المنطقة قتلوا الجميع، لم يسلم أحد، وهذه حكاية خرافية بالتأكيد. هذا فعل لا يصنعه عراقي، تقوم به فقط جهة تريد بقاء الأوضاع مشتعلة، قال علي محمد أمين.

وبدأ كل واحد يدلو بدلوه في موضوع الإختطاف. أحياناً يتكلم الجميع باللحظة ذاتها. كل يريد أن يعطي رأيه حتى دون أن يسمع ما يقوله الآخر، أو ينتظر رداً على حججه وأقواله، والطاولة مكتظة بالبزر الرقي والشبس والمارتدلا الفاخرة التي جلبها عمران من المنصور، وعلبة اللبن الكبيرة التي جلبها زاهر لأنه يحب اللبن مع العرق، وما خطر لأي منهم في تلك الأمسية الخريفية أن يقع واحد منهم بعد أشهر ضحية للإختطاف. فالضحايا لا يستشفون مصائرهم حتى يقعوا في الفخ. مثل سمك دجلة تماماً. رغم أن مواقد الشواء قريبة منه لكنه لا يدرك أنه ستكون مستقراً له حين تأتي الساعة. ساعة شواء السمك تحت أغصان اليوكالبتوس الوارفة في ضفاف شارع ابو نؤاس. وكانت علب السجائر تنتشر على الطاولة بين القناني والكؤوس والمازات، فيستل هذا سيجارة من علبة ذاك، ويشعل آخر سيجارته المنطفئة من قداحة الثاني، وباب البالكون كان ينفتح على أسطح الحي الكئيبة، حينها صعدت الفتاتان إياهما على السطح، وراحتا تتبادلان الإشارات البذيئة وكأنهما توجهان

تلك الإشارات إلى الجالسين في الشقة، والشمس ترسل أشعتها الفاترة من بين الغيوم، لتضيء الملابس المنشورة على الأسطح، تشع السوتيانات والملابس الداخلية وتفانيف النوم، وتتطاير البلوزات النسائية الملونة يميناً وشمالاً، وفي البعيد من ذلك تطير طائرة ورقية من سطح ما، تطير بارتفاع منخفض وكأنها على ما يبدو تخشى مزاحمة طائرات الأباشي والفانتوم والكوبرا المحومة على الدوام في سماء بغداد، وكعادتها ظلت مدخنة مصفى الدورة تنفث سائلها الدخاني إلى سماء العصر، وجاءت أحلام، بزغت مثل جني في أرض الغرفة.

غابت أسبوعين وبزغت بغتة في الشقة كما لو كانت فراشة خريف فقدت البوصلة، ودخلت بتمهل وسط ضوضاء الحديث فلم يحس بصعودها الدرج، ولا بدخولها الشقة، حتى علي محمد أمين. فز علي عن الطاولة مثل شخص جائع هبطت عليه بغتة مائدة من السماء، شعت عيناه الصغيرتان، واتسعت ابتسامته وكشفت عن أسنانه المصفرة، أهلاً بقمر بغداد، أهلاً بعشتار البابلية وأنانا السومرية وأفروديت الفينيقية، وحشتوني وحشتوني وحشتوني، صدقت وردة الجزائرية، ملاك الرحمة، عذراء المعبد، العاهرة المقدسة القادمة من أوروك، وبابل وبوكا وأبو غريب وعينكاوه وخانقين، أين كنت يا حلومة؟. هل اختطفك أحد؟. هل تعرضت لك دورية أميركية؟ أين كنت يا حبي؟ في سجن أبو غريب؟ في بوكا؟.

كان علي يهلوس، لا يعرف ما يقول بالضبط. يدور على نفسه. يرقص الهيوة. يضرب رأسه الأصلع من الجذل. يغني وداعاً يا حزن بصوت رخيم. يكرع كأس العرق دفعة واحدة، ودون أن يترك لها مجالاً للجلوس أو الحديث قادها من يدها إلى الغرفة الثانية المعتمة وجلسا

على الفراش. فيما تعالت الأصوات في نقاش عميق حول الترجمة. وكأن موضوعهم هذا قراءة ثانية للجنس المحتدم جنبهم، وهكذا هم، جميع المواضيع تشعل فيهم الحماس، حتى لو كان الموضوع حول ذباب بغداد الكثير. هبت أحلام من الفراش واقفة وتركت عباءتها وملفعها هناك. اتجهت إلى الطاولة وهي ترفع ثوبها إلى منتصف الخصر. كالعادة لا تلبس أي ملابس داخلية. جلست في كرسي علي وسحبت سيجارة من علبة زاهر وأشعل لها أبو حسن من قداحته وهو يبتسم. أحلام لا تشرب الخمر خوفاً من أن يشم الرائحة أحد في الشارع. وهي نادراً ما تأكل في شقة النجمة، لكنها رغم ذلك تحس بالراحة في المكان. فالشلة تختلف عن زبائنها الآخرين، إذ لا يحسسونها بأنها عاهرة. على العكس يتعاملون معها كما لو كانت فرداً منهم، وهذا ما كان يجعلها حرة في جلستها. جد لي عملاً لديك في المكتب. قالت أحلام لعمران. أفضل من هذه المهنة القذرة. صارت حياتنا مهددة. بالأمس قتلوا ثلاث نساء في منطقة الثورة. يمارسن الدعارة. وفي الكرادة أصبحت الواحدة لا تستطيع التجول بين الشقق إلا اذا لبست العباءة والحجاب. أيام صدام كانوا ينكحوننا ثم يسجنوننا، أما اليوم فيقتلوننا حتى دون نكاح. كيف نعيش إذن؟. أنا لدي طفلان، الثالث على الطريق. ولا مصدر للعيش لدي. لم لا تتعاملين مع الجيش الأميركي، إنهم يدفعون بالدولارات: أعوذ بالله، لن أدع المحتلين يدنسون جسدي. هؤلاء أنجاس. والله إنهم أشرف بكثير من هؤلاء العملاء المتاجرين بالوطنية والديمقراطية. قال ربيع المحمدي وهو يعب كأسه العرق الزحلاوي، ويعقبه بقطعة من الشبس راحت تخشخش بين أسنانه، وعيناه غائمتان من السكر.

فتح عمران جزدانه وأخرج خمسة آلاف دينار قطعة واحدة وقدمها لأحلام. هذا لشراء السندويج للأطفال. افترضي أنني نمت معك. أنت جميلة مثلما وصفوك لي في النادي، لكنني لا أرغب في المضاجعة. تأخرت أحلام على الطاولة، وشعر علي بالإنزعاج. كل هذا الحب وكلمات الغزل وتتركه وحيداً في الفراش وتجلس مع الشلة! جاء متثاقلاً وصب لنفسه كأساً من العرق ثم جرعه مرة واحدة، وأكل ملعقة من التبولة وتقدم إلى أحلام وأمسك يدها ثم سحبها إلى الداخل. ومع اقتراب الخريف بدأ السنونو يطير في السماء. وجرجر الصيف أذرعه عن الأسفلت مبتعداً، حاملاً معه جيوش الذباب والغبار الجاف الذي لوّن جدران الأبنية باللون الرصاصي. هذا اليوم مثل حلم، فكر ربيع وهو يشاهد خلو كراج باب المعظم من البشر، والسنونو المحلق في غروب يشبه كحل سهى. وهناك فقط بعض السيارات واقفة تنتظر آخر المسافرين إلى بيوتهم البعيدة. لم تعد بغداد ابنة الليل كما كانت في أيام عزّها. الشمس غابت خلف منطقة الأعظمية، وبرزت البيوت وهي تتداخل خائفة وكأنها تحتمي بعضها بالبعض الآخر. لقد ترك شقة النجمة غاصة باللهاث ورائحة الجنس، علي وأحلام، واتجه إلى مدينة الشعب. علي ينبغي أن يهنأ مع الحبيبة، قالوا جميعاً وهم يودعون الشقة، ثم تفرقوا تحت جنح المساء.

٩

تجاوز سوق باب المعظم، وشم رائحة نفاياته قوية في أنفه، نفايات المساء، بعد أن أغلقت المحلات أبوابها، وتراكمت قشور السمك وزعانفها مع الطماطم الخانسة والباذنجان العتيق والعظام المجرودة اللحم، كل ذلك يختلط بعفن الفلافل والصمون المفتت وقشور الرمان، وفرغت الشوارع من ناسها وسينتهي يوم آخر من عمره، والخمسون تلوّح له مثل عزرائيل يقف على تلة عالية. انعطف من الباب المعظم، متجاوزاً السوق، نحو سيارات مدينة الشعب، وشاهد عدداً من القطط تنقض على كيس من النفايات محاولة استخراج ما في جوفه من بقايا خبز وعظام دجاج وشحوم قذفها مطعم أو قصاب، يتصاعد مواء وشخير كئيب، لكنه لم يتوقف عند هذا بل رمقه بنفور، فآمن أن حياته صارت مثل هذا الكيس، والقطط التي تتناوشه هي أحداثها وتفاصيلها المملة والمتضاربة، إبنه ناظم يعيش اليوم في كوبنهاغن لاجئاً سياسياً، إبنه أحمد يعيش في أربيل هرباً من الموت البغدادي، زوجته سعاد حولت حياته إلى جحيم، ابنتاه أمل وميساء لم تعودا تجرؤان على الخروج إلى السوق أو المدرسة، سوق شلال أصبح هدفاً للسيارات المفخخة، وهو، ربيع المحمدي، حياته تنقضي بين تصحيح المقالات والسكر اليومي، ما

أن تبلغ الساعة الثانية بعد الظهر، حتى ينخزه مخرز ما في معدته يدفعه إلى تناول الكحول، وفي الكحول يجد جنته التي يبحث عنها. همومه تغيب، شتات عائلته يتضاءل، حياته الفارغة تمتلئ على الأقل بالحوارات مع الأصدقاء، حول ما يجري في البلد، إن لم يفرغ ما يجول في رأسه سينفجر، وثمة حقد أعمى مترسب في بطنه، بالتحديد حول سرته، يبدأ كل يوم بالغليان إلى أن يتسرب قليلاً قليلاً مع كلماته الغاضبة التي يطلقها بوجه هذا الوجود الأجرد.

كم لاحظ الخوف في تلك الليلة على وجه زاهر وهو يعود به من النادي ليوصله إلى بيته، حين صار يضرب زجاج السيارة الأمامي، يتذكر المشهد بشكل ضبابي، لم يعرف لم فعل ذلك، في وقتها كان يحس بالقهر، بالغضب من هذه الحياة. من سعاد والجريدة وبغداد ورتابة الأيام، إذ لم يعد ثمة حل في الأفق، والبيت حين يعود اليه لم يعد حلاً، ومواصلة الشرب ليست حلاً، إذ كانت تقوده في بعض الأحيان إلى النوم في إحدى غرف النادي فاقداً الوعي، مرتين نام في النجمة، بعد أن احتسى كمية هائلة من العرق والبيرة، ولم يعد يقوى على المشي فتركه علي نائماً ومضى إلى بيته، ذلك اليوم بادر علي محمد إلى الإتصال بسعاد وأخبرها أن لا تقلق فربيع فضّل أن ينام في بيت أحد الأصدقاء، ولم يخبرها عن الشقة، لكن ما الفرق؟. يقول لنفسه سواء نمت في بيتي أو في النادي أو في الشقة، فاليوم مثل الغد، وبعد الغد قد يكون أسوأ من اليوم، الدوامة إياها، ما أن ينفصل عن الأصدقاء حتى يقف بخوف أمام حياته، لا يشبه زاهر، فهذا لديه خيارات كثيرة في حياته، وليس هو بعلي محمد أمين الذي استسلم للأمر الواقع وتحول إلى سمكة

مذعورة تسبح في مياه دجلة، ولا تعرف بالضبط متى تشوى على جمر مطاعمه الكثيرة، لقد اقترحت عليه سعاد الرحيل إلى أربيل، فهي تملك أقرباء هناك، ولكن ماذا سيعمل في أربيل؟ هل يشتغل نادلاً في أحد المطاعم؟، هل يعيش على صدقات أقربائه؟ ثم ما الذي تعمله البنات هناك؟، وكيف يعيشون؟، بيته ملك، صحيح، لكن إذا ما باع بيته من يضمن أنه سيشتري بيتاً هناك في أربيل؟

وهو يفكر في هذه الأمور لم يع إلا وشاب صغير أسمر الملامح ينقض عليه وهو يحمل سكيناً، قال له بعصبية: إما حياتك أو نقودك، وتساءل بغتة عما جرى لهؤلاء البشر، وكيف انقلبوا إلى وحوش كاسرة، ورغم أن زاهر يعرف كيف يفلسف هذه الظواهر لكنه لم يقتنع بالذرائع التي كان يسوقها، وكانت سيارة مدينة الشعب على بعد خمسين متراً منهما، والركاب هناك ربما يشاهدون ما يجري. تسليب مكشوف. ورغم أنه سكران، ولا يركز على ما يجري حوله، إلا أنه أطلق صرخة وحشية من داخله، ما أن رأى السكين في يد الشاب، صغر الشاب أغراه بالتحدي والمواجهة، صرخ طالباً النجدة، ثم تراجع إلى الخلف وهو يشهر كيسه الذي يحتوي على قنينة عرق زحلاوي، وشهر القنينة كسلاح يواجه به اللص، إرهابي، إرهابيييييييي، تلك هي الصرخة، انطلقت من فم مليء بالكراهية لكل ما يجري حوله، وكانت تحمل في طياتها حقد السنوات الماضيات التي حملت الموت في السجون وعلى الجبهات وفي المقابر الجماعية والصحاري والجبال والبحيرات الملوثة بالثاليوم والتي أن تي، وحملت القذارات المنبثة في الشوارع والأزقة وانهدام البيوت وتآكل الآلات في المصانع، وجشع البشر في التقاتل على الأموال العامة،

وفظاظات هؤلاء القادمين من خلف المحيط على دباباتهم وفي قمرات طائراتهم، الفظاظات المتجلية في سبطانات القاذفات الألكترونية والأسلحة الكاشفة للمتفجرات والنواظير التي ترى من وراء الجدران ما يقوم به أبناء هذه الأرض الجافة. شهر كل ذلك في صرخة حادة ومحطوطة، واستجمع آخر ما لديه من تركيز وقوة وقذف القنينة بوجه اللص الذي بدا الإرتباك واضحاً على ملامحه وحركاته وصوته، أكيد لم يتخيل الوحشية المحمولة على جناح الصوت المنبثق من أعماق ربيع المحمدي البرية، وقذف القنينة نحو الوجه المجهول الصخري القاتل الحالم بالنقود.

السكين لم تكمل طريقها إلى رقبة ربيع المحمدي، وبلحظة عجيبة تراجع الشاب بغتة وفر إلى السياج المتهدم المحاذي للشارع، تاركاً ربيع واقفاً يندب حظه على ضياع العرق، والقنينة انكسرت والصرخة تغلغلت في متاهات باب المعظم، واندلق السائل على أرض الكراج المسفلتة، وهبت رائحته النفاذة لتنتشر في الفضاء، وقرفص ربيع على القنينة وانتشلها من الكيس وتلمس منتصفها المكسور، وجد هناك كمية ما تزال في القعر، ارتشفها على مهل وهو ينظر إلى أشباح الكراج الذين يتنقلون مثل مسرنمين بين السيارات. لو يمتلك فراشاً وينام فيه على الأرض، دون أن يبالي باللصوص والعصابات والأميركان والميليشيات وكل من يحمل أداة للقتل، الحياة لا تساوي قلامة أظفر، ما الفرق أن يموت الإنسان اليوم أو يبقى لكي يعاني سكرات موت بطيء؟ في أرض تزرع الموت وتربيه وتحصده كأي فلاح ماهر. بغداد قفص. غير أنه قفص عملاق محشو بعارضات الكونكريت المنصوبة حول الأبنية الحكومية والشوارع والسفارات. محشو بالمؤامرات والخطط السرية المنسوجة في الليالي الحالكة، شعب شعب شعب، والسائق ينادي آخر الراكبين.

ربما يناديه هو بالذات: ربيع المحمدي. لن يشتري البانزين لمولد البيت هذه الليلة، فكر وهو يجلس خائفاً في الباص. سننام في الظلام، وقد تحدث معجزة وتستمر الكهرباء الوطنية ساعتين إضافيتين أو ثلاث. عبرت السيارة منطقة الوزيرية، وتجاوزت الصليخ، باتجاه الجسر، في الطريق الواسع الذي يتجه نحو بعقوبة ومدن الشمال الكردية. كانت الصليخ، مدينة طفولته، نائمة، لاحظ في مداخلها سيارات شرطة، ودورية أميركية تقف عند تخومها القريبة من الجسر، خفت حركة المارة في الشوارع وندرت السيارات العابرة، وهو طوال الطريق يحاول أن لا يتنفس بقوة، خشية انتشار رائحة العرق في جو السيارة، مما سيعرضه إلى مشاكل مع المتدينين، وكان باعة البانزين المنتشرين على جانبي الشارع قد غابوا، ولاحظ عدداً قليلاً منهم يجمعون جليكاناتهم ليمضوا إلى البيت، والمحمدي يتضايق من مدينته الشعب، لكثرة ما فيها من أزبال وإهمال وفوضى، كما أن سوقها الشعبي، سوق شلال، لم يعد آمناً، وحالفه الحظ بنجاة أسرته، فسعاد والبنات دائماً ما يتبضعن من السوق، الحظ لا يحالف دائماً، قال لنفسه وهو ينزل من الباص، والأزقة التي تقوده إلى البيت مظلمة، اختفت المصابيح الكهربائية من الشوارع، وازداد قطع الكهرباء ليصل إلى عشرين ساعة أحياناً في اليوم.

- هل وصلت إلى البيت؟ قال له زاهر عبر الموبايل.

- تعرضت إلى محاولة تسليب، نجوت بإعجوبة.

- أنا أتصل من البيت، إنني أشاهد فيلم رعب تجري أحداثه في العصور المظلمة، على قناة الأم بي سي ٢، اتصل بي حين تصل.

- ما اسمه؟

- اسم الوردة، مأخوذ عن رواية الكاتب الإيطالي أمبيرتو إيكو.

- لم يبق أمامي سوى خطوات، أنا في مدينة الشعب الآن.

أمام أحد البيوت شاهد عجوزاً وجارتها تتسامران، فيما خرج طفل صغير إلى الشارع وعاد مسرعاً ليغلق الباب وراءه، فالأطفال لم يعودوا يخرجون للعب في الأزقة، هذا ما حولها إلى دروب موحشة، ظلمتها تتسرب إلى النفوس بغتة، وزقاقهم وحده مضاء، ولا أثر لأصوات مولدات الكهرباء البيتية، هذا يعني أن الكهرباء الوطنية موجودة، سينقذه هذا من لوم سعاد وشجارها، وكان باب البيت الشاحب البياض ينغلق ببرود، وبالكاد أخرج المفتاح وأدخله في الثقب، وهو يترنح تعباً وسكراً، فانفتح الباب وشاهد الستائر مسدلة في صالون البيت والمصباح الموجود في الحديقة مضاء. بيت ربيع المحمدي اشتراه في فترة التسعينيات، حين كان الحصار يخنق البلد، واشتراه بسعر زهيد من النقود التي جمعها أثناء عمله في ليبيا واليمن، وهذا ما وفر للعائلة استقراراً معقولاً، الحديقة الأمامية ضيقة، فيها شجرتا عنب تظللان المدخل، وهما تنيخان على أعمدة خشبية بدأت تتهالك من ثقل الأغصان، وفي الطرف الأيسر بنى قفصاً للطيور، فهو ومنذ الصغر كان يهوى تربية الدجاج والحمام وطيور الحب والأرانب، إذ كان يعتبر أن هذه(الكائنات)، كما يسميها، توفر الراحة الداخلية له، وتعدل مزاجه. كثيراً ما كان يجلب كرسياً ويجلس قرب الحاجز الحديدي المخرم، يشرب العرق ويتطلع في الكائنات تلك، شاركه زاهر الجلوس قرب القفص أكثر من مرة، حين كان يجلب زوجته وإبنه هشام لزيارة عائلته، وفي تلك الأماسي عادة ما كان زاهر يحدثه عن تجاربه الماضية في البلدان التي

عاش فيها، ويلمس الألم في صوته وهو يبوح له بهواجسه عما يجري، ومنه عرف تفاصيل كثيرة عن علاقته بمالك الجريدة سعيد عبد الكريم، والشيء الوحيد الذي كتمه زاهر عنه، وحاول استدراجه للبوح به، هو الحد الذي وصلت إليه علاقته مع سهى.

كان متكتماً حول هذا الأمر ومنغلقاً مثل جوزة. لكن هناك أمر بينهما، هذا ما لا يشك به. الدجاج نائم في هذه الساعة، والهدوء يخيم على القفص والحديقة، والجيران تتصاعد منهم همسات وندا ءات وكأنهم يقيمون وليمة ما، إبنتهم ستتزوج غداً، وهم يعدون العدة لذلك، رائحة الكبة تأتي من هناك، وفوح رز وهريسة الحمص مع اللحم المجلوب من سوق شلال. المبردة تجثم على صدر الشباك، فكر أنه سيرفعها في الأيام القادمة، فالصيف ودع ورحل، ولن يحتاجوا إلى هواء بارد، وأجمل شهور بغداد هي الحادي عشر حتى الرابع، ثم يهطل القيظ مثل صل. المطر على الأبواب، فكر ربيع وهو يتأمل في النجوم البعيدة المتلاصفة في سماء مدينة الشعب، مصيرهم معلق في نجمة من تلك النجوم، أين تقع نجمة البتاوين يا ترى؟ ماذا سيحل بها بعد سنوات؟ حدس أن مصائرهم في طريقها إلى الإنفراط، هم يعيشون حياة غير متماسكة، المشكلة كما فكر أن الجميع يدرك ذلك، يدركه لكن لا أحد يستطيع ايقافه، ومن يوم واحد فقط قتلوا امرأتين في المنصور قيل إنهما تتعاملان جنسياً مع الأميركان، وسهى لا تحب ارتداء الحجاب، والمولد الكهربائي الصغير جالس على صندوق الخشب، وجنبه جلكان البانزين الفارغ، ستملؤه سعاد غداً بالتأكيد.

أين البنات؟ سأل ربيع زوجته ما أن دخل باب الصالون. في الغرفة

يدرسن. هل أعد لك العشاء؟ كلا، اجلبي لي بقايا القنينة. لم أكتف من الشراب. جلبت قنينة كاملة وسقطت في الطريق وانكسرت. هل تجلس هنا أم في الغرفة؟ في الغرفة. أريد أن اكتب قليلاً. المقاعد العتيقة والشراشف السمراء، ورائحة العفونة التي يشمها، هذه الحياة التي يحياها، وما بها من بؤس وتعب، لا تستأهل البقاء من أجل بيت في مدينة الشعب، البائسة هي الأخرى، وفي الأسابيع الماضية، وحين فاجأ بغداد مطر ثقيل، فاض بيتهم بالمياه، وتسربت الرطوبة إلى العظام. البيت منخفض عن الشارع، ومنافذ المياه فيه عاطلة. تقشر الطلاء قريباً من الأرض في أكثر من مكان. أمضوا الليل كله وهم ينزحون المياه من المطبخ والصالون والغرف، وناموا في الطابق الثاني. برودة خفيفة، المصباح الصغير يضيء قن الدجاج وشبكه، وواجهته الرائحة العفنة القادمة من هناك، حياته روتين قاتل، الجريدة في الصباح، ثم نادي الأدباء أو شقة النجمة بعد الظهيرة، سكر، وشراء بنزين للمولد، ورجوع إلى البيت لمواصلة الشرب إلى أن يصبح جسده اسفنجة رطبة بالكحول. فينام على الأريكة، أو ينال زوجته سعاد بسرعة وينام في سريره، المتعة الوحيدة التي يقدرها في حياته الخطرة والمملة في أيام الجمع حين يذهب إلى شارع المتنبي، ليتفرج على الكتب، يلتقي الأصدقاء ويأكل الشلغم اللذيذ في الشتاء، أو الكبة البغدادية المنزوية في مدخل سوق السراي. الجلوس مع زاهر وعلي محمد أمين وأبو حسن في مقهى الشابندر متعة كبيرة، يضع له النادل أركيلة المعسل والشاي الثقيل، ويذهب في حوارات طويلة مع الجالسين، عشر سنوات من عمره في اليمن وليبيا. والأردن والبحرين، هارباً من حروب الوطن، رجع إلى البلد، بعد أن

حطموا صنم الرئيس في ساحة الفردوس، أقسم مع نفسه أنه لن يغادر البلد حتى لو واجه الموت يومياً، هذا ما قرره زاهر كذلك، وأخبره به في إحدى جلساتهم في بار أبو جسام، وسهى تقولها علانية، إنها تمقت البلد وتحلم بالخروج منه، قال له علي محمد أمين في بار أبو جسام إنه لو قدر له الخروج من هذا البلد فأول ما يفعله هو أن يخرج قضيبه ويبول في نقطة الحدود، ولن يلتفت إلى الوراء لتوديعه.

كان علي سكران وقتها. هو ربيع، مثل غيره، يواجه الموت يومياً، ويعيش بشظف، ويتحمل سخونة الصيف القاتلة، ويعيش بلا أمل. بدأ أيضاً يفكر بالمغادرة مثل زاهر. يستطيع ترك سعاد والأولاد في بيت مدينة الشعب ويغادر بمفرده، لا يغادر خوفاً من الموت، فالموت لم يعد يعبأ، ولكن من قسوة الحياة، ولامعقوليتها، وتفاهتها. لم يكن هذا هو الزلزال المنتظر خلال عشرات السنين. يمسك بكأس العرق، ويقف في الممر، مثل شبح، دالية العنب فوق رأسه جافة الأغصان، والهدوء يخيم على حارات مدينة الشعب وأزقتها، وفي مكان ما من هذا الليل، وأبعد من سوق شلال، تتعارك الكلاب على الفريسة، والفريسة جثة مجهولة الهوية، وسوق شلال أغلق أبوابه منذ ساعات، وغاب باعة البانزين والنفط، وتوقفت حركة السيارات، ولم تبق سوى سيارات الشرطة والدوريات الأميركية، والساعة تجاوزت الثانية عشرة. من المشبك الحديدي سمع قرقرة دجاجة جلبها ذات مرة من سوق الطيور، وسط بغداد، يعرف صوتها جيداً، تساءل في سره لم ينام الدجاج مثلنا؟ وهل يحلم الدجاج؟ وما هي أحلامه؟ إنه على الأقل لا يتعرض لهجوم الثعالب، ولا للأحزمة الناسفة والرصاص الطائش، صحيح أنه يؤكل

دائماً، لكنه يؤكل بروية ونظافة واعتناء. نخب الدجاج، قال ربيع بصوت مسموع مرتجف، وطرق الكأس كما يفعلون على موائد الطعام بالشبك الحديدي للقن، ودلق كأسه كله في جوفه، ورجع إلى الصالون مغلقاً الباب الخارجي بإحكام، وكانت النجوم في السماء تتضاحك له من وراء غيوم خفيفة، وغبار غير مرئي يتماوج في الأعلى صاعداً إلى نجمة البتاوين، وربيع ودع الدجاج والفضاء، ودخل كفارس قادم إلى معركة. وأخرج دفتراً وقلماً وجلس يكتب بلذة: أنبل الطيور هي الدجاج. كتب هذه الجملة في الدفتر السميك الذي غلفه بغلاف مطاطي أسود اللون. وكان عادة ما يضعه بين الجرائد القديمة والمجلات المركونة تحت الأريكة العتيقة المجاورة للخزانة، دفتره السري الذي لا يريد ليد أن تصل إليه. فهو روحه العارية، وجنونه الخاص الذي يتمطى بين ضلوعه.

وأنبل الطيور الدجاج، خط هذه الجملة بعد أن وضعت له سعاد القنينة الزجاجية على الطاولة، مع صحن فيه حبات زيتون وبعض الخيار المخلل، وضعت له فخذ دجاج في صحن صغير، مع قطعة من الخبز. وهذه كفايته كما عرفت سعاد من الأكل حين يعود سكران ثم أغلقت الباب. سينام الليلة في الغرفة وحده. أصبحت تعرف عاداته تماماً، بعد زواج صمد عقدين من السنين، لذلك لم تكلمه إلا في الضروريات من الأمور خشية أن يثور ويغضب ويضربها كعادته في مثل هذه الحالات. أنبل الطيور هي الدجاج، فهي تغذي البشر من لحمها راضية سعيدة بمصيرها، تدرك بكل تأكيد أنها تربى وتطعم ثم تكبر وتسمن ولا تنتظر في حياتها القصيرة سوى السكين، وتدرك ذلك بالتأكيد، ولو أحصيت عدد الدجاج في العالم، في هذه اللحظة بالذات، لتجاوز العدد عشرين

مياراً. عشرون مليار كلها ستذبح وتتحول إلى طعام لهذا الكائن المسخ مدعو إنسان.

هناك مليارات من البشر تدين بديانات مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة، تقطن في مدن لا تتشابه، وتنتج ثقافات عجيبة. تتحارب، تتكح، يسخر بعضها من بعض، لكنها تتوحد في عبادة هذا المخلوق تصغير، عبادة لحمه اللذيذ، بمعنى ما الدجاج الآن هو معبود البشر، ونههم وكعبتهم، يأكلونه مشوياً ومسلوقاً ومقلياً ومقدداً ومتبلاً ومقروماً، ويعدون من لحمه مليارات المكعبات الصغيرة المدعوة ـ ندجي، صحيح الدجاج هو الذي يوحد البشرية، لا الحب ولا المشاعر لإنسانية ولا الديمقراطية ولا الجنس، واللص الذي هاجمني لا يعرف قيمة لدجاج الروحية، لا يعرف سوى لحمه اللذيذ، لذلك يمكن اعتباره مخلوقاً بربرياً، مخلوقاً قادماً من أحراش أفريقيا أو رمال الصحراء الكبرى، وإلا ـ يحمل سكيناً ليسلب أموال الناس؟ السكين يفترض بها أن تكون فقط لحز رقاب إلهنا الجديد، الدجاج، لا حز رقاب البشر.

ما الذي يدفع هذا اللص الحقير الى تسليب أموال الناس؟ البطالة؟ كلا. يمكنه إيجاد عمل بكل سهولة، يمكنه أن يصبح كناساً للشوارع أو ستانياً مثل أبو شعبان في الجريدة، أو دهاناً للشبابيك والأبواب أو عامل بناء، يصبح نادلاً في النادي مثل أبو قمر، يبيع الكبة في شارع لبتاوين مثل صاحبنا وهاب الذي ينام في المعمل تحت شقة النجمة، أو على أقل تقدير يصير شاعراً مثل علي محمد أمين لكي يروي سيرة لشوارع اليومية ويرسم تعابير الحمالين واللصوص أمثاله، ويجعل لكلمات تتقافز مثل ذباب في رؤوس القراء، لكنه لا يستطيع بيع جسده

مثل أحلام ليعيش، بل ربما يستطيع ذلك، لا أحد يعرف، فاللصوصية تشبه الدعارة، و قالت سهى اليوم إنها لن تلبس الحجاب حتى لو قتلوها في الشارع. تذهب وتأتي سافرة كل يوم، بين رجال جائعين للجنس. ومتوترين دينياً، يرمونها بكلمات فاحشة وبذيئة كلما مشت في الشارع أو ركبت الباص إلى محل عملها، هي بعنادها هذا ستجلب أجلها قريباً. أرداف سهى جميلة ومكتنزة وتثير شهيتي، لقد استمنيت على أردافها قبل أسبوع في تواليت الجريدة، بعد أن كانت تنحني على طاولة علي لتدقق في بعض المقالات التي سننشرها في الصفحة الأخيرة، بلوزتها مشجرة بنية اللون، ثدياها يترجرجان كلما مشت في الغرفة، وترتدي تنورة طويلة ناعمة سوداء اللون، تشف عن إليتيها المنفلقتين مثل جبن حمرين.

استغللتها فرصة كي أحملق فيهما ملياً، كلما نقلت ثقلها من رجل إلى أخرى تهتزان وتصطفقان بعضهما ببعض، ورحت أتخيل نفسي أقف وراءها وأرفع تنورتها قليلاً قليلاً حتى أقع على لباسها الداخلي الصغير المحشور بين الإليتين، فأمد أصابعي وأزيحه جانباً لتبين لي فلقتا البياض هائلتين، تخلقان سواداً وعمقاً في مفترق الفخذ. ولم أحتمل هذه التصورات وأنا أنظر إلى مؤخرة سهى فقمت إلى الحمام واستمنيت، والإستمناء يخلق حيوية للخيال، ولابد من تغيير وجهات النظر حول سلبياته، خاصة بالنسبة للمتزوجين من أمثالي. أصبحت مضاجعة الزوجة تشبه مضاجعة أخ في الرضاعة، هكذا وصفها أحد أصدقائي ذات يوم في اليمن، وكان متزوجاً لما يقارب الخمس والعشرين سنة، مضاجعة أحلام لذيذة، لولا وجود زاهر وعمران وأبو حسن، عمي

محمد أمين لا أخجل منه، لكن أمام الآخرين ما زلت خجولاً، ضاجعتها مرة واحدة قبل شهر، كنت وحيداً في الشقة حين صعدت، وبدأت تفرش لي مفاتنها، وتدير لي مؤخرتها العارية الملساء، وترفع يدي وتضعها على فخذيها، ولم أستطع المقاومة، نكحتها دون واق، وهذا ما أسفت عليه بعد المضاجعة. في المرة القادمة سأنكحها من دبرها، لم لا، في الجنس كل شيء مباح.

نام جميع من في البيت، فرغت القنينة تماماً، وهو بحاجة إلى تعب جسدي من نوع خاص، تعب يهده ويدخله إلى عالم النوم المستعصي عليه، لكن كيف يأتي النعاس والفكر مشغول؟ قام إلى الباب الداخلي وتأكد من إغلاقه، جلب مخدة قديمة ووضعها على الأريكة واستل شرشفاً معلقاً بمسمار على الحائط، وأزاح الطاولة إلى الخلف، وكان ذهنه في الغرفة الزجاجية، ينحصر في مؤخرة سهى وهي تقف منحنية على الطاولة وتزيح تنورتها بيدها وتفرج عن بياض ردفيها الهائلين، قال زاهر إنها تملك أجمل ردفين في بغداد، كانا لوحدهما، هو وسهى، تبدأ بتحريك جسدها يميناً وشمالاً، وهو يتقدم منها ببطء لينغل بين الردفين، يتخيل فحيح أنفاسها، واهتزازات أعضائها وشبق روحها، تنزاح أحياناً عن مجسات خياله لتحل أحلام محلها، إلا أنه يطردها مباشرة ويعود كي يمسك بسهى ثانية، ما ألذك يا ربيع، تهمس في أذنه، أنت أفضل من نكحت من الرجال، ويطلق، بعد دقائق من اللمس والعض والتقبيل، شرارات جسده على أرض الغرفة ثم ينام. وكتب بعد يومين فصلاً كاملاً عن فلسفة الاستمناء، وكان ذلك قبل أن يجتمعوا على ضفاف دجلة، احتفالاً بصدور ديوان علي محمد أمين، في مطعم السمك، العادة التي

لم يتخلص منها حتى الآن، وفي الدفتر الأسود، الدفتر السري، توصل إلى حقيقة أن الإستمناء يجعلك تختار من بين النساء الأجمل، وتكون أنت فقط بطلاً لرغباتك، فلسفته تلك لم يعرضها أمام الجالسين في ذلك اليوم تحت كثافة الأغصان ملتفين بغيمة من الذباب، لكنه فكر بها طويلاً وهو ينظر إلى موقد السمك وسيقان الحلفاء الطرية التي نمت في رطوبة الشاطئ، وقارن بين سهى الجالسة مثل ملكة على ضفاف دجلة وسهى التي اصطادها في الليلة السابقة.

وسمع سهى تقول: أخبرني ما هو سر النجمة؟ كانت توشوش في أذن زاهر بعد هدوء قصير لكلب ظل ينبح على بعد عشرين متراً من المطعم، ينبح دونما سبب واضح، وغادر ربيع نحو طين الشاطئ ولم يسمع جواباً، وهما كانا يجلسان جنباً إلى جنب حول الطاولة، هناك أيضاً علي محمد أمين، ولم يحضر عمران المهندس رغم أنه وعدهم بالمجيء، وأبو حسن في دمشق منذ أسبوع، ذهب لجلب كمية من الكتب الجديدة من مطابع الشام ودور نشرها، وقال إنه سيرجع عن طريق البر عبر مدينة الرمادي، وطلب منه ربيع جلب رواية شيفرة دافنشي بطبعتها الأصلية، فنسخها في شارع المتنبي كلها نفدت، مع أنها مستنسخة بما في ذلك الغلاف، وأوصاه علي محمد أمين على الأعمال الكاملة لأدونيس، وكانت الطاولة وضعها النادل تحت شجرة يوكالبتوس وارفة، ونهر دجلة لا يبعد سوى أمتار عنهم. علب البيرة تختفي في أكياس تحت الطاولة. حذرهم النادل من خطورة عرضها أمام أعين المارة في الكورنيش. الشرطة تطارد المحلات التي تبيع الخمور، حتى أبو جسام راح يفكر بغلق محله، بعد التهديدات التي تلقاها من ناس لا يعرف إلى أي جهة

ينتمون، وراح يفكر بالذهاب إلى جرمانا، في أطراف دمشق، وظل ربيع يتأمل بمياه دجلة المنسابة أمامهم، وخطر في ذهنه أن يكتب عن السمك هذه المرة. فهو مثل الدجاج يوحد البشر أيضاً. حدثه علي عن إسطورة الذهب التي شاعت بين أهالي بغداد وسرت مثل وباء، وتخيل مئات البشر وهم يؤمون ضفاف دجلة بحثاً عن الذهب في قاع النهر، فمن أطلق تلك الشائعة لا أحد يعرف، ربما الحكومة وربما حاجة الناس إلى النقود في سنوات الحصار، وقال له علي كنت آتي من سوق الشورجة إلى منطقة أبو نؤاس لأتفرج على النساء والأطفال والشباب وهم يخوضون في مياه دجلة حاملين غرابيلهم ينخلون بها الطين والمياه بحثاً عن الذهب، لم يكونوا يبحثون عن السمك رغم أنهم جائعون، بل عن الذهب، وكان زمان زمان حصار وجوع، ترى كم هو صغير عقل البشر؟ قال له علي محمد أمين، وهكذا عثروا على أحذية عتيقة وأقراط بلاستيكية وقناني فارغة وقطع حديد وعظام حيوانات نافقة منذ سنوات بعيدة، وجماجم بشر ماتوا منذ عقود وسلاسل حديدية كانت تستخدم لربط الحمير والخيول، والبعض عثر على تماثيل صغيرة من البرونز وفخاريات متآكلة وقطع نقود عثمانية وبنادق عتيقة تعود إلى زمن الإنكليز.

وعثروا على كل ما يخطر على البال، لكنهم لم يعثروا على الذهب، رغم أن هذه الحقيقة لم تغير من قناعة الناس بوجود ذهب تحت مياه دجلة، واستمرت حمى الذهب حوالي سنة، ثم غابت فجأة بعد أن منعت الحكومة أي شخص من الإقتراب من النهر.

١٠

المطعم قريب من الجريدة، لا يفصله عنها سوى كورنيش أبو نوّاس، وقد جاء بفكرة أكل السمك المشوي في المطعم علي محمد أمين بمناسبة طبع ديوانه الشعري الأول في مطابع وزارة الثقافة، وكان من ضمن الدفعة الأولى من المطبوعات التي بدأتها الوزارة بعد انهيار الدولة، وكان علي محمد أمين يمسك بنسخة من الديوان بين يديه، يقلب بها، كأنه غير مصدق تتويجه شاعراً، وقرأ لهم مقاطع من قصائده القصيرة، واحدة من القصائد كانت مهداة الى أحلام، وحين سألته سهى عن أحلام اختلق لها قصة حب معقدة تركت سهى ذاهلة وقالت له المثل الشائع: إن تحت السواهي دواهي، وجاوبها علي محمد أمين بالقول: أنا الشاعر من ساحة الفردوس حتى ساحة الميدان، وظل زاهر مذهولاً بسبب قدرة علي محمد أمين على تكرار نفسه، لقد سمع جملته هذه قبل أشهر في شقة النجمة، وها هو يسمعها الآن، وتزداد قناعته يوماً بعد يوم بقدرة الشعراء على التبجح، لكن جلب سهى إلى مطعم السمك خطوة متقدمة، كما ظن زاهر وأيقن، خطوة متقدمة للصعود الى الجبل، إلى جبلها المكتظ بالمرتفعات، وهكذا بعيداً عن الذهب تحت الماء والشاعر المتبجح علي محمد أمين وربيع الواقف على الضفة تحت اليوكالبتوس مثل تمثال

سومري، اقترب فم زاهر من أذن سهى، وشم عطرها النسائي الخفيف. وتعمد أن يمس بشفتيه طرف أذنها المتخفية تحت الشعر، وقال مجيباً على سؤالها: يوماً ما سأخبرك عن حقيقة النجمة، لماذا ليس الآن؟ تساءلت، لم نزل الحواجز بعد، فنكست سهى وجهها، وكأنها فهمت ما يلمح له، والتفت زاهر إلى الطاولة، حيث صف النادل عليها ما توافر لديه من مقبلات ومازة كاللبلبي والشبس والزيتون المخلل وعدة حبات من البرتقال، مع صحن واسع من السلطة.

المكان ليس نظيفاً، فالنفايات تتناثر تحت أشجار اليوكالبتوس على امتداد الكورنيش، كورنيش أبو نؤاس، ويقع مياه تتخلل الأرض المحصورة بين الشارع وضفة النهر، وكان ثمة كلاب سائبة تقترب أحياناً من المكان فينهرها ربيع بصوت عال لتولي هاربة باتجاه جسر الجمهورية. وكانوا يحتسون البيرة بحذر، ولهفة، عدا سهى فهي تشرب الكوكاكولا. هي لا تشرب الخمور كما قالت، ولا تدخن. خلفهم كان المطعم ينتصب متداعياً. مطعم من مخلفات السنين الماضيات، سنين عز شارع أبو نؤاس حين كان ملتقى للعشاق والباحثين عن المتعة ومرتادي مطاعم السمك المسقوف. اليوم لم يبق من ذلك العز سوى صالة متداعية فيها كراس قديمة، وملحقات لغرف مشققة الجدران، محاطة بخشب وسعف نخيل يابس وأبواب تقود إلى مخازن صغيرة لا أحد يعرف ما تحتويه، يدير المطعم رجل بمنتصف العمر له شوارب رجولية كثة، كان يخرج ويدخل بين الغرفتين والكوخ الخلفي، يبيع السمك أو يقطعه لزبائن جالسين في الداخل، وحوض السمك أشبه ببانيو حمام، تتقافز فيه أنواع من السمك النهري، بينها الشبوط والبني والزبيدي، وعلى مقربة من الكوخ ن

الموقد تتصاعد وهي تلسع السمك بحرارتها الخفيفة. وفي الجو زنخة من روائح المياه الآسنة والسمك وبقايا الخضار المتناثرة حول المطعم، وبناية جريدة السلام بدت لهم مثل قصر أسطوري يقف عند الزاوية، والزمن يمضي والذباب يتطاير فوق الكائنات والمياه الآسنة، وكان أن نهض ربيع من كرسيه ومشى باتجاه موقد السمك، وبدأ علي محمد أمين يحدثهم لكن ليس عن أحلام، حبيبته، بل أخذ يسرد قصة من قصص الحرب التي عاشها على الجبهات مع إيران، بعض تلك القصص، وكان يحكيها بمناسبة أو دون مناسبة، سمعتها سهى مرتين أو ثلاث، لكنها تثير زاهر حسين دائماً، كونه لم يعاصر تلك الحقبة، وترك العراق قبل أن تشتد المعارك.

والخمرة بدأت تدب في رأس علي وكان يتكلم بلذة وتفصيل واستغراق عن الهجومات التي حصلت على جبهة البصرة، وتحرير الفاو، ونفسية العرفاء ونواب الضباط، وحديثه المتأخر عشر سنوات أو أكثر، عن زمن تلك الأحداث كان، وضمن هذا الوضع، كما لو أنه قادم من قارة أخرى. انحل الجيش الصارم ذاك، وبيعت دباباته وسياراته وصواريخه وطائراته كخردة للتجار القادمين من دول الجوار. عقل زاهر حسين كان أيضاً في مكان آخر. ينظر إلى يد سهى المستلقية على الطاولة قريباً من يده اليمين، يتأمل بواجهات الأبنية الرئاسية الكائنة في الجهة المقابلة، وفي أفق الكرخ البعيد، من هناك حيث يسير الطريق إلى الرمادي مدينته، ورغم أنه ينظر إلى الضفاف والنوارس المحلقة فوق دجلة والجسور النحيفة الرابطة بين الكرخ والرصافة، الا أن عينيه تزوغان كل مرة لتنظرا إلى يد سهى القريبة من يده، وفيما كان علي محمد أمين يسرد لسهى حادثة قتل أحد أصدقائه في الموضع الذي كانا فيه بواسطة

قذيفة مدفع إيرانية، زحفت خنصر زاهر قليلاً قليلاً لتمس مساً خفيفاً ابهام سهى الأسمر اللدن المصبوغ الإظفر بالأحمر، وأحست سهى بلسع نار خفيفة فنظرت بغتة في وجه زاهر وكأنها تستقرئ عمق قصدية هذه الحركة. ظل زاهر ينظر إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون في الصالحية، وإلى دخان رفيع متصاعد من جهة البياع، لا يعير اهتماماً لا إلى نظرة سهى ولا حديث علي عن معارك الفاو.

ذراع الإخطبوط تزحف نحو الفريسة. والفريسة تنتظر بشبق. ومياه دجلة ترفل بالسمك. كثير من السمك، وفي لوحة من لوحات مايكل أنجلو تقترب إصبع الرب من الإنسان لدرجة تكاد أن تمسها، فتسري المحبة والحكمة من جسد الرب الأزلي إلى ذلك الإنسان الفاني، هذه اللوحة معلقة في إحدى الكنائس، وهي تطبع كأيقونة وتباع في الأسواق، رأيتها في إحدى كنائس مدينة معلولا السورية. الفكرة رائعة.

قال زاهر حسين دون أن يشعر بالحرج لمقاطعة حديث علي محمد أمين عن الحرب، ولم ينتبه علي محمد أمين إلى المقاطعة، فصمت قليلاً ثم أجاب وكأنه يتابع فكرة زاهر، الحلاج كان يعتبر جسده من جسد الإله. أي أن لا فرق بين الله والإنسان، لذلك قتلوه. قتلوه وقطّعوه ونثروه على مياه دجلة، كم رأى هذا الدجلة من أحداث، قالت سهى، وسهى لم تعرف بحلمي الذي رأيته، لم أستطع نسيانه حتى الآن، حين كنت أسير تحت مياه دجلة، نزلت من عند الكاظمية واتجهت نحو شارع أبو نؤاس. ورأيت الأعاجيب في ذلك الحلم: الرؤوس المقطوعة الملقاة في القاع. والسيارات العائدة إلى عهد عبد السلام عارف، والبنادق البورسعيد التي صدّرها جمال عبد الناصر إلى البعثيين في الستينيات، وكنت

شاهداً على سقوط جسر الصرافية وغرق آلاف البشر في دجلة، المؤسف أنني لم أر الحلاج، وجاء ذلك الحلم بعد سكرة رهيبة في النادي، وكان يأس خضر يغني أغنية وداعاً يا حزن.

وبدأ علي محمد أمين يغني: صبرنه وعوض الله/ علينه شما صبرنه، ويحدق في وجه سهى المتألق. وكان يرى فيه ملامح أحلام أيضاً. تبثق ربيع فجأة من ورائهم، وهو يقود مثل قائد عسكري، صاحب المحل الحامل لصينية السمك. وضع الرجل الصينية على الطاولة، بعد أن أزاح الصحون الفارغة، وسرعان ما تسربت رائحة السمك المشوي في المكان، وربيع خلال ذلك يمسك علبة بافاريا ويشربها بمتعة حتى آخر قطرة فيها، ومن ثم قذف العلبة الفارغة باتجاه النهر، وفي لحظة خاطفة انكبت كف زاهر أثناء انشغالهم بحضور السمك، على كف سهى كما لو كانت تروم تقبيل كفها، أو مضاجعتها، فسحبت هذه يدها بقوة وانحنت على الطعام، لكن عينيها كانتا تشعان بالسعادة، عيناها السوداوان مثل ثمرتي عنب ناضجتين، مياه دجلة تتلوى في منتصف النهر بدوائر واسعة، تتطاير فوقها نوارس بيضاء وعدد من الغربان التي كانت تعبر جانب الرصافة إلى جانب الكرخ أو بالعكس، ومياه النهر عارية بعد أن هجرها الصيادون. وكانت أصداء بعيدة من أزمان ماضية تتذبذب في الأفق، أغاني رشيد القندرجي، وتأوهات يوسف عمر، وشعوبي، وناظم الغزالي، وعفيفة اسكندر، وكأنها تعاود الإنبثاق من مقاهي بغداد المطلة على النهر، أو ملاهيها التي أتخمت شارع السعدون وشارع أبو نؤاس بالغناء البغدادي القديم، ملايين تناولوا السمك هنا ذات يوم، سمك بني، يغطيه البهار والبصل وحزوز الطماطم، حولت النار لونه الى الأحمر الداكن، والجميع يبحث وسط تلك الحقول المحمرة عن لقمة الصياد.

لقمة الصياد التي تتخفى في مكان ما بين الرأس والصدر أو الظهر، لقمة الصياد سرعان ما وجدتها سهى ورفعتها بفرح بين أصابعها الأربعة مفاخرة، فقام زاهر مثل نسر باختطافها من بين أصابعها ووضعها بين شفتيه، فضج الجميع بالضحك، وتعرض زاهر إلى دعسة قوية من حذاء سهى الخفيف من تحت الطاولة، حينها أدرك أنه سيناز زميلته في أول فرصة سانحة، والفرصة السانحة لم تتح إلا قبل اختطاف عمران المهندس بأسبوع. نال زاهر حسين زميلته سهى ابراهيم في مكتبه الواقع في نفق الشرطة. إما قبل اختطاف عمران فسارت حياتهم بشكلها الروتيني واليومي، ولم يتغير شيء. الأميركان يحتلون البلد، والقوى السياسية تنظم للإنتخابات، والمتطرفون يفجرون كل شيء، وعدوى الريبة والشك تنتقل من مكان إلى آخر بيسر وسهولة. عدد الجثث مجهولة الهوية في تصاعد مخيف. وسعيد عبد الكريم صارت له علاقات واسعة مع وزراء ونواب ومؤسسات، وصار يفكر بتأسيس حزب.

أبو حسن على سبيل المثال، رجع من دمشق محملاً بعشرات الكتب الجديدة، وظل طوال جلستين يحدثهم عن بارات الشام ومطاعمها ودور النشر فيها. وقص لهم حكاية رحلته على الطريق البري بين بغداد ودمشق بتفاصيل مملة، والقصص التي سمعها عن عصابات التسليب والقتل المبثوثة بين الرمادي والحدود.

أوضح لهم الفرق بين الأدب المترجم، وكانت أغلب الكتب التي جلبها مترجمة، وبين الأدب العربي المليء بالإنشاء والمغالطات والمحسنات. وقضوا عصرية كاملة في مناقشة عميقة حول الترجمة. واتفق الجميع على أن كتاباتهم افضل، طبعاً قالوا، لأنها أكثر صدقاً من

كتاباتنا. كتاباتنا الخائفة مثل جرذ محاصر بالنار. هناك الدين، والأخلاق، والسلطة، والعائلة، والأقرباء، بعد تلك الرقابات كيف يمكنك أن تقرأ أدبا حراً أو فكراً حراً؟. تساءل ربيع غاضباً. من المستحيل أن تجلس في مكان مثل مكاننا دون وجود نساء، هذا ليس في أوربا فقط، بل أغلب دول العالم. هذه هي البلدان التعيسة في الشرق الأوسط، قال زاهر في تلك الجلسة، ثم استدرك: سبب ما نعانيه ناتج عن قمع المرأة ومصادرة حريتها. أليس من المستغرب أنني أمشي في شارع الرشيد، من الميدان وحتى ساحة التحرير، دون أن التقي بشابة حضارية تسير في الشارع؟ هل من المعقول أنك تجلس في نادي الأدباء الذي يفترض به أن يكون شمساً للحرية والإنطلاق والتمرد، دون أن تجد فيه ولا امرأة واحدة؟ لا كاتبة ولا فنانة ولا رسامة ولا ممثلة، بل حتى لا تجد قحبة واحدة. أتفق مع علي محمد أمين على أن أحلام أشرف امرأة في هذه المنطقة، من ساحة التحرير حتى ساحة الأندلس، وحوارات ومناكفات وقفشات مثل تلك كانت تحصل في شقة النجمة، وفي غرفة تحرير الصفحة الأخيرة في الجريدة، وفي النادي.

تجري وإيقاع بغداد يتصاعد، ويصم الآذان. سيارتان انفجرتا في سوق الصدرية المكتظ بالبشر. تفجير رأس أبو جعفر المنصور في حي المنصور. قطع الطريق بين بغداد والمحافظات الجنوبية. اختطاف عشرات الأطفال يومياً. هروب آلاف الأسر من محلات سكناها. الطريق البري بين بغداد وعمان ودمشق يكتظ بالهاربين. اغتيالات غامضة للإطباء والمهندسين والصحافيين. تشكيل حكومة جديدة تقودها الأحزاب الدينية. الكهرباء أصبحت زائراً نادراً للبيوت. وشارع الكرادة لا يمل من تصدير

الجثث. لا يمر يوم إلا وتنفجر عبوة ناسفة أو سيارة مفخخة. أحلام بدأت تخاف من القتل. لكن العلاقة بين سهى وزاهر حسين سرعان ما توطدت بعد ظهيرة السمك تلك. أصبح اللعب بينهما على المكشوف. علي وربيع يحاولان أن لا يوحيان لهما أنهما يلاحظان شيئاً. حتى بعد أن انتهى الأكل وغادرت المجموعة كهف السمك ذاك، اتجه علي وربيع إلى شارع أبو نؤاس ثم يمما ناحية جسر الجمهورية، وكانا منغمرين بحديث ساخن عن شارع الرشيد وتحولاته في العشرين سنة الأخيرة. سار زاهر وسهى نحو الشارع القريب من الجريدة حيث تقف سيارة زاهر الأوبل. صامتين وصلا السيارة، وكأنهما يواجهان قدراً محتوماً لايمكن الفرار منه. سهى تسكن في أطراف معسكر الرشيد، مع أمها وأختها وأخيها الكبير، في شقة مملوكة لهم تركها المرحوم أبوها قبل ثلاث سنوات. كانت الشمس سائرة إلى الغروب. شارع السعدون بدأ يفقد زخم حركته، وأغلقت كثير من المحلات أبوابها، وحين سارت الأوبل في الشارع اتصلت سهى بأمها وأخبرتها أنها في طريقها إلى البيت.

تأخرت بسبب غلق الطريق الذي قام به الأميركان، أخبرتها. بالفعل كان الشارع فارغاً تقريباً، حتى مداخل معسكر الرشيد، اذ بدأت الزحمة تشتد قليلاً قليلاً. زاهر صامت خلال المسافة بين الجريدة والمسرح الوطني، إلا أن الصمت بدا له ثقيلاً جداً ومحرجاً، خاصة وأن سهى تنتظر منه الخطوة التالية. تتويج ما بدأ في الجريدة والمطعم وفي عمق الليالي الطويلة. كانت تجلس في المقعد جنبه، وتضع يدها على فخذه الأيسر، وفيروز تنطلق بكلمات غزل رقيقة عن الحب والعاشقين والرمل والأسماء التي ستمحى، وفكر زاهر بلحظة خاطفة بنظراتها السابقة

المنصبة عليه في القسم، وبدعسة قدمها حين كانا يجلسان قرب دجلة، ولمسة الإله في أيقونة مايكل أنجلو، متزوج هو صحيح، لكن لا يمكنه إخفاء ميله واشتهائه لسهى، هذا نمط من النساء يخلب لبه ويسعر الحرارة في جسده. الأنوثة التي تتحدى الذكورة. تتحداها من خلال تصغيرة الخد، واللفتة، ورفع الصدر إلى الأمام، وهالة الشهوة المحيطة بالشعر والحنك والجبهة. هذه هي اللحظة الفاصلة فكر زاهر، إنها أمامك، إما أن تقطع البرزخ الفاصل أو ستفقدها إلى الأبد، البرزخ الفاصل هو المسافة بين يدها المستلقية على فخذها السمين ويده المتشبثة بمغير السرعة، وضربات قلبه تتسارع، عليه أن يقرر الآن، والأشياء حوله دخانية، تتداخل في ما بينها، والسيارات المارقة تتلصص عليه، وشمس بغداد الخريفية تنسحب عن الأماكن العالية والنخيل لتترك له فضوة الغزل والجرأة، فما كان منه إلا أن مد يده فجأة وأمسك بيد سهى الساخنة، وتذكر لوحة مايكل أنجلو حين اوشكت يد الإله أن تشعل يد بني البشر.

يد ساخنة، بضة، يد الأنثى المتعطشة إلى الحب والغزل والجنس، يدها لا تختلف عن سرتها ومؤخرتها وصدرها، القطعة النسائية النفيسة، المروية بالشهوة، وحاولت سهى أن تسحب يدها لكن محاولتها كانت مترددة، فما كان من زاهر إلا أن يمسك يدها ويرفعها إلى فمه ويقبلها. كل أسوار سهى وممانعاتها ذابت، وتركت يدها تلهو في كف زاهر وفمه وفخذه. القلعة الحصينة فتحت له أبوابها. في تلك الثانية، شعرت سهى بجسدها يسبح بعرق داخلي ومتعة خفية، هي متعة الإستسلام، وترك الأشياء لكي تأخذ قالبها الكامل، ورغم تمسكه بيد سهى إلا أن زاهر يحاذر السيارات المارة قربه، فمرة يسحب يده من يد

سهى ومرة يتشبث بها، وكانت سهى تترك له العنان لكي يعبث بيدها كما يشاء، حتى حين سحب أصابعها ووضعها بين فخذيه لم تمانع. وتجمدت هناك دون حركة، فلم تسحبها كما لم تظهر أي رد فعل، كما لو انها صعقت أو أصابها سحر ما، والجو المحيط به لا يسمح له بتقبيلها. الزحمة بدأت تشتد قبل وصول الجسر العابر نحو معسكر الرشيد، ومثل أعمى كان يمسك يد سهى، ينقلها مرة إلى جنبه ومرة إلى فخذيه ومرة إلى فمه، وكأن سهى تجسدت بتلك الأصابع الخمس التي تستلقي ناعمة ومستلسمة في أخطبوط سطوته.

أمسية السمك تلك، كانت كافية لكي يصبح زاهر وسهى عشيقين سريين، عبر النظرات واللمسات الموارية ولحظات العناق التي كانت تتم في الغرفة الزجاجية، بعد أن يغيب علي وربيع في الطابق الأسفل. النجمة لا تليق بسهى، فالنجمة تناسب العاهرات من أمثال أحلام. لكنها غير ممكنة لسهى. لا يمكنه دعوتها إلى هناك فالعيون تراقب البناية، ولا يستبعد مجيء علي أو ربيع المفاجئ إلى الشقة. حين باح لعمران المهندس بسر العلاقة بينه وبين سهى، أخرج عمران مفتاحاً إضافياً للمكتب وقال له خذه، بمجرد أن تتصل بي وتقول إنك قادم معها إلى هنا سأخلي المكتب. أعطني مكالمة قبل ساعات فقط. وفعلاً وجد زاهر الطريقة الأمثل للإختلاء بسهى. مكتب عمران في نفق الشرطة. وصل إلى هناك في الساعة العاشرة صباحاً بالضبط، تواعدا عبر الموبايل في الليلة الماضية، سيلتقيان في ساحة التحرير الساعة التاسعة صباحاً. واستغرق الطريق من ساحة التحرير إلى نفق الشرطة ساعة كاملة بسبب انغلاق الطرق وكثرة الدوريات الأميركية وانفجار عبوة ناسفة في ساحة

تحف القريبة من كراج علاوي الحلة، وزاهر يستغرب الشجاعة التي تبديها سهى وهي ترافقه إلى المكتب، لا يبدو عليها من النوع المجرب في مثل هذه الأمور، هذا رغم القصص الغامضة التي حكاها علي محمد أمين عن سيرتها في الماضي، وكان علي شحيحاً في تفاصيل علاقاتها مع رئيس تحرير ومحررين في جرائد العهد السابق، لا شك أن سهى كانت جميلة في شبابها، هي الآن في منتصف الثلاثينيات، ومع ذلك فهي جميلة في عيني زاهر، كيف وهي في العشرينيات مثلاً؟. أيام دراستها للصحافة في الكلية؟. لا بد أنها حصلت على عشرات المعجبين، وحين اشتغلت في تلك الجريدة، هل كان لها علاقات خاصة مع رئيس تحريرها أو المتنفذين فيها؟ ولم لم تتزوج حتى هذا الوقت؟ كل تلك الأسئلة الغامضة لم يكشف علي محمد أمين عنها الغطاء، حتى في حالات سكره العنيف لا يبوح بشيء واضح عن سهى، هو يعرف عنها الكثير، هذا ما هو متأكد منه، وخلال الطريق لم يترك مداعباته لها ولا لحظة واحدة.

قرب معرض بغداد الدولي تجرأ ولامس صدرها بقوة وضغط عليه، بحجة تعديل مرآة السيارة القريبة منها، وكانت تحس جيداً بهذه الألاعيب وتضحك، وتروي له نكات نسائية ذكية، ثم صعدا الطابق الأول بوجل، وكان أصحاب المحلات ينظرون إليهما بريبة، لكن زاهر مشى معها بثقة وثبات، وجعلها تتمسك بذراعه كما لو كانت زوجته أو خطيبته، فأفضل السرقات الناجحة هي المعلنة، قال لنفسه وقتها، وأخبره عمران أن المكتب تزوره نساء أيضاً وعليه أن لا يهتم من هذه الناحية.

- كم امرأة جلبت إلى هنا؟.

- ولا واحدة، لا تنسى أنني متزوج.

- وصديقك عمران؟.

- إنه متزوج أيضاً. لكن لديه صديقة في البياع. استأجر لها شقة سرية.

- أنتم الرجال لا تؤتمنون، مثل السكاكين، الكبيرة والصغيرة سواء، فكلها جارحة.

- جارحة وتخرج الدم.

أغلق الباب وقبلها قبلة طويلة، خلالها يمسد بيده اليمنى على عجيزتها اللدنة والضخمة التي ترتفع مثل تلة على ساقيها الطويلين. وحاول أن ينتقل من الخلف إلى الأمام فتمنعت وأمسكته بيدها وأبعدت نفسها ودخلت نحو المكتب، وقد خلعت جاكيتها الصوفي الأسود وبرزت مفاتنها خاصة عند الصدر والعجز، وكانت ترتدي تنورة طويلة سوداء، وبلوزة سوداء لكنها مفتوحة عند الصدر قليلاً، مع تخريمات حمراء تلون القبتين اللتين تغطيان النهدين، هكذا جلست على كرسي عمران الجلدي ونظرت إلى التلفون الأرضي الأنيق، وبدأت تدير الكرسي يميناً وشمالاً بسلطة ملكة توجها زاهر على عرش قلبه، لا أدري تماماً، نظرات عينيك الواثقة التي تتحدى الذكورة، ردفاك الممتلئان، صدرك، فمك الذي يدفعني في كثير من الأوقات إلى أن أطوقك حتى لو كنا في الغرفة أمام الآخرين، وأقبض على وجهك وأقبل شفتيك بقوة وأعض الشفتين كما أعض فريسة، يقول لها زاهر فتنعته بغنج بالمتوحش، ومنذ هذه الكلمة، التي قالتها سهى بنشوة ودلع وسخونة وإرتعاش، لم يعد للوقت من معنى لديهما.

قبلها زاهر في البداية وهي على الكرسي الجلدي، ثم قادها من ذراعها نحو الأريكة الجلدية القريبة من باب البالكون، أجلسها على

الأريكة وأقعى هو على الأرض، وكان رأسه يستلقي على فخذيها ويحدق في الوجه المدور والحنك البارع التكوين والشفتين المفتوحتين مثل زهرة استوائية، ثم نزع عن قدميها الحذائين، وراح يتلمس حرير جوربيها ثم صعد بأصابعه إلى ساقيها السمينين الطويلين الأملسين، وكانت سهى تستلقي على ظهرها على مسند الأريكة وهي تتنفس بصوت مرتفع، وتطلق كلمات مبهمة وحشرجات من يدخل إلى قلعة جسده الفارهة، كلما بدأت يد زاهر تصعد نحو الأعلى تحشرج، وتتأفف بحسرة، حتى باعدت بين فخذيها وكانت تمسك بشعره بقوة أثناء ما كان يتلمس ملتقى الفخذين الأملسين، ويحاول إيجاد طريق واضح إلى البؤرة. البؤرة الكونية التي طالما لامسها بمتعة واستغراب في كل بقعة من بقاع العالم، لا فرق لديه بين لون وآخر، فالحرارة ذاتها، والمياه الصافية ذاتها، والقوة الجاذبة ذاتها.

الأنثى الخالدة، الكهف السري الجاذب للذكورة إن كان في الصين أو في نفق الشرطة، وزاهر في شبه غيبوبة حين قالت له سهى في لحظة زمنية غير معروفة، أدخله، فأرجعته هذه الكلمة إلى بقية من إحساس بالواقع، فما كان منه إلا أن امسك عضوه بكل قسوة وأدخله مباشرة إلى رحمها، ودخل بسهولة لم يكن يحلم بها، كان يظن أن سهى عذراء فهي لم تتزوج، وكانت متحفظة في علاقاتها مع الرجال، لكنه في تلك اللحظة أيقن أن سهى تريد أن تمنحه آخر ما تبقى لها من أسرار وخصوصيات. نشوة غير أرضية، زفرات، أصوات، كلمات غير واضحة المعاني، ذبذبات عنيفة تربط بين الذكورة والأنوثة أفاق منها مسحوراً، واكتشف أن جسد سهى يرقد تحته على السجاد، وأن يديها تتمسكان بجسده بقوة، تشبكان الأصابع على الظهر، وأن دموعاً ساخنة كانت

تسيل على الوجنتين الناعمتين الغضتين الموردتين بالحمرة السمراء. منحت الأنثى نفسها، لم يعد لديها أسرار، صمت رائق في المكتب. كأنهما، كليهما، لا يرغبان في كسر بحر النشوة الذي كانا يسبحان فيه. ولم يعد الكلام ذا قيمة، الأشياء تكتفي بذاتها، والوجود يتحقق. وصوت ذبابة ينز بين البالكون المغلق والحمام في طرف المكتب، ولم يدق تلفون ولا رن الموبايل، وكانت جريدة السلام قد تلاشت من الذاكرة. وقالت سهى بعد هذا الصمت الذي امتد أكثر من ربع ساعة، هذا آخر سر اعطيتك إياه، والآن قل لي ما هي النجمة؟ استغرب زاهر من سؤالها الهامس، وضحك بعمق وقبلها في عينيها، وهو يدرك أن لدى سهى فضولاً قاتلاً لمعرفة الأسرار، لكن النجمة ليست سراً خطيراً كما فكر. ومضت تقول أيضاً: أشهر وأنتم تحكون عن النجمة، وكنت وعدتني بكشف سرها ما أن نزيل الحواجز.

- النجمة شقة في حي البتاوين.

- ثم....عندكم تنظيم سري أو ميليشيا، أليس كذلك؟.

- أنت مجنونة، صعاليك مثلنا، وفي مثل هذه الظروف، لا يفكرون بتنظيمات أو ميليشيات.

- ماذا تفعلون هناك إذن؟.

- نجلس للسكر، ونناقش الأوضاع.

- والنساء؟.

- ليس هناك سوى أحلام، حبيبة صديقنا الشاعر. أحلام حبيبة علي محمد أمين. هي قحبة.

- هل صحيح أن علي يحبها؟. كتب لها إهداء على القصيدة.

- أكيد. كان ينتظرها يومياً أمام باب البناية.

١١

حدث هذا قبل أسبوع من اختطاف عمران المهندس، الإختطاف الذي وقع كالصاعقة على الجميع، فصحيح أن أيامهم متشابهة، ورتيبة، والموت يترصدهم، مثلما يترصد الجميع في بغداد، في كل زاوية ومحلة وبناية وسيارة، وفي كل دقيقة وساعة ويوم، غير أنهم كانوا مستسلمين لمصائرهم استسلام العاجز عن تغيير خارطة الأحداث في هذا البلد، وقد كتبت أكثر من مقالة حول ديوان علي محمد أمين، ليالي الباشق، كلها تشيد ببراعته في التقاط التفاصيل اليومية وقدرته على تأريخ الأحداث شعرياً واقترابه من هموم الإنسان العادي والبسيط، ذلك الإنسان الذي عاش حربين واكتوى بنار الحصار الإقتصادي ولم ير من حياته سوى الموت والخوف والتشرد والحنين، وقصيدة موت شارع خاصة أعجبت النقاد، وأشيد بها، فهي تستقرئ الحالة الروحية لذلك الشارع العتيق، شارع الرشيد، وصدى قصصه المعروفة بين أزقته ومقاهيه وحاناته في أيام عزها.

علي محمد أمين جعل الشارع أباه، ثم أخذ يستدعي تاريخه الممزوج بالأساطير والوشايات والنمائم، وهذه اللفتة في أنسنة الشارع هي ما جذب انتباه النقاد والأصدقاء والقراء. مكتبة أبو حسن في شارع

المتنبي اكتنزت بالكتب الجديدة، وكان زبائنه في أيام الجمع خاصة يزدحمون أمام المكتبة وهم يقلبون الكتب ويتعاملون ويشترون، ليميلوا بعدها إلى بائع الكبة الذي يقع محله في الزقاق المسقوف المعروف بسوق السراي. يتناولون هناك صحناً من الكبة البغدادية المشهورة. وضع علي محمد أمين عشرين نسخة من ديوانه في مكتبة أبو حسن. زاهر حسين حسب علاقته الجديدة مع سهى إبراهيم نافذة واسعة على دواخل المرأة العراقية التي فارقها هذه السنوات، وهو يجهل أحاسيسها، ومقالبها. وتقلبات أحوالها، وترددات روحها الخافتة، والنافذة تلك سرعان ما اختل قضاؤها، وغبش زجاجها، بعد ذلك الإتصال الصباحي الذي جاء في الجريدة وكانت الساعة العاشرة تقريباً، الإتصال الذي جعله يعيد حساباته مع نفسه، وغير حياته كلية بعد ذلك.

جاء من زوجة عمران، سميرة، قالت له فجأة ودون مقدمات: لقد اختطف عمران، كان خارجاً من مكتبه في حي الشرطة حين طوقت السيارة المارسيدس سيارتان غير معروفتين، وتم اقتياد عمران فوراً إلى جهة مجهولة، وترك الخاطفون السيارة وسط الشارع وفروا، حاولت الإتصال بعمران على الموبايل، الا أن الجهاز كان مغلقاً. عرفت أنه اختطف في اليوم الثاني حين لم يعد إلى البيت، واعتقدت أنه سافر إلى العائلة في منطقة جبّة القريبة من عنه، لكن لم يكن الأمر كذلك فقضت أتعس ليل في حياتها، وخرجت من حي المنصور منذ الصباح الباكر إلى المكتب، وبدأت بسؤال الناس القريبين، والجيران، عن زوجها، والوضع لا يسمح بالذهاب إلى الشرطة أو الأمن أو الأميركان، فمن يبالي باختطاف شخص أمام عشرات يموتون ويغتالون ويخطفون كل ساعة؟ وبمحض

الصدفة لمحت سيارة المرسيدس متوقفة على بعد أمتار من النفق، جانب الرصيف، وأخبرها أبناء المنطقة بالحادث تفصيلياً، وسميرة كانت تروي لزاهر حسين هذه التفاصيل وتبكي، وزاهر لا يعرف كيف يتصرف بموقف مثل هذا، كلمات المواساة لا تنفع، والمصير المرعب لعمران يصعب حتى التفكير فيه، فكيف لزوجته أن تحتمل الوضع؟ زاهر يجلس في الجريدة حين اتصلت سميرة، يجلس في غرفة القسم، وأنظار الجميع كانت مشدودة إلى فمه، ربيع المحمدي وعلي محمد أمين وسهى، ولبث الجميع واجمين، فمن خلال اسم عمران الذي كان يتردد في كلام زاهر أدرك الجالسون أن الحديث يدور عن عمران المهندس.

ترك الكل ما في أيديهم من أوراق، وتحولوا إلى عيون وآذان تتابع تعابير زاهر العكرة والخائفة، وكلماته المرتجفة الوجلة. أغلق زاهر الخط، ظل صامتاً لحظات، دون أن يرفع بصره عن التلفون الصغير نوع نوكيا الراقد بين أصابعه، والرغبة في العمل تلاشت من أرواحهم، وفكروا كلهم تقريباً، وفي الثانية ذاتها، بلا جدوى ما يقومون به، لا جدوى إصدار جريدة، وتحرير مقالات، ولا جدوى الفكر والثقافة والعلم حتى، في بلاد تعيش يومياً على دماء أبنائها، واختفت فرحة علي محمد أمين بصدور ديوانه الشعري الأول، وخطرت تفاصيل مكتب عمران على ذهن سهى وهي تسترجع المعركة العنيفة بين الأنوثة والذكورة، وكانت اللاجدوى تزهر مثل برق شتوي، وهذه الفكرة طالما رددوها في لحظات اليأس والكوارث والتفجيرات، سواء في نادي الأدباء أو في مقهى الشابندر في شارع المتنبي، أو في النجمة، كلما اجتمعوا وصادف وقوع حدث مروع. لا فائدة لشيء، فالحياة تنحدر إلى الأسفل، والأحلام السابقة

تكشفت عن أوهام طاغية، وهناك طرف مستفيد من ذلك الإنحدار، غير أنهم لم يتوصلوا إلى تحديده، فكل مرة يتحدد الطرف تستجد قرائن تزعزع البراهين وتشير إلى جهة ثانية، حتى فاجأهم عمران ذات يوم برأيه الغريب القائل إن جميع الأطراف مستفيدة من الخراب، وكانت حججه منطقية بعض الشيء، وكان هواء الشتاء بارداً في الخارج، وثمة قطرات مطر تتساقط على الزجاج وبدت النخلة المقابلة للغرفة حزينة هي الأخرى، وكأنها تشارك الموجودين حزنهم. ها هو واحد من الأصدقاء يقع في الفخ، فكر زاهر حسين وهو يقلب النظر بوجه سهى، ويتذكر أنفاسه المتلاحقة وهما يتضاجعان في مكتب عمران، بعد تلك الخلوة لم يتح لهما وقت للذهاب إلى هناك، يوصلها بين الحين والآخر بسيارته الأويل. ويداعبان بعضهما البعض خلسة عن انظار السيارات المارة. يختطف قبلة من خدها الأسمر. يمسد على صدرها العامر.

يدس يده بين فخذيها المكتنزين. يتنزهان في شارع السعدون وشارع الكرادة حتى حدود معسكر الرشيد. يمسك أصابعها المصبوغة الأظافر بالأحمر. يقبلها خلسة عن أعين السائقين الفضوليين. زاهر مقتنع أنه لا يستطيع إقامة علاقة عميقة مع سهى، فثمة خط أحمر لا يريد تجاوزه. لا يريد أن يعشقها، فالعشق يعني دمار حياته الزوجية، هو مرتبك بين اشتهائها وحبها، اشتهاء ذلك الجسد العامر بكل تفاصيله: المؤخرة السمراء الشبيهة بجبل بيره مكرون، والخد الواقف على الأنف كأنه تل. والفم الشهواني الذي يفيض بالدعوات، وصف ربيع صدر سهى بجبل حمرين ذات يوم مما أضحك الجميع، والسيناريو يحسه يتكرر مع النساء دون إرادته، ولا يعرف كيف يتسلل الزمن إلى روحه، وكان ذلك في سنة

من السنين البعيدة. في بلد آخر يقع في شمال الكرة الأرضية، كانت غرفته تقع في شقة تطل على بحر الشمال، من الطابق الثالث يستطيع أن يلمح البحر بوضوح، أمواجه الزرقاء التي تتغير بتغير الفصول وتغير حالة الطقس في الليل والنهار، يغيم الموج حين تختفي الشمس وراء الغيوم ويتحول لون الأمواج المتدافعة إلى الكحلي المائل إلى السواد.

وفي الصباح، حين تكون السماء صافية والشمس مشرقة يشف البحر حتى يتحول إلى لوحة رائقة مليئة بالخيالات، وكان اسمها آنا، من أحفاد الفايكنغ. آنا التي أحبها فور أن التقاها، التقاها في مشرب صغير يطل على حديقة واسعة ومكتظة الأشجار، آنا ذات عينين زرقاوين، خلاف عيني سهى السوداوين، لكنهما تتشابهان بالعمق وحدة التحديق، بعد أن استعرت النار في أجساد الراقصين، وتجاوزت الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل جاءت آنا وجلست قربه، وهي تحتسي البيرة التوبورغ وتدخن كثيراً. عيناها صافيتان مثل عيني ديك بري، وقصة شعرها قصيرة، ينسرح الشعر على أذنيها العاريين من الأقراط، لم تكن قصيرة ولا طويلة، ليست نحيفة ولا سمينة، بل هي من النوع الذي يميل إليه، تمتلك مؤخرة متناسقة تبرز من خلال بنطال الجينز الذي ترتديه، وفي البار أتراك وعرب ودانماركيون وإنكليز وباكستانيون، وهو يقع على ميناء أسبيا الذي ترتاده السفن دائماً. سفن من جميع أنحاء العالم.

الزمن يتسلل إليه وينقله عبر أمواجه إلى تلك المدينة الصغيرة الوادعة التي ظلت ولقرون تستقبل بحارة العالم، وتغذيهم بجعتها ونسائها ولحومها وجبنها المصنوع من حليب الماعز. أول مضاجعة لها

حدثت في البارك القريب من البار، وكانت الساعة الخامسة فجراً. لم تبقى في ذاكرته نظرتها الحادة وليالي الخريف التي كانا يسرقان فيها التفاح من البستان القريب من الشقة. ماتت آنا بالسرطان بعد سنين وكان هو في مدينة أخرى ومع نساء أخريات. لكن هل ماتت حقاً؟ فهو بعد هروبه لم يسمع عنها أي خبر. ما الذي جلبها إلى ذاكرته؟ في هذه الدقائق الحزينة؟ ربما لأنها كانت مثل سهى، تعشق جمع الأقراط من مختلف الحضارات، ولديها عشرات منها، وها هو انفجار آخر يهز البناية، وتطايرت شظايا من السقف الصناعي ووقف الجميع مذعورين. والإنفجار لا يتعدى ساحة النصر أو أبعد بقليل، بدأت بعده سيارات الشرطة تعول في شارع السعدون. تراءت لزاهر أجساد البشر ممزقة على أرضية الساحة، ونثار الحديد والخشب والبضاعة في المكان، أرسل بلمحة قصيرة عشرات البشر إلى السماء. اقترح علي محمد أمين على الجميع الذهاب إلى النجمة، بعد إنجاز الصفحات، فوافقوا كلهم، ولم تبد سهى أية بادرة تدل على أنها تعرف السر. سر نجمة البتاوين التي تحولت إلى محل اجتماع، وقصف، وشراب، وحوارات. اقترح علي محمد أمين أيضاً الإتصال بأبو حسن وإخباره باختطاف عمران، والطلب منه المجيء إلى النجمة للتداول حول الموضوع. ولم تبلغ الساعة الثانية بعد الظهر حتى كان الثلاثة خارج مبنى الجريدة، برفقة سهى.

أوصلوها إلى الشارع الرئيسي، وانتظروا حتى ركبت في الباص الصغير الذاهب الى معسكر الرشيد، ثم توجهوا، خفافاً، نحو نجمة البتاوين. وكان يوم آخر يمضي من حياتهم، وفي طقس معتاد يتشابه حتى أنه لا يختلف إلا في تفاصيل صغيرة يصعب إدراكها أو رؤيتها.

لكن هذه المرة كان عمران قد حذف من الجلسة. ولا يعرف أحد منهم من سيكون التالي. إما ذهن ربيع المحمدي فتفتق عن فكرة أعجبت زاهر ووافقه عليها. جاءت الفكرة في نهاية ذلك المساء الكئيب. مساء الشموع الموقدة على روح المختطف. اختطاف عمران تم من قبل مجرمين، ينفذون عملياتهم لمن يدفع أكثر. لذلك لابد أن نبحث عن أثره في بيئة المجرمين أولئك، أوضح المحمدي لزاهر وكانا يجلسان بعد أسبوع من الإختطاف، في الكافتيريا، وأمامهم الحديقة الخضراء بنخلاتها المثقلة بالتمر، وبيئة المجرمين في حي البتاوين، وفي المربعة، وأزقة الفضل، ودهاليز الكرخ التي ظلت تقلق الحكومة حتى هذا الوقت، وكان فوق رؤوسهم أثر الصاروخ الذي اخترق الجدار، وكان واضحاً، ملئت الفتحة بالإسمنت فترك برزخاً أسود يلوح من بين أغصان شجرة التوت الوارفة، والفرع المقصوف من الشجرة كان مكانه فارغاً، حيث اسودّ اللحاء وصار أشبه ببقعة من الزيت، وكانت أيامهم تسير بطيئة وكالحة مثل بزاق في أرض الحديقة، ويجب أن لا نفقد الأمل قال ربيع.

وكان الفلاح أبو شعبان يتسلق نخلة خستاوي في الزاوية، يؤبر كربها وسعفها وليفها بمنجل حاد كان صوته يتردد في الحديقة الهادئة. سنذهب إلى محل أبو جسام، قال ربيع لزاهر وهو يحرك ملعقته في استكان الشاي الذي أمامه، يجب ألا نفقد الأمل، سنطلب المساعدة من أبو جسام فهو يعرف زبائنه جيداً، وفي حوالي الساعة الثالثة عصراً كانا في المحل، ووجدا الكهرباء الوطنية مقطوعة لديه، وأبو جسام ترك الباب الخارجي مفتوحاً كي تدخل نسمة هواء نظيفة كما قال. خلف أبو جسام تصطف قناني المشروبات بأناقة، الجن والويسكي والعرق بأنواعه

والفودكا الروسية والبراندي والسينزانو، وغيرها من الأنواع غير المعروفة، في حين اصطفت على الرفوف يمين البار قناني البيرة، رائحة الكارميلا في البار تريح النفوس، وخلف الحاجز ترقد مجمدة المشروبات مكتظة بالعلب من كل صنف ونوع: توبورغ وكارلسبيرغ وبافاريه وهينيكن وأمستل، أبو جسام يجلبها حسب ما قال من مدينة عينكاوه القريبة من أربيل. وأبو جسام كما فهما أصوله من هناك، لكنه استقر في بغداد الجديدة منذ ثورة الزعيم عبد الكريم قاسم نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وبعد أن تصاعد العنف إثر انهيار الدولة ودخول القوات الأميركية، والهجوم على الكنائس ودور العبادة، أرسل أبو جسام عائلته إلى دمشق، وهم يعيشون في جرمانا، بينما ظل هو في بغداد يدير محله الصغير لبيع المشروبات، وسيلحق بهم في نهاية السنة كما ذكر لهما قبلئذ. الشغل لم يعد كالسابق، يومياً يتعرض للإبتزاز من قبل مختلف الجماعات، وحتى الشرطة، يطلبون خمسين ألف دينار بين فترة وأخرى لحمايته كما يقولون، عدا عن فظاظة الزبائن وكثير منهم من مجرمي حي البتاوين والكرادة ومنطقة الكرخ، والسكارى العابرين الذين يفتعلون المشاكل دون خوف من شرطة أو قانون، لذلك لم تعد هذه المهنة نافعة في بغداد، كما شرح لهم أكثر من مرة. كان أبو جسام (واسمه الحقيقي اصطيفان)، يعاملهم معاملة خاصة، عرف أنهم صحافيون ومثقفون يكتبون في الجرائد، وصار يميزهم عن الرواد الباقين، وهو يبوح لهم بأسرار الزبائن والمجرمين، ويحكي لهم قصصهم ونوادرهم التي استوحى منها علي محمد أمين ذات مرة قصائد برقية سماها صعاليك البتاوين، حوالي خمسين قصيدة، قرأ منها مقاطع في نجمة البتاوين

أعجبت عمران المهندس خاصة، ووعد علي محمد أمين بالتكفل بطبع الديوان الجديد في دمشق أو بيروت أو عمان.

همس ربيع لأبو جسام بقصة الإختطاف، وأين جرى، والمفاوضات الجارية حول الفدية، فيما كان زاهر يتبادل الحديث مع أحد الواقفين، الذي كان يشرب الجن ممزوجاً بالبيرة التوبورغ، جذبه لباسه وطريقة وقوفه ووجهه المريب وعينيه اللتين تحدقان في الوجوه بوقاحة، وحدثه الرجل عن حياته بجمل غامضة، فهو ابن شيخ من شيوخ سامراء كما قال، يمتلك والده ألف رأس غنم وكثير من البعارين، يهتم بها راع من المنطقة، وهم يمتلكون قصراً كبيراً في مدينة سامراء، إلا أنه يعيش في بغداد بسبب جريمة قتل ارتكبها ضد واحد من أبناء العشيرة. كان الرجل، واسمه فارس، يمزج قصته بآراء عن الأميركان وكيف خربوا البلد، والأيام الذهبية التي مرت في العهد السابق، يحتسي الكأس ويمج الدخان من سيكارته ويتحدث مع أبو جسام عن صبيحة الساكنة، كما قال، في بيت قريب من كورنيش أبو نؤاس. الشيخ فارس يرتدي دشداشة بيضاء ويعتمر غترة وعقالاً وينشر عباءة خفيفة من الصوف على كتفيه، كان يعدلها بين لحظة وأخرى، ولا يضحك أبداً رغم القفشات السريعة التي يطلقها أبو جسام بين حين وآخر.

يطلق قفشة سريعة ثم يعود إلى المحمدي مستمعاً، أو متكلماً حول موضوع عمران. فكر زاهر أن لهذا البدوي الذي يسمي نفسه فارس قصة غير التي ذكرها، حتى ملابسه البدوية غير متجانسة مع تعابير وجهه أو طريقة كلامه، فلهجة أهل سامراء قريبة بعض الشيء من لهجة البدو، وفارس يتكلم بنبرة بغدادية صرفة، كما أن كلامه ينم عن رأس متعلم،

راقب ذلك من خلال كلمات تفلت منه، كالشركات متعددة الجنسيات. والعولمة، والفضائيات، وعقلية الكابوي، وغيرها من كلمات ومصطلحات لا يمكن لعقل بدوي معرفتها أو استخدامها، ومن خلال هلوسات الرجل فهم أن صبيحة التي ذكرها كانت تشتغل ذات يوم في ملهى ليالي الصفا، وبعد تغير الأحوال تحولت إلى قوادة، متخفية، نادراً ما تنزل إلى الشارع، فهي يمكن أن تقتل بسهولة في هذه الأيام. وفجأة انتقل البدوي إلى موضوع أميركا، قال إنها جاءت إلينا طمعاً بالنفط. وهي لم تأت من أجل سواد عيوننا، ما هذه الديمقراطية القادمة على جنازير آلاف الدبابات ومئات الطائرات ومئات آلاف الجنود!! طبعاً جلبت معها الخونة والعملاء ليحكمونا، وانظر الآن ماذا فعلوا بنا، الكهربا، الوطنية صفر، الجثث تعبئ الشوارع، المياه ملوثة بالبراز، والنفط يسرق. والشوارع مخربة، والقنابل تتطاير فوق رؤوسنا مثل السكاكر، حلّوا الجيش والشرطة ورفسوا الآلاف في أقفيتهم إلى الشارع، حتى أصبح الواحد منا يخشى مغادرة البيت، وملايين هاجروا إلى الخارج.

لم يعد في العراق وطنيون، آخر وطني في العراق كان صداء حسين، وهو يقبع في زنزانته لدى الأميركان، ثم فترة من الصمت. والصمت يختبر النوايا، ولم يرغب زاهر بالرد على كلام الرجل، أحس إن الكلام معه مضيعة للوقت، فرأسه محشو حتى العظم بالماضي الذي يسميه ذهبياً، وهذا النمط من البشر لا يمكن أن تغيّره الكلمات والحجج. التجربة فقط كفيلة بذلك. غادر أبو جسام البار ودخل إلى المقصورة الداخلية الضيقة، المحشوة بالصناديق الفارغة، وقناني العرق، وثلاجة عتيقة تحول لونها إلى الأصفر من الغبار والوسخ وبراز الذباب، وثمة

ملابس عتيقة معلقة في الجدار الداخلي، وصور لأم كلثوم وعفيفة اسكندر وأنوار عبد الوهاب، ومروحة تتدلى صانتة من السقف.

- أين تسكن أسرتك في جرمانا؟ سأل زاهر أبو جسام.

- قرب ساحة الرئيس. زرتهم في صيف العام الماضي.

- أنا سكنت في جرمانا قبل أربع سنين أيضاً.

- هناك الحياة لا هنا. الناس تسهر في الشوارع حتى الصباح. تلبس ما ترغب فيه، وتشرب دون خوف، والكهربا، لا تنقطع بتاتاً.

- ماذا تنوي العمل هناك؟

- سأفتح باراً صغيراً كما أفعل هنا. رأيت مئات المحلات العراقية في جرمانا. تحس وكأن بغداد انتقلت إلى هناك. هذه من بركات الأميركان.

محل أبو جسام يقع في منتصف شارع فرعي يربط شارع أبو نؤاس بشارع السعدون، أمام المحل أبنية سكنية عتيقة، نادراً ما يدخلها أحد، وكان المارة قليلين في هذه الساعة، وعينا أبو جسام تغزلان بين المارة في الشارع، والزبائن، عيناه ضيقتان وقلقتان، وجهه مخدد من العمر الثقيل، وقامته قصيرة، ويضحك باقتصاد حتى لأعتى النكات. أخبر زاهر وربيع عن حقيقة البدوي بعد أن دفع الأخير حسابه وخرج من الباب، قال إنه واحد من العصابة، لا شيخ هو ولا هم يحزنون، هو من حرامية الفضل، ويتنكر بزي بدوي لكي يقع على الفرصة المناسبة، فسأله زاهر عما يقصده بالفرصة المناسبة، قال: تسليب سيارة جديدة من صاحبها، أو سرقة حقيبة غفل عنها مسافر ما، أو التعرف على عاهرة من عاهرات البتاوين والتقويد عليها، هو يأتي يومياً إلى المحل، يتشمم الأخبار،

يسكر ثم يمضي، ثم نط أبو جسام بغتة من وراء البار وخرج إلى الشارع وصاح على امرأة تسير في الرصيف المقابل، ترتدي عباءة سوداء وتبدو في منتصف العمر، نادى عليها فعبرت الشارع نحو أبو جسام، وبدآ يتهامسان للحظات.

عاد أبو جسام وطلب من زاهر وربيع مرافقتها إلى بيت أبو شلال فهو يمكن أن يقدم لهما معلومات عن خاطفي عمران. سيروا وراءها على بعد عشرة أمتار لكي لا تجذبوا الأنظار. البيت قريب، هي ستعرف الرجل بكما. أنتما من طرفي. يجب أن أغلق المحل وأغادر لقد تأخرت وأبناء الحرام كثيرون وإلا رافقتكما بنفسي. العصر متأخر، وبدأ المارة في شارع السعدون وأبو نؤاس يتناقصون تدريجياً، وكانت صبيحة كلما سارت بضع خطوات تلتفت وراءها لتتأكد من وجودهما، وقبل نهاية الشارع المطل على مياه دجلة دخلت باب بناية عتيقة وتركت الباب مفتوحاً، وكان الدرج معتماً، ولكن أصوات الأقدام مسموعة بوضوح. تبعا الأصوات تلك بسرعة، وفي طابق من الطوابق ألفيا الباب مفتوحاً فدخلا، وكانت صبيحة تقف في نهاية الممر، الذي تنفتح عليه غرف عديدة، وشعرا بالخوف، فهذه الأماكن موبوءة، يمكن أن يحدث فيها كل ما لا يخطر على البال من الجرائم، غير أنهما كانا يثقان بأبو جسام. معظم الغرف كانت معتمة، وبعضها مغلق دون أي حركة، ورائحة الدهليز عفنة، رائحة مني متفسخ وعرق أجساد، وبصل مكمور، عدا عن ذبذبات خوف تنبعث من الممر والدهاليز والغرف والعتمة. قادتهما إلى غرفة كبيرة أشبه بصالون استقبال، وقالت بصوت عال: يسألان عن أبو شلال، وكان الصالون كئيباً ورائحته عفنة هي الأخرى، خليط من بقاي

الطعام والدخان والجوارب الوسخة، وكانت هناك امرأة عجوز تجلس على أريكة ذات منظر غير مألوف، تضع لحافاً من الصوف على جسدها يصل حتى كتفيها، وشدت شعرها بمنديل أزرق فبان وجهها ضخماً ضخامة غير طبيعية.

كانت تأكل الكبة من صحن أمامها موضوع على طاولة خشب متسخة ينتشر عليها فتاة الصمون ورأس بصل مفتوح وكأس ماء من الزجاج، خلفها على الجدران صور لمطربين قدماء أبرزهم ناظم الغزالي ويوسف عمر وعفيفة اسكندر وأم كلثوم. إما صبيحة فجلست بعد أن أزاحت عباءتها عنها على كرسي خشبي قرب الباب، وقالت لهما إن كانا يرغبان في الونسة فهي جاهزة، خمسة آلاف لكل مرة، فرد ربيع بابتسامة ساخرة قائلاً: سلمتي لكننا جئنا لغرض آخر كما قال لك أبو جسام، صديقنا عمران اختطف قبل فترة ونحن نحاول البحث عنه، وجئنا نسأل أبو شلال إن كان يمكنه مساعدتنا. أبو جسام هو الذي أوصانا بالمجيء إلى هنا. كانت أم شلال تأكل بصمت وبطء، دون أن ترفع عينيها عن ملعقة الأكل، وجهها الضخم خال من التجاعيد وخال من المشاعر في الوقت ذاته، بهدوء تغرف قطعة من الكبة سابحة في المرقة الخضراء المتبلة، وتزدردها بفم نهم، ثم تلحق قطعة صمون صغيرة وراءها، وهي لم تدعوهما للجلوس فبقيا واقفين.

بعد ثلاث دقائق أبعدت الصحن من أمامها، ورفعت عينيها السوداوين الواسعتين الشبيهتين بعيني رجل وقالت:

- أين اختطف صاحبكما؟

- في شارع الربيع.

- أبو شلال لا يذهب إلى تلك المنطقة. هو غير موجود الآن، عادة يجلس في قهوة الشابندر قرب السراي. هل تعرفان قهوة الشابندر؟

- نعم نعرفها جيداً.

- اسألا عنه هناك بعد الظهر. ربما يفيدكما بشيء.

قالت ذلك وتمددت على الأريكة وسحبت الغطاء على جسدها، وفهم زاهر وعلي أن المقابلة انتهت فخرجا، ولكن الأمل في العثور على أبو شلال في قهوة الشابندر لم يتلاش من رأسيهما، ومن وراء أشجار البوكالبتوس كانت أمواج دجلة تتأرجح بين الكرخ والرصافة، وتدحرجت فوقها ذرذرات الأشعة المذهبة وهي تنسحب خلف بساتين العطيفية وقباب موسى الكاظم وواجهات بيوت الضفاف. خيالات بعيدة لشرطة تتماهى مع زوايا الجدران وأسيجة البيوت، الكلاب السائبة شرعت بالحركة بعد أن توارى البشر، وفكر زاهر أن مئات الحكايات ستبتدئ بالتشكل ما أن يحل الليل، سيقتل من يقتل، ويختطف من يختطف. ويتآمر من يتآمر في غرف مظلمة في الأحياء النائية، ما أن دخلت الجيوش حتى تفجر بركان القصص والحكايات، من الدهاليز والضواحي والقرى والملاجئ السرية والمدن السفلية كأن تلك القصص والحكايات ظلت حبيسة هناك، تحت الطبقات الصخرية لهذه الأرض التي تنفرش حول نهرين وجبلين وصحرائين وكثير من الأهوار والسواقي، وقبل أن يفترقا عند ساحة التحرير، قال زاهر لربيع فجأة:

- فكرتك التي قلتها في شقة النجمة عن مركز وطني لجمع القصص أعجبتني. لكن كيف يمكن تنفيذها؟

- سهلة. بناية ضخمة تتكون من غرف بعدد المحافظات. في كل غرفة أجهزة تسجيل وتصوير وكومبيوترات وموظفون مختصون.

- وما الفائدة من كل ذلك؟

- يدخل كل من يملك قصة إلى المركز ويحكي قصته. البغدادي يدخل إلى غرفة بغداد ويسرد حكايته، والبصري يدخل إلى غرفة البصرة، والتكريتي والكركوكي والسماوي، وهكذا.

- وما الهدف من وراء ذلك؟

- حين تسجل القصص على سيديات يقوم مختصون بنقلها على الكومبيوتر والورق ثم تخزن. خلال سنة من التدوين سيكون لدينا أرشيف ضخم للذاكرة العراقية حول العشرين سنة الأخيرة.

- مشروع هائل وهل فكرت له بتسمية؟ أعني الأرشيف؟

- ألف حرب وحرب، مثل ألف ليلة وليلة. أراهن أن هذا الأرشيف سيحصل على جائزة نوبل للسلام، أو الأدب، لا فرق. لكن الكاتب هذه المرة هو شعب وليس شخصاً معيناً. مثل ألف ليلة وليلة، سحرت العالم لكن لا أحد يعرف مؤلفها.

- أو على الأقل تكون مادة جاهزة للقصاصين والروائيين عندنا. فكرة ثمينة جداً.

١٢

الليلة التي أعقبت تلك الزيارة، ونزل فيها مطر غريب، لم تعهده بغداد منذ الشتاء الماضي، نوى ربيع المحمدي أن يجد أبو شلال في مقهى الشابندر حتى لو اضطر إلى النوم هناك، وكانت الليلة الممطرة كنست الذباب من المزابل، وأشاعت رطوبة في أشجار الساحات، وأوحت بتحولات مرتقبة، هي ليلة قضاها ربيع في توسيع فكرته حول المركز الوطني لجمع القصص، استهلك في كتابتها نصف دفتره الأسود، ولم يفض بيتهم بالماء كما حدث سابقاً، وكانت التماعات البرق تكشف العمارات البعيدة، وهزيم الرعد يصم الآذان ويختلط مع صوت الطلقات النارية النائية، واستمر هطول المطر طوال الليل. إن خير ما يكشف حقيقة المدن الشرقية هو المطر، حيث تتعرى المدينة وتنكشف عوراتها، تسفر المجاري عن خللها، وتعج الشوارع والأزقة بوحلها ونفاياتها، وتتهدم البيوت العتيقة على قاطنيها، أو على العابرين قربها، وهذا ما قاله زاهر حرفياً لربيع المحمدي معلقاً عبر تلفونه الموبايل وهو يهاتفه، وسيكون هذا الحادث موضوعاً لعموده القادم في الصفحة الأخيرة، وكان كلاهما يراقبان المطر في الليل، ربيع من تحت دالية العنب في بيته، وزاهر حسين عبر الشباك العريض في مشتمل شارع فلسطين، وكان واقفاً

ينظر إلى نخيل جارهم المقابل، ووقع المطر ينشر سلاماً ناعماً على أفق بغداد. ورغم أن المطر توقف منذ الفجر، إلا أن آثاره في الشوارع والأزقة بقيت موجودة.

لاحظها المحمدي وهو يترك الشارع الأول لمنطقة الشيخ عمر. ويتوغل في مناطق الشارع الثاني وأزقته ودروبه. لم يكن هناك نظام واضح لتلك الأزقة، فهي تتلوى بين البيوت على هواها. تنسد فجأة أمام المرء فيضطر إلى العودة ثانية إلى نقطة البداية. ما لفت نظره في تلك المناطق كثرة الصبيان، يتخذون من تلك الأزقة الموحلة مكاناً للعب. الموت والولادة، النهم للأكل والخوف من النسيان، أزقة تخضع لقانون الغريزة الأبدي، وطراز البناء متشابه تقريباً، وجميع البيوت مبنية من الطابوق الأصفر، وميزة الطابوق، وهو آجر مفخور في درجات حرارية عالية، كما كتب الباحث في تاريخ بغداد محمود العبطة، أنه يعزل الحرارة في الصيف والبرودة في الشتاء، فتبقى الحرارة داخل البيت مقبولة. ومنطقة "الفضل" كما عرفها المحمدي منذ طفولته، تتكون من أحياء صغيرة، منها "الكولات" و"قنبر علي" و"المهدية" و"التوراة"، أبنية تلك الأحياء تعطي صورة عن شخصية البغدادي في القرون الماضيات. تقوقع على تقاليد المحلة، والأعراف الإجتماعية الراسخة، ونكوص إلى داخل الذات، وخوف من الغريب والوافد والجديد، ومثل معظم أبناء المدن الشرقية العريقة، تبقى شخصية البغدادي ميّالة إلى الريبة والمحافظة.

عند الإنعطاف من زقاق الجامع انفتحت للمحمدي ساحة واسعة تكونت بفعل اندراس البيوت، في الوسط محلة التوراة، محلة شاسعة من البيوت المتروكة ذات البناء البغدادي التقليدي، كان يقطنها اليهود

حتى سنة تهجيرهم في منتصف القرن العشرين، مشربيات وشبابيك خشبية تكشف عن فراغ تلك البيوت، وراوده إحساس أن ثمة يهودياً، بقلنسوته السوداء، وردائه الطويل، سينط عليه من خلال أحد الأقبية التي تضم كتلاً من ظلام التاريخ، ساسون، وحزقيل، ولوقا، ينظرون إليه، ربما، من خلال خشب النوافذ المعتمة، والمدرسة ما زالت قائمة، يظنها المرء في البداية كنيساً يهودياً، حيث ضخامة البناء لا تتناسب مع حارات الفضل المتواضعة، ولصقت على جدارها الأمامي صورة لرجل دين، وعلى ما يبدو يصعب على شخص دخيل على المنطقة فهم الروابط الخفية بين القاطنين. قال له أبو حسن الخبير هو الآخر بأحوال بغداد إن اليهود باعوا بيوتهم بأثمان بخسة ورحلوا، والبعض ترك فيها معارف على أمل العودة السريعة بعد أن تهدأ الأوضاع، وكان ذلك في نهاية الأربعينيات، لكن أوضاع بغداد لم تهدأ، ولن تهدأ، ولا يلمس المرء اليوم أي دلائل تشير إلى شيء يهودي، فخمسون سنة من الهجرة، أو يزيد، أغلقت المكان على ذلك التاريخ العتيق، فاندرس بين المشربيات والقضبان والخشب المزخرف الذي يكشف أبهة سابقة لقرن مضى.

وتاريخ الفضل يعرفه المحمدي كما يعرف خطوط راحته، المدرسة المتوسطة في الفضل أكمل دراسته فيها، وله معارف بالعشرات، و"الفضل"، وحتى اليوم، بعد التغيرات الدراماتيكية التي جرت تحت الجسر ومرت خفافاً، تحتفظ بمسافة بعيدة عن التيارات الدينية الجديدة. واعتبرت منطقة الفضل سابقاً، مكاناً ملائماً للأوكار الحزبية، إذ يصعب دخول أزقتها لغير أهلها والناشئين فيها. الجدران، العجائز والأبواب والطين العتيق وأسطح البيوت وسقائف الحمام الداجن، لها حكايات عن

تلك الأيام، وسطوح بيوت الفضل تنفذ واحدها إلى الأخرى كأنها خارطة رسمها طفل صغير...

- هلو ربيع، أين أنت؟ قالت سهى من الجريدة عبر الموبايل.

- أنا في الفضل ومتجه إلى شارع المتنبي.

- جيد، فالأستاذ سعيد عبد الكريم مهتم بالتحقيق أيضاً، جاء قبل ربع ساعة وسأل عن الموضوع. زاهر لم يصل الجريدة حتى الآن. أنا قلقة عليه.

- التحقيق سيجهز اليوم وسوف أسلمه لزاهر غداً. تحياتي.

فكر ربيع أن تحقيقه القادم سيكون عن هذه المحلة وحكاياتها. هناك حكايات ما زالت المقاهي المتناثرة بين البيوت تتحدث عنها. قصص الفتوات واليهود والأحزاب والمظاهرات، وقصص الغرام التي كانت السطوح ترويها. وفوق المحلات، وعلى جدران البيوت المخدة بأسلاك الكهربا ء، تركت مسائل المياه لمطر البارحة مزقاً من صور المرشحين في الإنتخابات الأخيرة، تلك الوجوه التي سينساها أبناء "الفضل" للأربع سنوات القادمة، وبعض رواد "مقهى حسين المختار" الذي احتسى فيه المحمدي استكان شاي ثقيل، قال إن "الفضل" لم تطأها قدم مسؤول منذ عشرات السنين، ربما منذ الحرب مع إيران. تخوت من الخشب الأحمر تعود إلى الخمسينيات، وملصقات على الجدران لفرق رياضية من أيام الملك فيصل الثاني.

وفي نهاية المقهى ينتصب السماور وأباريق الشاي، وثبتت على الجدران آيات قرآنية وصور لمثلات متن قبل عقود، واستغرب المحمدي من وجود صورة قديمة للمطربة أنوار عبد الوهاب فوق سماور الشاي

بالضبط. يجلس شيوخ محلة الفضل في هذا المقهى يومياً، يتداولون في شؤون الإحتلال الأميركي، والتكفير، والمقاومة، والإرهاب، والكهربا ء، والفساد الذي ينخر في جسد الدولة، والإغتيالات، ترصد ملايين الدولارات لتبليط الطرق وتحسين المجاري وتصليح المحولات الكهربائية لكنها تسرق فوراً، ارتفع الذليل إلى أعلى المراتب وتهاوى النبيل أو قتل، واختلط الحابل بالنابل، وفقدت بغداد عزها، وكان هذا حديث جميع من في المقهى. رئيس المجلس البلدي علق اعلاناً مكتوباً بخط اليد، حول تسجيل العوائل المعدمة لدى البلدية، من أجل الحصول على المساعدات من الدولة، ورئيس بلدية ولا يملك ثمن شراء كومبيوتر؟

راود ذهن ربيع ذلك وهو يقرأ الإعلان، ويذكر في بعض الأساطير أن هناك مدناً تخفي نفسها بذكاء، مثل الحشرات تماماً، والحيلة بسيطة، وهي أن تبني نسخة أخرى منها تحت الأرض، وهذا ما كانت عليه منطقة "الفضل"، فما ينتأ عن الشوارع لا يشي بالهوية كلها، وما اجتازه المحمدي لا يعدو أن يكون الجزء الظاهر منها، أما الجزء المخفي فهو دهاليز وحوانيت ومعامل صغيرة وسراديب، وأحياناً بيوت دعارة، ومن تلك العتمات تخرج مهود أطفال خشبية، وأسرّة للعرسان، وأرائك لصالونات بعيدة عن هذه المنطقة البائسة، وأكياس خيش تُعبّأ بالطحين والقمح والسكر، هذا عدا عن السراديب المخصصة لخياطة الملابس. ويغذي المدينة السفلية تلك أصحابُ العربات التي تجرها الأحصنة أو الحمير، وهي توزع الغاز والنفط والبنزين والكاز، هذا الوجود الحيواني، في وسط عاصمة الرشيد، يعطيها هيئة مدينة لم يمض على غزوها المغولي سوى سنوات، مما دعا ربيع إلى التفكير وهو يقترب من شارع

الرشيد الذي سيقوده إلى شارع المتنبي: ما الذي تغير في حياة أبناء هذه الأصقاع اليوم؟ هم محكومون بالشقاء الأبدي على ما يبدو، يولدون في القاع ويموتون فيه، تلزمهم سنين ضوئية للحاق بركب الحضارة.

هل يدركون أن ثمة حياة أخرى غير هذه التي يحيونها؟ هل يعرفون بمدن تسمى لاس فيغاس وكوبنهاغن وطوكيو وباريس وروتردام وروما وتورنتو وسيدني؟ بدأت الأزقة تتسع قليلاً قليلاً، ولاح عند الزاوية سيل السيارات يتحرك في شارع الجمهورية، فمحلة الفضل تنسحب وراءه إلى نسختها الثانية، إلى قاعها المغولي، هناك حيث يتوالد البشر ويعيشون ثم يموتون، بعيداً عن الشمس، وفي إنعطافة جديدة لمح تمثال الرصافي ينتأ من قاعدته كأنه إصبع عملاق، إنه يقترب من الهدف، آثار الإنفجار السابق تجلت في البلاطات السود، وبقايا الحديد المتناثر قرب التمثال ورائحة بارود خفيفة، وهنا وقف هو وزاهر ذات يوم لتأمل الإنفجار، انعطف إلى اليسار نحو شارع المتنبي، مخلفاً وراءه ضجة شارع الرشيد وفوضى الباعة والحمالين، ليجد أمامه فوضى أشد وضجة تصم الآذان اليوم هو يوم الجمعة، اليوم الذهبي في شارع المتنبي. المخطط واضح في رأسه، كما اتفق مع زاهر حسين. التحقيق حول الشارع ينبغي أن يكون مركزاً وكثيفاً يصلح للصفحة الأخيرة، مع صورة أو صورتين توضع مع التحقيق. وهما موجودتان مع مصور الجريدة نزار، المهووس بالتصوير.

مقهى الشابندر واحد من المحاور المهمة في التحقيق، مكتبة أبو حسن الصغيرة، مكتبة صديقه أبو ربيع الذي كان أرشيفاً حياً للشارع. ومشاهدات عامة لتحولات الشارع بعد أن تم إسقاط الدولة ومجيء القوات الأميركية إلى البلد. حين تناقش هو وزاهر في الجريدة حول

التحقيق طلبت سهى إبراهيم مرافقته إلا أنه تملص من قبول طلبها بسبب الظروف الأمنية والدينية، سهى متحررة وسافرة، ويمكن أن تخلق له مشاكل في الشارع هو في غنى عنها، ولن يستغرب إذا ما هوجما من قبل بعض المتزمتين، أو على الأقل يسمعان كلاماً غير لائق. تركهما البارحة هي وزاهر حسين وحيدين في الغرفة، وغادر إلى مشرب الإتحاد، حيث قضى مع علي محمد أمين وأبو حسن عصرية جميلة مليئة بالخمرة والمصارحات الوجدانية امتدت حتى التاسعة مساء، يتذكر أنه واصل شربه في البيت، وضاجع زوجته سعاد، ثم طردها إلى غرفة نومهما، بعد أن أبدت رغبتها في قضاء الليلة معه، وظل وحيداً في غرفة الضيوف يدون في مخطوطته السرية ما استجد لديه من أفكار عن عالم الإستمناء. لم يعد يتذكر بالضبط ما دوّنه البارحة.

وقرر أن يعود إلى ما كتبه بعد رجوعه إلى البيت، رغم أنه لا يراجع ما كتب في تلك المخطوطة. هناك موضوع الدجاج، وموضوع السمك، وأخيراً موضوع الإستمناء الذي كلما اتسع اهتمامه به يجد فيه زوايا جديدة للنظر. سيكتب أيضاً عن عاهرات البتاوين وأفلام البورنو التي تباع تحت جدارية فائق حسن ومخطوطات شارع المتنبي المخبأة في المخازن الصغيرة وراء المكتبات، وسيراجع بدقة وتفصيل ما كتبه عن مشروع المركز الوطني للقصص، قد يتمكن مستقبلاً من تأليف كتاب عن هذه المواضيع، يسميه كتاب الأسرار، مواضيعه لم يتطرق لها أحد من قبل، سيباع هنا في شارع المتنبي بالتأكيد. شارع المتنبي عاش تحولات هائلة خلال السنتين الأخيرتين، مثل رواده المجانين الذين يأتون اليه من كل المدن. واحد من التحولات الهائلة في حياة الشارع هو بداية اختفاء

الكتب المستنسخة، وكانت رائجة طوال عقدين من الزمن تقريباً، يمكن الوصول إلى أي كتاب يصدر في العالم العربي عبر الإستنساخ، ليكون سلعة تباع هنا سواء بسرية أو علنية في أروقة الشارع ومكتباته وغرفه. كانت عربات الشلغم يتصاعد منها البخار، ورائحة الشلغم المسلوق مع الدبس أو التمر تسيح في فضاء الشارع، وتغري المعدة بطلب القرص ذي اللون الأحمر مثل شفتي سهى. علاقة الكاتب بالشلغم، موضوع حساس سيتناوله بالتفصيل في دفتره السري، مثلما تناول فضل الدجاج على البشر في فصل ممتع جداً، وحداثي، كما وجده في آخر مرة قرأه فيه. والشلغم، أو اللفت، كما تقول اللغة الفصحى، يتحول إلى أكلة شهية في الشتاء، خاصة في شارع المتنبي. يعشقه الكتاب والشعراء بسبب لونه الشبيه بلون الكهرمان، وهو لون شفاه النساء، وفروجهن.

لم يجد أكلة الشلغم هذه سوى في العراق، طعمه السكري يضخ الطاقة في الجسد، ويبعث على الحبور. البخار المتصاعد من قدر الطبخ. يوحي بالحرارة والدفء أثناء البرودة التي يشيعها شتاء بغداد، القارس بعض الأحيان، خاصة إذا غابت الشمس، وغطت الغيوم السماء من الأعظمية حتى محيط شارع السعدون، هو اكتظاظ غير معقول لاحظه ربيع في الشارع، فثمة شباب وشيوخ، أطفال ونساء محجبات، حمالون ومثقفون، عمال وزائرون، سواح ومقيمون، رآهم يتدافعون في الشارع. يدورون حول الكتب، أو يمرقون بين الأجساد غاذين السير إلى مقهى الشابندر، أو كبة السراي الشهيرة الواقعة في مدخل السوق. ما يذهله في شارع المتنبي أنه كل أسبوع يجد فيه شيئاً جديداً، ألف زيارة الشارع كل يوم جمعة، وهو اليوم الذهبي، حيث يلتقي فيه باعة الكتب

والباحثون عن الكتب النادرة والمخطوطات والإصدارات الجديدة، يلتقي فيه الوافدون من المحافظات لكي يتسوقوا حاجتهم من قواميس ومعاجم وكتب دينية وأدبية وكتب مدرسية ودفاتر ومحابر وأقلام وكراسات، ومن يأتي من الخارج فلابد له من المجيء إلى مقهى الشابندر وشارع المتنبي لكي يلتقي بمعارفه القدامى أو يتعرف على وجوه الثقافة في البلد، صحافيون أجانب، وباحثون، ومجرمون، ووجوه تبدو أحياناً مريبة تتسكع دون غرض معروف، وجاءت فكرة التحقيق بعد أن رأى سعيد عبد الكريم تحقيقاً شيقاً عنه بثته قناة الحرة التي افتتحت لها مكتباً في بغداد.

ومرة التقى المحمدي بواحد من أصدقائه القدامى الذين زاملوه في طرابلس الليبية وانقطعت أخباره خمس سنوات. وجده متربعاً على تخت من تخوت مقهى الشابندر وهو يدخن التنباك بلذة، يحتسي كأس الشاي الثقيل محدقاً مثل سندباد بري بالمارة في الشارع، ذلك الشخص يدرّس معهداً هندسياً أصول الرياضيات، والملاحظة الثانية التي سجلها ربيع عن الشارع، ودونها في عقله، وقرر أن يدسها في التحقيق، هي خلو الشارع من النساء، اللهم إلا المحجبات العجائز القادمات فعلاً لشراء لوازم مدرسية لأولادهن أو أحفادهن. الشارع يكتظ بالذكور فقط، الذكور الخشنون، غير المهندمين، القساة التعابير. عطر المرأة، ورنة كعبيها الناقرين لأسفلت الشارع، وخصلات شعرها المتطايرة، وهزة أردافها وخفر عينيها وحركة حواجبها، مفقود في هذه الصباحية من صباحيات الشارع، أين هربت نساء بغداد الجميلات ومتمرداتها وعاهراتها، وكن قبل عقود يزيّن الشوارع كما زهور النرجس في ربيع

مبكراً، مفهوم: العمائم تطارد الجميلات، عنوان التحقيق سيكون منسجماً مع المرحلة: العمائم تطارد الجميلات، عنوان خطر لن يوافق عليه سعيد عبد الكريم بالتأكيد، فالعمائم هي التي تدير السلطة بالتعاون مع المارينز، وهذا ما أدهش ربيع المحمدي أيما إدهاش، وناقش الموضوع مع الشلة في بار أبو جسام وشقة النجمة ونادي الأدباء.

شق طريقه بين الحشود متأملاً في وجوه البشر علّه يتعرف على أحد ما، وظل سائراً حتى وصل مدخل سوق السراي، وانعطف إلى اليمين ووقف يتفرج على مطعم كبة السراي، وكانت رائحة البهارات تطغى على فضاء الشارع وتسيل نحو مقهى الشابندر، فأحس بالجوع وقرر أن يدخل إلى المطعم، كان المطعم صغيراً يكتظ بالواقفين داخله وهم ينكبون على صحون صغيرة تسبح فيها الكبب من مختلف الأحجام، كبة صغيرة بسبعمئة وخمسين ديناراً مع رغيف خبز ساخن أو صمونة بيضاء، كبة وسط بألف دينار، كبة كبيرة بألف وخمسمئة دينار، ويمكن للشخص استهلاك ما يرغب من الخبز، وأمام المحل كان هناك أشخاص كثيرون يأكلون بلذة وهم يتطلعون في الرائحين والغادين. طلب كبة صغيرة مع صمونة ووقف منتظراً دوره. هنا يختلط الأدباء بالعامة، فالطعام لا يفرق بين متعلم وجاهل كما فكر، والأذواق متباينة. لون مرقة الكبة أصفر، يختلط بعصير من الكاري والفلفل والبصل، وهذا ما يعطي لهذه الأكلة نكهتها. أنهى فطوره ومال إلى مقهى الشابندر واحتسى كأساً من الشاي الثقيل، وراودته الرغبة بتدخين التنباك لكنه أجّل ذلك إلى ما بعد جولته في الشارع. دفع ثمن الشاي وعاد للغوص في كتلة البشر المتدافعة أو المتوقفة أمام الكتب، سواء في الواجهات أو على الأرصفة.

وشاهد أبو حسن داخل المكتبة فانعطف إليه ووقف جنب المدخل الصغير منتظراً انتهاءه من الحديث مع أحد الزبائن، وسأله أبو حسن عن أخبار الشلة فقال له ربيع إن زاهر وعلي محمد في الجريدة حتماً، وهو سيقضي الساعات القادمة في شارع المتنبي كي ينهي التحقيق هذا اليوم.

- ما هي أخبار عمران المهندس؟

- طلب الخاطفون فدية مئة ألف دولار. اتصلوا بزاهر حول ذلك.

- كيف عرفوا بتلفون زاهر؟.

- يبدو أنه كان في ذاكرة الموبايل.

- هذا أمر خطير. سيشكل خطورة على زاهر. لا تنس أن لديه طفلاً ووضعه خاص.

- زاهر متوجس من القضية وهو خائف كما أخبرني.

- يجب أخذ الأمور بجدية. فهؤلاء المجرمون لا يؤتمنون.

- كيف هي حركة الشارع اليوم؟.

- جيدة جداً، لكنني غير مطمئن.

- لماذا؟.

- أحس وكأن وجوهاً غريبة تتآمر على عمل شيء ما في الشارع. شيء غامض لا أعرف ما هو.

- تفاءل يا أبو حسن، الدنيا بخير. هذا هو شارع المتنبي منذ أن خلق. ضجيج وفوضى وكتب.

- أين ستذهب الآن؟.

- سأقابل أبو ربيع وكريم وحيدر لأستطلع أخبار حركة الكتب المستنسخة، وقد أعود إلى مقهى الشابندر لأدخن التنباك العجمي، وأسأل عن أبو شلال.

- أبو شلال البلطجي، هذا معروف في حي البتاوين، كان يشتغل في ملهى ليالي الصفا في السبعينيات.

- قالت امرأته إنه يلتقي هنا في مقهى الشابندر.

- بعد ذلك أين تكمل النهار؟

- أمامنا ثلاثة خيارات، إما محل أبو جسام أو النادي أو النجمة. ما الذي تفضله أنت؟

- أفضل النادي، ربما نجد الأصدقاء هناك. أبو جسام يغلق مبكراً في الجمعة، وشقة النجمة أصبحت خطرة. قد تكون مرصودة من جهة ما.

- سأنهي جولتي وأتصل بك تلفونياً حول البرنامج.

لم يلحظ المحمدي ما يريب في شارع المتنبي، أبو حسن يتوهم فقط، عربات اللبلبي والشلغم في عرض الشارع كعادتها، يتجمع حولها الآكلون، تغطيهم الأبخرة الساخنة، العربات اليدوية التي يجرها الشباب والمراهقون مليئة برزم الأقلام والورق والكتب والجلود والكتب المصورة. الأختام تتناثر فوق بسطات القماش على الأرض، وسيارات قليلة جداً مركونة على جانبي الشارع، ويقع المياه الآسنة تتجمع قرب الأرصفة وفي المنخفضات. ليلة البارحة كانت ماطرة، كشفت شخصية المدينة الشرقية وفوضاها كما قال له زاهر، وصور رجال الدين على الجدران، واللهث يحكم حركة البشر هنا، ولا يستطيع المرء تفسيره، والجميع مستعجل. حتى أبو ربيع كان لاهثاً ومنفعلاً حين حدثه عن الإشاعات التي تدور في شارع المتنبي وتؤكد على أن جماعات (المقاومة)، كما سماها، تنفذ خطة الآن لقطع الطرق بين بغداد والمحافظات، طريق أبو غريب المتصل بالرمادي، وطريق اليوسفية واللطيفية، المؤدي إلى محافظات الجنوب.

وطريق بعقوبة الواصل بين العاصمة والمحافظات الشمالية، وغيرها من طرق.

ما الهدف من ذلك؟، سأله المحمدي فرد أبو ربيع، لعزل بغداد ثم تحريرها من الأميركان، ستكون أعداد الضحايا بالملايين، وتعجب المحمدي من غرابة هذه الإشاعة، لكنه لن يدخلها في تحقيقه عن الشارع، هذه إشاعة غير معقولة قال لنفسه وهو يغادر مكتبة أبو ربيع الضيقة المحشوة بالكتب التراثية عن بغداد ومآذنها وخاناتها وتكاياها وحماماتها وألعابها القديمة وأسماء حاراتها، تلك الكتب التي كرس لها أبو ربيع حياته منذ أن امتلك هذه المكتبة قبل ثلاثين سنة، فجميع مؤلفات الباحث محمود العبطة يحتفظ بها أبو ربيع، وكان واحداً من أصدقائه أيضاً، واتصل به زاهر من الجريدة، أثناء ما كان يدون أسماء كتب السحر المعروضة على الرصيف، وأخبره أنه في شارع المتنبي، واتفق مع أبو حسن للقاء بعد الظهر في صالة النادي. قال له زاهر إنه سيرجع إلى البيت فليس لديه رغبة في تناول الكحول هذا اليوم. لاحظ ربيع الخيبة واليأس في صوت زاهر. لم يتكهن بالسبب. وقبل أن يغلق التلفون طلب منه إخبار علي محمد أمين بخطة اللقاء في النادي. لم يبق أمامه ما يفعله في الشارع، بعد أن دون ملاحظات كثيرة عن نوعية الكتب والرائجة منها خاصة، وسوق الاستنساخ، وأشكال البشر وملابسهم وتعابير وجوههم. وضع خارطة صغيرة تبين موقع مطعم الكبة وسوق السراي ومقهى الشابندر وبناية السراي العثمانية التي انتشرت على جدرانها صور كثيرة لرجال دين. رغبة تناول الأركيلة غادرته وقرر أن يستمر بالمشي بإتجاه ساحة الرصافي.

خرج من المتنبي وتلقفه شارع الرشيد بضوضائه وعرباته ونداءات باعته وقمامته المنتشرة جنب الأرصفة وفي الزوايا وأمام المحلات. شارع الرشيد ينازع كما حدس بقناعة تامة، وزاهر يؤمن بهذه الفكرة كما أخبره، إنه في طريقه إلى الموت مثل أي شيخ عجوز، وهكذا حال الشوارع أيضاً، تموت مثل البشر، المدن كذلك، فهل تواجه بغداد مصيراً مشابهاً لشارع الرشيد؟. سأل نفسه وشعر برجفة في قلبه. هل من الممكن أن تموت بغداد؟. قال له زاهر قبل فترة إن شارع الرشيد هو ذاكرتنا جميعاً. وقدر أن فكرته فيها كثير من الصواب. شوارع بغداد وجسورها تختلف عن تلك التي عمرت ذاكرته، هو ابن الصليخ والفضل والشواكة، يكاد اليوم لا يتعرف عليها، الذباب يغطي كل شيء. يعشش في الذاكرة دون رادع. استقل المحمدي تاكسياً طلب منه ايصاله إلى تمثال عبد المحسن السعدون، لن يذهب مباشرة إلى النادي، سيعرج على زاهر في القسم، شاهد الفلاح أبو شعبان يدخن سيجارة من مشرب خشبي طويل وهو سادر في صفاء ذاتي غير معروف، وأثناء صعوده الدرج تذكر أنه نسي السؤال عن أبو شلال في قهوة الشابندر، وقال لنفسه سأذهب غداً للسؤال عنه. يوم واحد لا يغير من مصير عمران. وجد زاهر منكباً على الأوراق تقابله نخلة الفندق الضخمة، ترشح قطرات خفيفة من المطر، وسهى تجلس في الكرسي المقابل له، جنب الباب. فوضع أوراقه على طاولته وأخرج نظارته وعلقها في رقبته، وقبل أن يبدأ حديثه عن التحقيق حدث الإنفجار المروع، وكالعادة تساقطت قطع من السقف الإصطناعي واهتزت الشبابيك وثار غبار خفيف من الستائر والسقوف، ونهضت سهى مذعورة، واشتبكت بلوزتها الصوفية بمسمار

مثبت في حافة الطاولة. ونتر المحمدي نظارته عن عينيه لتسقط على صدره.

علي محمد أمين غادرهم إلى النجمة قبل ساعة. تراكضوا إلى النوافذ مستطلعين جهة الإنفجار. وساد ذهول في الغرفة امتد لدقائق. قبل أن يبدأ المحمدي تساؤلاته عن المكان المتوقع، رن هاتف زاهر، وبدأ يسمع إلى الصوت المجهول، وسط ذهول عينيه العميقتي السواد. نظراته فارغة تتنقل بين وجه سهى وربيع. نظرة لم يروها في عيني زاهر قبلئذ. فجروا شارع المتنبي قال. لم يحر أحد منهم بكلمة. بقوا صامتين مذهولين، وكان زاهر يحدق إلى تاج النخلة بمشاعر ملتبسة. صمت سميك كأنه جدار خرساني. رن الهاتف مرة أخرى وكان زاهر يقف هذه المرة كما لو يتأهب لمواجهة فرقة إعدام، دموعه تتساقط على خديه وارتعاشة كبيرة في شفتيه: حدث الإنفجار قرب مكتبة أبو حسن، وأبو حسن مات، سيارة مفخخة قريبة من مقهى الشابندر، وراحت التلفونات ترن دون انقطاع، ومثل حلم غامض رأى زاهر صفحات الكتب تتطاير في سماء الحيدرخانة وفوق مآذن جامع الخلفاء، يهرب ماركيز من غانياته ويتناءى نجيب محفوظ مسافراً نحو أزقة القاهرة، ويختفي دافنشي بين طلاسمه، وينغلّ عبد الرحمن منيف في رمال الصحراء التي فارقها، ترقص الأفلام رقصة الموت، وتتفحم المماحي متحولة إلى كرات سوداء في المجارير، وصور الرياضيين في مقهى الشابندر تتشكل على هيئة بالونات هوائية تسيل مثل مياه في محلات الذهب والمربعة وسوق الهرج.

موسيقى جنائزية كانت تتصاعد من بعيد، تلفّ أعمدة الخشب وشناشيل النوافذ العثمانية وسقوف البردي وبصمات البشر التي تراكمت

عبر القرون. موسيقى تنسرب نحو الأزقة والمحلات وعيون الكلاب السائبة وهي تحتمي في الزوايا والأنفاق من هول الإنفجار، حيث لم تنفع الجدران الكونكريتية في حماية الشارع، ولم تستطع كتب السحر المتراقصة في النار من ابتكار مصير آخر غير هذا، وكان وجه أبو حسن يشرف على كل ذلك، وهو يومئ لزاهر الواقف وسط الغرفة، ذاهلاً. ليقول له باسماً: أنا آسف، لم استطع المقاومة.

١٣

لم تبزغ نجمة البتاوين في الأفق، عمران في ضمير الغيب، الشقة موحشة دون رفاقه الآخرين، ورائحة أحلام تتغلغل في الهواء، أينما مشى، يشمها في الحمام، والغرفة، والصالون، والبالكون المطل على زقاق البتاوين، رائحة المرأة الفاقعة وهي تمنح الجنس للرجال، ضحكة أبو حسن تطوف بين الكراسي والفراش ومدخل البالكون. جلس على الطاولة ودخن سيجارة كلواز أحمر وارتشف قنينة بيرة متروكة منذ سهرة البارحة، وكان يحدق عبر البالكون إلى الفتيات على السطوح، السمينة والنحيفة وهما تتغامزان بإشارات بذيئة ووقحة، علي محمد أمين قرر الذهاب إلى الطالبية، وربيع المحمدي لديه موعد ما، وكان يبصر مثل حلم قامة أبو حسن وهي تنتصب على الكرسي الخشبي المركون على الجدار، وكان ذلك مكانه المفضل كلما جلسوا في الشقة، وقد أخبرته زوجته نضال أن هشام صار ينزل من درج البيت وحده ويتسلل إلى الحديقة لكي يلعب مع الجراد والخنافس والذباب الأخضر الكبير الذي تجذبه رائحة العشب في الحديقة، وقالت إنها تشتهي كباباً من المطعم الذي اعتاد أن يشتري منه، ويقع في الشارع المحاذي لحي المهندسين.

يقف في بالكون الشقة ناظراً إلى مدخنة مصفى الدورة النائة

لدخانها الأسود، صديقه رئيس التحرير سعيد عبد الكريم بدأ ينتقل قليلاً قليلاً إلى ضفة السلطة، جاء البارحة الى الجريدة تحرسه ثلاث سيارات، شاهد، وهو جالس في كافتيريا الجريدة، تحت أغصان التوتة العملاقة، صديقه ماشياً في الممر، متجهاً إلى الباب، وحياه ببرود، وكان عدد من الجنود المسلحين يمشون وراءه ببطء، والفرق بين سعيد عبد الكريم وبينه هو أن سعيد يحرسه فصيل من العسكر، بينما هو، زاهر، يجلس وحيداً في شقة بسيطة بحي البتاوين دون حماية، هو وماضيه فقط، هو وشبح أبو حسن الجالس على الكرسي، ونظرات عمر بن المخطوف وهي تطوف في الهواء. يجلس وحيداً مع ماضيه، عارياً إلا من وجوه تلاشت، وحوارات ذات أصداء خافتة، وأشباح بيوت عاش في كنفها سنة من السنين، قالت له آنا، سليلة الفايكنغ، قبل أن يهرب منها بعد أن عرف بمرضها، ستتذكرني دائماً، لأنك أول شرقي في حياتي. وكان يقضي في بيتها معظم أيام الأسبوع، يطبخ لها أكلات شرقية لم تسمع بها قبلئذ، التبسي العراقي، والكبة الموصلية، والكباب التركي. والدجاج بمرقة الطماطم مع البصل، فيأكلان مع إبنها ويحتسيان النبيذ وتحدثه عن تاريخ المدينة الميناء، وعلمته أسراراً كثيرة حول المرأة وجسدها، وظلت أسبوعاً كاملاً تعلمه كيف يقبّل، وكانت لها علاقات مع بحارة أوربيين، وذات يوم فكرت بالعيش في أفريقيا.

آنا لم تمت في خياله، ربما بسبب حبها الذي انقطع عنه فجأة، وبرر هروبه إلى مدينة أخرى بكونه لا يرغب في المعاناة وهو يراها تحتضر. تبرير قاس جداً، وأحياناً لا يعيش الفرد سوى مع أشباح الماضي. فهي الوحيدة التي تذكره، مثل جرس، بمضي الزمان، ورن جرس الهاتف. وحسب المتصل زوجته بادئ الأمر، لكنه شاهد رقماً غريباً على الشاشة.

- أنت زاهر حسين؟.

- نعم تفضل من هو المتكلم؟.

- ما تعرفني، أنا اتصل بخصوص عمران. نحن نعرف كل شيء عنه. نعرف حتى اسم عشيقته الصغيرة سماهر في مدينة البياع.

فهم بلمحة خاطفة فحوى الإتصال. أصابت زاهر رجفة في جسده، إنه واحد من الخاطفين، صوته واثق وعميق، صوت متوحش يمكنه أن يقتل دون أي تأنيب ضمير.

- تفضل، هل يمكنني الحديث معه؟.

- كلا، وجدنا تلفونك على جهاز الموبايل واتصلنا بك. نريد أن تبلغ أهله رسالة.

- لكن من فضلك ألا يمكنني الحديث معه؟.

- لا تطل الكلام، أنت صديقه، أليس كذلك؟.

- نعم عرفته منذ سنوات، كنا زملاء في جامعة السليمانية. التقيته عدة مرات في هذه الفترة.

- يبدو أنك رجل طيب، نحن لا نريد شيئاً منك، نريد فقط أن تبلغ أهله إننا يجب أن نستلم النقود قبل نهاية الشهر. وإلا تعرف ماذا يحصل له.

- طيب كيف.....

- .....

الأرض تتمايل تحت قدميه، هل تكلم فعلاً مع خاطفي عمران؟. من هم؟. وكيف تبدو وجوههم؟. هل يشبهون الأشخاص الذين يعيشون بيننا؟. هل أن عمران حقاً ما زال على قيد الحياة ؟. هذه هي المرة الثانية التي يتصلون به، وكان كلما رأى جثثاً تعرض في التلفزيون في مشرحة

بغداد يبدأ قلبه بالإنقباض، يخشى من رؤية وجه عمران بين القتلى. وماذا لو أخبرهم عمران عن محل إقامته هو أيضاً؟. وعن تاريخه السابق منذ أن ولد ولحد هذه اللحظة؟ كيف يرد إن هاجمته مجموعة مسلحة في بيته في شارع فلسطين وهو لا يملك سلاحاً، لا يملك سوى زوجته وهشام إبنه؟ ماذا لو اختطفوا هشام وطلبوا فدية لا يستطيع دفعها؟. كلا لا يمكن لهم عمل ذلك، لديهم قليل من الأخلاق بالتأكيد، لن يختطفوا طفلاً عمره سنة ونصف، كما لن يختطفوا زوجته نضال، لابد أن يحترموا غربتها في البلد، ويقدروا كونها ضيفة هنا. صحيح أن رقم تلفونه مسجل على سجلات موبايل عمران لكن لا يمكن لعمران أن يدلهم على بيته. وماذا لو دلهم على مكان عمله؟

تلك الهواجس والأسئلة تواردت في ذهن زاهر وهو مازال صامتاً على الكرسي بعد ذلك الإتصال المفاجئ، بعدها أخبر زوجة عمران سميرة باتصال الخاطفين، قالت له بين الدموع والخوف والحزن إنها بدأت ببيع السيارة المرسيدس والبيت وبعض الممتلكات الأخرى لتوفير الفدية، كانت الفدية مبلغاً خيالياً بالنسبة لزاهر، وأحس بالراحة وهو ينهي المكالمة مع زوجة عمران، كمن يزيح ثقلاً عن كتفيه، سيتصلون بها لاحقاً فهم يعرفون تلفونها، يبدو أنهم يعرفون عمران جيداً هؤلاء الخاطفون. فكر زاهر، ونهض من الكرسي وتوجه إلى الحمام، غسل وجهه ورجع إلى البالكون وكانت الشمس تتناهى في الغرب. فكر أن يتكلم مع نضال ويخبرها بقصة الإتصال فأخرج الموبايل ودق الرقم لكنه تراجع في آخر ثانية، سيقلقها كثيراً ودون أية مبررات، ألم يخف عنها تلك الليلة حين صوب المسلح مسدسه إلى رأسه واختطف نقوده قرب مدخل الشارع؟ منذ تلك الليلة والشك يراوده بإمكانية الإستمرار في العيش هنا، كل هؤلاء

البشر يسيرون في حقل من الألغام، ألغام مدفونة لا يعلم سوى الشيطان متى تنفجر وأين، وذات نهار أحصى اتصالات نضال له في الجريدة فكانت تجاوز العشرة، كلما سمعت انفجاراً في جهة ما من جهات بغداد تعتقد أن زاهر موجود في المكان، وكلما قرأت خبراً عاجلاً في التلفزيون حول جثث أو اختطاف أو قتل صحافيين تتصل به، وقبل شهرين، شاهدت خبراً عاجلاً في إحدى الفضائيات، حول انفجار أمام جريدة في باكستان، لم تكمل قراءة الخبر، رأت كلمة الجريدة فقط، وتناولت التلفون مباشرة واتصلت به، ولم تدرك أن الإنفجار كان في الباكستان إلا بعد خمس دقائق، وفي السنتين الأخيرتين كان هو وهشام حدود عالمها كله. انقطعت الكهرباء الوطنية، وأطبق الظلام في الشقة، ولم يشأ زاهر البحث عن الشموع التي كان علي محمد أمين يجلب منها الكثير تحسباً للحظات مثل هذه، وأكمل كأسه ووضعه على الطاولة، وقرر الرجوع إلى بيته، باقي اليوم الكئيب هذا سيكرسه لهشام، يضع لنفسه كأس عرق، ويجلس معه في الحديقة ويتركه يلعب مع صراصير الليل والجنادب وقرون الباميا.

قالت نضال إن أول كلمة نطقها هشام هي كلمة بابا، عادة ما تكون الكلمة الأولى ماما، ثم أغلق باب الصالون المطل على البالكون، وأشعل ضوء الموبايل ورتج الباب الخارجي وراءه بدقة، ثم اتجه إلى الدرج. وكان الدرج مظلماً كالعادة، مظلماً ومليئاً بالأشباح، وهكذا بدأت الأيام تكرر نفسها، والأحداث تتشابه كذلك بعض الأحيان، حتى الأخبار في جريدة السلام فقدت طزاجتها، ومرات كان يحس أن حدثاً ما قرأه قبل سنة أو سنتين يعاد نشره اليوم، لا في المنوعات فقط بل في الصفحات السياسية أيضاً، وحوارات نجمة البتاوين تتناسخ بعضها من بعض مثل كتب شارع المتنبي، والدائرة تكرر ذاتها، وكان السكون يطبق عليه،

وخطواته تتضخم في عمق ذلك الهدوء لتصبح قوة سرية تتحرك بغموض. لا أحد من القاطنين يعلن عن نفسه، وكأن البناية بناية أموات قضوا منذ سنين، وشقة السطح قطنتها أمرأة مع أمها، عرف علي محمد أمين أنها كانت ذات يوم ممثلة مسرحية، كيف تسكن امرأة في شقة مثل هذه؟ وسط البتاوين دون رجل؟

ماتت بغداد عن الحواس للحظات، وابتلعتها ظلمات تتلوها ظلمات، وبصيص النور الشحيح لا يكشف سوى مساحات بحجم الكف. والقدمان تتبعان النور إلى الأسفل، دون اعتراض، ووسط الظلمة دق الموبايل في هذه اللحظات الحرجة لكن زاهر لم يشأ الرد، فالظلمة لا تسمح له بذلك، وفضل الرد ما أن يخرج إلى الشارع، وفكر أنها سهى. فقد خرج اليوم دون أن يودعها، وكان وجهه جافاً مع الجميع. اصطدم قبل أن يصل الطابق الأول بشيء رخو، ظنه قطة أو كلباً أو جثة ميتة. لكنه تبين الأمر، بعد ارتجافة سريعة في القلب، هو كيس من الملابس تركه أحدهم وصعد، أو نزل، درجة بعد درجة بدأ ضوء الغروب ينير خطواته على الدرج، وألفى باب البناية مفتوحاً، وثمة ذرذرات نور خفيف تحول الأشياء إلى أشباح في الزقاق الضيق الذي ركن فيه السيارة، وأراد التوجه نحو السيارة الواقفة تحت شجرة التوت النحيفة. أمام البناية، فعاجله شخص تبين له بعد هنيهة أنه جندي مدجج بالسلاح، عاجله قائلاً:

- أستاذ ممنوع التجول لا يمكنك الخروج.

- لماذا؟ أنا ذاهب إلى بيتي.

- أين بيتك؟

- في شارع فلسطين.

- الطرق كلها مغلقة يا أستاذ ولا أنصحك بالذهاب، قد تتعرض إلى إطلاق نار، وأنت تعرف الوضع.

- عفواً هل أستطيع معرفة سبب منع التجول؟. العصر لم يكن هناك أي شيء.

- نحن نطوق البتاوين والباب الشرقي، حتى ساحة الأندلس. أكو تفتيش عام عن العرب المقيمين في هذه المنطقة. تعرف هناك سودانيون ومصريون وسوريون يقيمون في هذه البيوت. ماكو شيء، الأمور تتعلق بالإقامات الشرعية.

لم يحر زاهر بأي جواب، ورجع سريعاً إلى البناية، يجب أن يلقي نظرة من الشبابيك المطلة على البتاوين ليستجلي حقيقة الأمر قبل حلول الظلام، ورجع وأشعل الموبايل مرة أخرى، ثم طلع السلم ثانية ولم يعثر على الكيس الذي أخافه قبل لحظات، كيف اختفى في هذا الوقت الخاطف؟. يجوز أن صاحب معمل الكبة في الطابق الأول هو الذي تركه هناك، إذن فالصعود كان أسهل لزاهر من النزول، إذ عند الطابق الثالث بدأ النور يتسرب إلى نفق الدرج فلم يعد بحاجة إلى ضوء الموبايل، وفتح الباب ودخل فواجهته رائحة أحلام المميزة، رائحة الجنس الرخيص.

ذهب مباشرة إلى الشباك الصغير المطل على البالكونة، وعثر على شمعتين رفيعتين غير مستخدمتين، وأشعلهما بقداحته، وضع واحدة على الطاولة ثم وضع الثانية على حافة الشباك المطل على البالكون، ورأى خياله يتراقص على الجدران كلما تحرك من مكان إلى آخر، وتحت الطاولة بالضبط وجد قنينة العرق المسيّح جاثمة قرب الجدار، وفيها كمية تجاوز النصف، تركها الشباب وراءهم في سكرة سابقة. أحضر كأساً جديداً، وسكب العرق. وأحضر ماء من الحنفية، وسكب قليلاً في الكأس فتوهج

بلون حليبي جميل. كان يعكس تراقصات الشمعة وهي تنوس يميناً وشمالاً، جاذبة ظل زاهر الجالس على الكرسي نحو اليمين ونحو الشمال. في لعبة ليلية خرساء تجلب الرعب، إنه وحيد كما لم يكن من قبل. وحيد يمشي بين جدارين كونكريتين كذلك الجدار الذي رآه علي محمد أمين في كابوسه، فاتصل بنضال وأخبرها أنه عند صديق في حي البتاوين قرب الجريدة، لا يستطيع المجيء الآن لأن هناك حظراً للتجول في هذه الساعة، وأخبرها أنه قد ينام عند صديقه إذا ما استمر حظر التجوال حتى ساعة متأخرة من الليل، ونضال شجعته على النوم لئلا الصديق خوفاً من حوادث الطرق، وطلبت منه الإتصال بها كل ساعة لطمأنتها، لذلك نظر إلى المكالمات المستلمة التي لم يرد عليها فوجد اسم ربيع المحمدي.

- هل أنت في البيت؟.

- نعم رجعت من فاتحة أبو حسن قبل ساعتين. كان هناك أغلب أصحاب المكتبات في شارع المتنبي. حضرت بعض القوى السياسية كذلك. حتى صديقك سعيد عبد الكريم كان موجوداً. قال إن مؤسسة السلام ستساهم بإعادة بناء الشارع، وتعوض المتضررين. لفتة جيدة على ما أظن. لكن أين أنت؟.

- أنا في النجمة.

- غير معقول. ومن معك؟.

- لا أحد.

- أحلام، سهى، علي الشاعر..

- لا أحد سوى كأس العرق. تعرف أنني محاصر هنا في البتاوين.

- لماذا، ما الذي يجري؟.

- هناك حظر للتجوال في المنطقة، هم يبحثون عن العرب.

- يا رجل ما الذي يجري في هذا البلد!! أصبح الأميركي والإيراني مرغوبين في هذا البلد أكثر من العرب!! اللعنة. كأسك، أنا اشرب منذ أن رجعت من الفاتحة. وضعت كرسيي أمام قن الدجاج وتحت مطر خفيف أحاول أن أستعيد هدوئي. أجمل الكائنات هي الدجاج. لا يقتل أحداً ولا يختطف، بالعكس يضحي بلحمه من أجل راحة البشر. زاهر البلد لم يعد نافعاً، ولا يستحق العيش فيه. أنا نادم جداً على رجوعي. كأسك. ألم تر أحلام في المنطقة؟.

- تصور من الذي اتصل بي؟.

- لا بد أن تكون سهى؟.

- الخاطفون.

- أي خاطفين؟.

- خاطفو عمران.

- اللعنة. مرة ثانية؟. كأسك. ماذا حصل؟. هذه تطورات خطيرة جداً.

- هم يعرفون أدق التفاصيل عنه. طلبوا الفدية قبل نهاية الشهر وإلا...

- وما علاقتك أنت بالموضوع؟.

- لم يستطيعوا الإتصال بزوجته لسبب ما، فكان رقمي هو الأقرب. وربما عرفوا عن طريق عمران كل شيء عني، والعلاقة المتينة التي تربطني به. لا أعرف.

- هذه تطورات بحاجة إلى جلسة طارئة. كأسك. هل آتي إليك في النجمة؟

- لا أعتقد أنك تستطيع الوصول. ثم الساعة تأخرت. سأتصل

بنضال وأطمئنها عن الوضع. سأنام هنا الليلة. وضعي بحاجة إلى حسم. سأراك غداً....

وخرج زاهر حاملاً كأسه إلى البالكون، وضعه على حافة السياج. وشاهد أعداداً كبيرة من سيارات الجيش والشرطة في الأسفل، عند بائع الخمور، وفي مدخل الزقاق، وبعيداً قرب شارع السعدون، بائع المقبلات أغلق بابه، وكذلك فعل بائع الكبة في أسفل البناية، وفي مثل هذه الظروف يغلق أصحاب محلات الخضرة والمقاهي والمطاعم حوانيتهم تحسباً لأي خطر قادم، ووجدهم فعلاً يطوقون المنطقة. رغم انقطاع الكهرباء الوطنية لكن بغداد تشتعل تحت باصريه، سطوح الجيران مضاءة بكهرباء المولدات البيتية، وأضواء بعيدة قرب الجادرية، والجسر المعلق، تسطع في الليل البهيم، وسينما بابل لا يرى سوى حافة بنائه الأبيض المضاء بمصباح أزرق، ذات يوم جلس تحت ذلك المصباح مع عمران المهندس في البار السري، واستعادوا سيرة عشرين سنة من العمر. عشرون سنة، وهي تزين الشعر بالشيب، وتمنح الحياة أبناء جدداً، وتنمي أشجاراً مثمرة تقدم فاكهة للناس، وتزيل مدناً من الوجود، وتؤسس لأخرى، غاصة بالمتعة والسعادة، عشرون سنة تنتهي باختطاف بليد. هؤلاء الذين يعيثون فساداً في البلد، من هم؟ ما الذي فعلت بنفسك يا زاهر؟. جاء هذا المقطع إلى رأسه فجأة وهو ينظر إلى ليل بغداد، وشعلة مصفى الدورة التي صنعت حولها هالة من الحمرة الفاقعة، ولابد أن هشام الآن يتفرج على قناة سبيس تون: توم وجيري، ونضال جالسة قربه تنتظر مكالمته، وشارع فلسطين ساكن، يظلله النخيل وتنتشر في جوه الشتائي رائحة السعد والمطر والطين.

هل يمكنه أن يبدأ العد العكسي لتواجده في البلد؟. هذا السؤال

ظل معلقاً في سماء نجمة البتاوين حتى غفا على الفراش الإسفنجي الذي كانت أحلام تضاجعهم عليه كل أسبوع. وعلى صوت ياس خضر وداعاً يا حزن، المنطلق من مسجلة السيارة، تذكر أن تلك الليلة كانت ليلة فاصلة، اتخذ قراره بالرحيل وكفى، لا يرغب في البقاء بين فكي وحش هائج، حسم وضعه دون تردد، وانطلق السهم من الوتر. اختطف عمران ثم قتل أبو حسن، ولا يجد أية ضمانة من أن يكون هو الثالث، وهكذا بسرعة مئة وخمسين كيلو متراً في الساعة، ووسط صحراء قاحلة، بدأ زاهر حسين يقرأ هذه المرة تقرير عمران المهندس، الذي عنونه(لا تنظر إلى الوراء أبداً)، إنطلقت الأغنية مثل نشيج وداع، عدّها مصادفة مروعة، هو وتقرير عمران، وهذا الصوت الذي يجمع ذكرياته وأحزانه ليطلقها في البرية، وتراءى له نادي الأدباء من بين ضباب أيام وأحزان وحكايات، ووجه علي محمد أمين كان بعيداً، كأنه نجمة ضالة، وفي تلك اللحظات الغائمة، التي تلاشت مثل كابوس، سمع هذه الأغنية للمرة الأولى، وكان عليه أن يسمعها بعد ذلك عشرات المرات: في غرفة الجريدة، في شقة النجمة، في الشارع، يسمعها من فم علي محمد أمين كلما تعتعه السكر وسقط في لجة الماضي، حتى أنه غناها في أذن سهى بعد أن استفاقا من المضاجعة في مكتب عمران.

كلا ليست مصادفة على الإطلاق، نفق حياته السديمي يقوده في الإتجاه الصحيح، ومازال هشام ونضال ينامان في المقعد الخلفي، وأطبقت على الأفق غبرة صفراء، سيارة الجي أم سي تشقها كما لو كانت شبحاً في أرض خيالية، تقول الأغنية: وداعا يا حزن/ ولا توصل بعد. رضينه بدنيتك/ سنين بلا عدد. صبرنه وعوض الله/ علينه شما صبرنه. ولحد اليوم لم يبحث عن اسم مؤلف الكلمات، هذه الكلمات حملت معها

صلعة علي محمد أمين، ونظرات سهى الحزينة، وتعابير ربيع القلقة. وضحكات المرحوم أبو حسن وهو يستعرض لهم أسعار الكتاب العالميين الذي استنسخوا في أزقة شارع المتنبي، فماركيز بخمسة آلاف دينار. كونديرا بثلاثة آلاف، وبورخيس بألفين، وهذه هي أسعار الكتاب العالميين لدينا، ويقولها أبو حسن ويضحك بصفاء يشبه صفاء طفل. فهل يستطيع أبو حسن أن يضحك الآن وهو تحت التراب؟ وأحلام. ما هو مصيرها اللحظة؟ هل قطعوا رأسها باعتبارها زانية، أم هاجرت مثل الملايين غيرها؟ ولم تعد نقطة الحدود بعيدة، تجاوزوا منطقة الرمل المتحركة منذ ساعة تقريباً، وسينهي قراءة التقرير قبل وصولهم، وسيضع ما يجيء فيه خلف ظهره مثلما فعل مع تلك السنوات الثلاث، لا تلتفت وراءك، ظلت هذه الجملة تلح على ذهنه ما أن غادروا بيت شرق فلسطين، وفاجأه أن يتخذ منها عمران عنواناً لتقريره، مثلما فاجأه صوت ياس خضر بأغنيته، وكان عمران كتب قصته على ورق أبيض مسطّر، يميل إلى الخضرة، وهو منذ سنوات جامعة السليمانية كان معروفاً بجمال خطه، خطه الدال على إنسجام داخلي مع الذات.

ومن خلال نظافة الخط والصفحات خمن زاهر أن عمران أعاد كتابة تقريره عدة مرات إلى أن أوصله إلى هذه المرحلة. فلا حك ولا شطب ولا عوج في الخطوط، والنقاط في أماكنها الصحيحة، والعلامات متناسقة فوق الحروف، وكان جمالاً صنع من بشاعات ومخاوف وآلام.

١٤

هذه قصة اختطافي أكتبها لأخي ورفيق حياتي زاهر حسين، لكي تكون عبرة للآتين، ولكي تتذكرها الأجيال القادمة، هكذا صدّر الصفحة الأولى بشقة من سيروي حكاية لن تتكرر في هذا البلد، فهل يثق عمران بقوله هذا؟ وهل هي حكاية لن تتكرر حقاً؟ ثم كتب في أول السطر: خرجت من المكتب بعد أن طلبت مني سماهر لقاءها في شقة مدينة البياع، ولم أنس حمل المسدس، لم أر سماهر منذ أن التقينا في الشقة أنا وأنت وهي وصديقتها، استمتعنا بالسهرة، أليس كذلك؟. لم ترض بمضاجعة صديقتها السمينة، أعرف أنك نسيت زوجتك وابنك وشقراوات أوربا وكرست نفسك للمتعة، هو زاهر حسين كما عرفته طوال ثلاثين سنة، الرجل الذي يفقد صوابه في حضرة النساء، نعم تركت حسابات المقاولات، وأغلقت موبايلي، ثم ركبت سيارتي المارسيدس إلى شارع الربيع، وفي نيتي شراء بيدون بنزين عشرين لتراً فالسيارة فارغة من البانزين، وفكرت بشراء نفري كباب من مطعم الساعة في المنصور، هي جانعة بالتأكيد، لكنني فضلت أن أشتري الكباب من البياع، أعرف مطعماً يعمل ألذ كباب في بغداد، أشهى من كباب الفلوجة حتى، وملأت خزان المارسيدس واتجهت إلى نفق الشرطة لكي أعبر نحو مدينة البياع. قبل النفق بقليل، حوالي خمسين متراً، كانت المفاجأة.

مرقت سيارة من نوع بي أم دبل يو من جانبي الأيسر، وبغتة حاصرتني مع الرصيف فاضطررت للتوقف. ظننت أنه خطأ ما. لم أشعر إلا وشخص ملثم بغترة بيضاء يحاذيني من الرصيف ويشهر رشاش كلاشينكوف في وجهي، فيما جاء آخرون من السيارة البي أم دبل يو ووجهوا مسدساتهم ورشاشاتهم نحوي. مباغتة محكمة، ولم أعد أتذكر حتى مكان المسدس، فاستسلمت للأمر الواقع ورفعت يدي عن المقود. وكان البعض غير ملثم، لكن وجوههم غريبة التعابير، وكلهم بعمر الشباب، وجوه سمر صلبة، تنم عن قسوة فائقة، ونظرات دموية تتطلع بحقد إلى الجميع، هذا ليس فيلماً سينمائياً يجري في هوليوود، كلا. حدث ذلك في قلب شارع الربيع، ليس بعيداً عن نفق الشرطة. هل تصدق أن المارة كانوا ينظرون إلى ما يجري دون اكتراث؟ سيارات الشرطة القريبة لم تتحرك، الجميع ينظر إلى الحدث باعتباره قصة مسلية، أي درك وصلنا إليه؟ هاجر يا زاهر من هذا البلد، فهو بلد ملعون، وسيظل كذلك عشرات السنين، هاجر إلى سورية أو الأردن أو أوربا ولا تلتفت وراءك أبداً، هم مدربون جيداً على القتل، ووضع واحد منهم عصابة سوداء سميكة على عيني وقادني إلى البي أم دبل يو. وربط آخر يدي ورجلي بحبال غليظة ثم قذفوني مثل كيس بصل في مؤخرة السيارة، بعد أن لملموني من كل أطرافي لكي أجد مكاناً في الحقيبة تلك، وأطبقوا الغطاء علي، ومن هذه اللحظة دخلت في نفق السواد ذاك. ماذا تعتقد أن يفكر الفرد في حالة مثل هذه؟ حين تجد روحك ملقى في متر مربع من الحديد، أطرافك مربوطة وعيناك مغطتان بالسواد؟. الشيء الوحيد الذي فكرت فيه تلك اللحظة أنني لم أزل حياً.

فهؤلاء من الشهامة والنبل واللطافة أنهم لم يفرغوا طلقاتهم في جسدي ويفروا هاربين، وهذه إشارة أمل على أنني غير محكوم علي بالموت، بل بأمر آخر، وكان سواد قيري أحاطني من جميع الجهات، تحكني رجلي فلا أستطيع مد يدي لحكها، يتساقط العرق في فمي وعيني دون أن أتمكن من إزاحته، تذكر أن وقت اختطافي كان في الصيف، صيفنا الذي يحرق ذيل العصفور، ما بعد ظهيرة أيلولية على ما أذكر، وأصوات السيارات، مزاميرها، نداءات البشر، صوت جنازير الدبابات الأميركية، انفجارات بعيدة، كل ذلك يصلني خافتاً، بعيداً أحسه كما لو كان قادماً من مجرة أخرى، والسيارة ظلت تجري في طرقات وطرقات، بعضها ممتلئ بالحفر، وبعضها ممهد، إلا أنني لم استطع تمييز المكان، وبعد لحظات لم أعد اشعر بمرور الزمن أيضاً. وسط سواد، تلف بي سيارة وتدور، والأصوات صارت خافتة، إلى أن حل السكون، لم أعد أسمع شيئاً، رغم أن السيارة ما زالت سائرة، وكل ثانية كنت أتوقع أن يرن الموبايل، فأسمع صوت زوجتي أو صوتك أو صوت علي محمد أمين أو أبو حسن لكي يدعوني إلى جلسة خمرية في النجمة، ونسيت تماماً أنهم صادروا الموبايل مع المسدس قبل أي شيء آخر.

مجرد وهم في سواد حالك، وسأعيش أوهاماً كثيرة بعد ذلك، واكتشفت أن الأوهام ضرورية لنا نحن البشر، فالوقائع صلدة وجارحة في أغلب الأحيان، ومن هنا تأتي ضرورة الوهم والأمل والكذب على الذات والمبالغات والخرافات، هي تشذب قليلاً من الحافات الحادة للحياة. لن أبالغ بالقول إن الفترة التي عشتها معكم، أنتم شلة نجمة البتاوين، هي أجمل الفترات في حياتي، حواراتكم العميقة، وهمومكم الثقافية،

ومعارفكم الواسعة، والحميمية التي كانت تربط بينكم، قصصكم وحكاياتكم المتنوعة، وخبرتكم بالكتب والعالم، كل هذا أبعدني عن الحياة الجافة التي كنت أعيشها في عالم الحصى والرمل والمخططات والأسعار والنقود والثروة، هل تعلم أنني شممت عطر سهى في المكتب حين عدت في اليوم الثاني؟

كان لاصقاً على الأريكة والكرسي والمنشفة التي مسحت بها يديها. ما أجمل عطر النساء، والحياة بحاجة إلى العبث بعض الأحيان وإلا لن تطاق، ولا أعتقد أنني سيتسنى لي يوماً عيش لحظات روحية مثل تلك في أيام عمري القادمة. عزمت على الحج إلى مكة في السنة القادمة، وتركت احتساء الخمور، وطلقت مغامرات النساء إلى الأبد. أزلت رقم سماهر من الموبايل، وواظبت على الصلاة والصوم وقراءة القرآن. هذا سابق لأوانه الآن، وستعرف السبب الذي جعلني أستدير مئة وثمانين درجة في أفكاري وسلوكي وحياتي اليومية، وبالمناسبة، لم مئة وثمانون درجة وليس ثلاثمائة وستون درجة؟. سبب الإستدارة؟. التجربة الملعونة، المرعبة، تجربة اختطافي التي دامت ثمانية شهور. سبحت في سواد تلك الحقيبة وكنت أتحسس، بما أملك من أجزاء حرة من جسدي، ما كان حولي، فاستطعت تمييز دولاب إضافي للسيارة، وعدة شغل تخص السيارة وثمة بيدون بلاستيكي ينث رائحة بنزين نفاذة كادت أن تمنعني من التنفس، وخمنت أننا في ريف خارج بغداد، إذ تناهى مثل حس صوت كلب بعيد، عندها سألت نفسي إن كانوا متجهين بي إلى منطقة أبو غريب الزراعية، أم الراشدية، أم المحمودية، لم أقدر على الجزم. ولاحظت أن السيارة أوشكت على الوقوف، وفتح باب حديدي، ثم أغلق

بسرعة وهمدت حركة السيارة، وأصبحت أذناً فقط، فحواسي الأخرى معطلة، حاسة الشم غطتها رائحة البنزين الخانقة.

انفتح باب الحقيبة وامتدت يد ضخمة وسحبتني مثل كيس إلى الخارج، وأنا موثق جيداً، وعيناي مغلفتان بالسواد. صمتَ كأي جدار طيني ولم أتذمر أو أستنكر أو أتأفف، ففي ظروف مثل هذه قد تؤدي كلمة أو تعبير بسيط أو زفرة إلى استفزاز الخاطفين فيبادرون إلى قتلي. هؤلاء ليسوا أناساً طبيعيين، ولا يمكن الهجس بماذا يفكرون، لا يمكن معرفة كم قتل الواحد منهم من البشر، فهل تذكر مجرمي بار أبو جسام؟. على هذه الشاكلة. سرت على أرضية كونكريتية ملساء بشكل متعثر، وانفتح باب خشبي وأدخلت إلى مكان مغلق، هو بيت إذن، يقع في منطقة ريفية، ونسيت أن أذكر لك أنهم وقبل إدخالي إلى البيت سدوا أذني بقطع من القطن لكي لا أسمع شيئاً، وبقيت في فراغ مطلق، لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم، وأنت تعرف قصة القرود الصينية الثلاثة أليس كذلك؟. الفسحة التي اجتزناها إلى الداخل تبدو مجازاً في بيت، سرعان ما أدى بنا إلى غرفة داخلية، دفعت إليها دفعاً ثم أغلق الباب ورائي، فتكومت على مفرش من الصوف، مثل المفارش التي تحوكها الفلاحات من بقايا الأقمشة والملابس العتيقة، وهيأت لرأسي مكاناً قرب الجدار، ولبثت ساكناً لا أحرك أي عضو من أعضائي، ورائحة الغرفة لم أستطع شمها، ومن بعيد تنسمت ما يشبه عفن السواقي.

عفن السواقي ومراحات الغنم ومرابط البقر، وهي رائحة خفيفة تأتي وتذهب، حتى حسبتني أتخيل الرائحة لا غير، وتأكد لي أنني في ريف، لكن أي ريف من أرياف بغداد؟ بغداد محاطة بالأرياف، هي تمتد إلى

الحلة والكوت والفلوجة وسامراء وبعقوبة، فبأي من هذه الأرياف يقع البيت؟ أنا وداخلي فقط، وهو موقف مرعب، أي حين توضع بمواجهة ذاتك دون أي وسيط، أنت وأخطاؤك وقصصك وسنواتك الماضية وزوجتك وأبناؤك وأصدقاؤك الذين تحولوا في نفسك وذاكرتك إلى حوارات مقطوعة، وضحكات منسية، وملامح باهتة، وأصوات، وجاء أصدقائي ومعارفي إليّ على هيأة أصوات، ترن في أذني كما لو كانت حقيقة ماثلة. الوقت لم يعد موجوداً، ماذا يعني لي إن كانت الساعة الخامسة عصراً أو الواحدة بعد منتصف الليل؟ لا شيء. معدتي فقدت الإحساس بالجوع، ثمة عطش فقط، بسبب ما نزفت من عرق أثناء وجودي في السيارة. أطمح فقط إلى شربة ماء ترطب فمي الناشف، ثم لا أعرف إن كنت غفوت أم لا، إن مرت ساعة على وجودي في الغرفة أم يوم كامل، امتدت يدان فجأة إليّ وطلبتا مني النهوض، وقلت لنفسي ربما يريدون قتلي في هذه اللحظة، وكنت مرعوباً من فكرة وقوعي بيد أولئك الذين كنا نطاردهم في حي المنصور والوشاش وعلاوي الحلة من الحزبيين السابقين ورجال الأمن والمخابرات، إن كانوا هم فحياتي لن تطول، طلقة في الرأس ثم رمي جثتي في أحد البزول أو ساقية بعيدة أو مقبرة، وهذا شيء عليهم سهل بالتأكيد. وقادني رجل إلى مرحاض يقع أمام البيت، وهو مرحاض شرقي ينتشر في الأرياف، وجعلني أستند على المكان ثم خرج وأغلق الباب عليّ، انتظرت بعد الإنتهاء مجيئه لكنه تأخر فبقيت وراء الباب لا أبادر بأي حركة، ومرت دقائق عديمة عاد وأخرجني، ومد لي أيضا كأس ماء كبير من الفافون شربته بجرعة واحدة وأحسست بالراحة.

ارتويت من ماء غير معقم، يبدو أنهم جلبوه من الساقية مباشرة. قادني الرجل ثانية إلى الغرفة وأغلق الباب ومضى، فتمددت على المفرش ذاته، ورحت أسقط في نوم متقطع قلق، ولا أعرف بالضبط كم كانت الساعة حين رحت أسمع أصوات العالم الخارجي، ولا كيف حدثت المفاجأة، في البداية صوت تلفزيون يبث فيلماً مصرياً، ثم صياح أطفال صغار يتقاتلون على شيء ما، بعدها، وربما في الوقت ذاته، محرك طائرة مروحية نائية البعد، فتخيل نفسك يا زاهر وأنت بهذا الموقف، دون مقدمات، ووسط بحر السكون والسواد، تجد روحك في خضم الوجود مرة ثانية، وأنت تحيا وسط ريف، ثمة نهيق لحمار يرعى في حقل، وديك يصيح معلناً وقتاً ما، وأطفال يتقاتلون على كرة صغيرة أو لعبة من اللعب، وطائرة تحلق فوق النخيل والذرة اليانعة والبقر المحدق بطمأنينة إلى نباتات الحلفاء، لكنك لا تعرف متى تطلق إلى رأسك رصاصة الرحمة. فكرت بهذه الأعجوبة التي تحدث لي وتوصلت إلى أنها دلالة على أمل ما جاءني بغتة من السماء. الطائرة الأميركية ظلت تدور ساعة في السماء، وداخلني أمل أن يحطوا في هذه البقعة ويفتشوا البيت. سيجدونني حتماً، لكن هذا الحلم كان وهماً محضاً، إذ غادرت الطائرة إلى مكان مجهول وساد السكون مرة أخرى، وسمعت أيضاً نساء يتحدثن عن العجين والكهرباء الوطنية وسقي البقرات، واستنتجت أن النهار هناك في الخارج، يضيء بشمسه الوجوه والطرق والأرض المالحة.

- أين وصلت؟ جاءه صوت ربيع المحمدي مشوشاً ومتقطعاً.

- سندخل الشام بعد ساعة أو أقل.

- هذا أفضل قرار اتخذته. إنني اتصل من البيت. بغداد تحترق ولم

استطع الذهاب إلى الجريدة. هناك مواجهات عسكرية في جهة الأعظمية والأفق أسود.

- انتبه لنفسك يا صديقي....

ثم انقطع الإتصال فجأة، وعادت السيارة تنهب الطريق بسرعة مئة وخمسين كيلومتراً في الساعة، وعاود زاهر قراءة الصفحات، وبعد دقائق من التفكير فيما حدث استنتجت أن قطنة أذني اليسرى سقطت من الصيوان وأزاحت عن أحاسيسي جدار العزلة الذي فصلني عن العالم خلال الفترة السابقة، لهذا لن تتخيل مقدار التحول الذي أصابني، فهو أنذا جزء من العالم الخارجي، أشارك في سماع أصواته وتفسيره والإحساس بها. كم هو صعب البقاء في الداخل، وحيداً إزاء كتلة السنين التي مرت علي منذ الولادة حتى لحظات الرعب تلك، مواجهة الذات تحتاج إلى شجاعة فائقة لا تتوافر لمعظم البشر، ومنذ سنوات جامعة السليمانية، ثم في بغداد، لا أحب البقاء وحدي، تعجبني مخالطة الآخرين، وبكلمة مختصرة لم أكن من الناس المتأملين أو الميالين إلى العزلة. طبعي ذاك لم يتغير حتى هذه اللحظة، تعرف ذلك أنت منذ أن كنا في مدينة السليمانية، وكيف أقضي وقتي دائراً من صديق إلى آخر. لهذا السبب لم أصبح كاتباً أو شاعراً أو صحافياً مثل علي محمد أمين أو ربيع المحمدي أو سعيد عبد الكريم أو مثلك أنت، فالكتابة تحتاج إلى شخص يستطيع وضع مؤخرته على الكرسي ساعات وساعات، قرأت مئات الروايات ودواوين الشعر والكتب الفكرية ومخطوطات التراث ومئات الصحف والمجلات.

فضلت العمل في حقل الهندسة كونه حقلاً يعتمد على الجهود

الجماعية، فبدون تضافر جهود العامل والحداد والنجار والمهندس والمصمم والدهان لا يمكن لك إنجاز جسر أو إشادة بيت أو تبليط شارع، هل تصدق أن زوجتي سميرة قالت لي أول ما دخلت البيت بعد أن أطلقوا سراحي إن كل مصائبنا جاءت حين رافقت شلة المثقفين تلك، وإن الثقافة والسياسة خراب بيوت، ومن يريد أن يعيش في هذا البلد بأمان عليه أن يلازم الدين فقط، ولا يفكر بشيء آخر سوى عائلته؟ وكأنها قرأت ما كنت صممت عليه حين احتجزوني، بعد أيام أو أسابيع لست أدري، في تلك الغرفة التحتأرضية، تلك المدة الطويلة. أنقذت تلك القطنة حياتي، أو على الأقل أنقذتني من الجنون، إذن أنا في بيت ريفي عادي، قلت لنفسي، بيت فيه أسرة لديها أطفال وبقر، وتنور يخبز فيه الخبز، وتلفزيون تشاهد منه الأفلام المصرية والمسلسلات السورية، لكن ما الغرض وراء جلبي إلى هنا؟ سألت نفسي، بما أنني مختطف فالخاطفون لا يريدون لي أن أقع بيد الشرطة أو الجيش أو القوات الأميركية، وبما أن هذا البيت يقع في الريف فلن يصل إليه أحد، كما لن يشك أحد بوجود مختطف في واحدة من غرفه، وهو تفسير مقنع أليس كذلك؟، لكن هل أن صاحب البيت واحد من الخاطفين؟ هل يمكن لفلاح أن يقدم على خطف شخص من وسط بغداد بهذه الطريقة؟ من أين له السيارة البي أم دبل يو والأسلحة الرشاشة؟ ولماذا لم يضعني الخاطفون في بيت من بيوت شارع الربيع أو حي المنصور أو الوشاش، وهي أقرب إلى مكان الإختطاف؟ وأخيراً السؤال الأهم: ماذا يبغون مني؟

وخلال الزمن الغامض ذاك لم يخطر على ذهني شيء إسمه الطعام إلى أن امتدت يد إلى فمي بملعقة فيها رز به شيء من الملوحة، تناولتها

بقرف في البداية ثم رحت ألوك مثل جمل مريض، ثلاث ملاعق أو أربع وأغلقت فمي، وناولتني اليد تلك ذات الكأس من الفافون وشربت بنهم. ثم لاحظ الرجل سقوط القطنة فبربر بكلمات غير مفهومة ثم دحسها ثانية في أذني اليسرى ومضى، وعدت إلى بحر السواد، ووقفت ثانية بمواجهة عمران الحقيقي، عمران العاري، عمران الوحيد إلا من عقله. وكنت خائفاً من وحدتي، وتمنيت لو أخرج من هذا المكان حتى لو قادني الخروج إلى الموت. سيحصل شيء على الأقل، ستحصل حركة، حركة لأعضائي وعقلي نتيجة احتكاكي بالعالم الخارجي، حيث العالم الداخلي مرعب، تنضغط أربعون سنة وأكثر في لحظة زمنية خاطفة، وهذا ما يجعل من ذلك العالم ثقيلاً، أثقل من أي رصاص عرفه الإنسان على هذه الأرض. تنعجن في هذه العقود جبال السليمانية وطرقات بغداد ومطارات العالم ووجوه النساء ومئات الكيلومترات من الأسفلت التي أشرفت على تبليطها خلال عملي في الهندسة، آلاف الأطنان من الحصى والملاط والصخور البركانية والمرمر، وقعقعة أسلحة الحروب وغبار المعارك على الجبهات وأشلاء القتلى ووجوه الأسرى المذعورة، وملايين الحوارات مع أشخاص بعيدين، ظننت لوهلة أنهم ما زالوا يعيشون في داخلي. حوارات تذكرتها من أيام الطفولة وعجبت من كوني لم أنسها كل هذه المدة. فروج وشفاه وأرداف وتأوهات وأعضاء ذكورية وشعور مثيرة، شممت بحسي الداخلي حتى رائحة الكرميلا في بار أبو جسم. هل تصدق ذلك؟ أريد الخلاص من هول عالمي الداخلي حتى لو جاء الخلاص عن طريق القتل. وجاءني هذا الخلاص في الليل، ليس عن طريق طلقة حارة من مسدس، ولا عن طريق سكين تخز رقبتي النحيلة، بل جاء

عبر شخصين، وربما أكثر، دخلا الغرفة دون أن أسمعهما، فالقطنة رجعت إلى أذني والقماشة على عيني، ولامست يدان كتفي وفهمت من الملامسة أن الشخص يطلب مني النهوض فنهضت. السيارة مرة ثانية. هذه المرة ليس في الحقيبة الخلفية بل في الحوض الخلفي.

جنبي يجلس رجل، وأمامي آخر، إضافة إلى السائق. ثم الطرق الريفية ذاتها. الطرق المليئة بالحفر والتراب الناعم، أحسسته يثور حول السيارة ويملأ خياشيمي بمسحوقه الناعم، والغبار والرجّات هما علامتان على وجود ريف، وهما إحتكاكي الوحيد مع العالم الخارجي، وهؤلاء يقودونني إلى منطقة نائية يطلقون علي فيها الرصاص ثم يرمونني في الخلاء، تحت نخلة أو وسط مبزل لصرف المياه المالحة أو في بيت خرب هجره ساكنوه، وسأرتاح على الأقل. الموت راحة. تقبلته بتصميم، بعد أن قدمت لنفسي تبريرات مقنعة. ياسر إبني كبر، هو في الجامعة، ويستطيع قيادة دفة العائلة من بعدي. زوجتي لم تعد تبالي بالجنس ولا أعتقد أنها ستتزوج. الأطفال كل ما يشغلها. بيتي في محلة المنصور ملك، وأموالي كافية لحياة كريمة للعائلة. إما أنا فعشت بما فيه الكفاية. ضاجعت نساء كثيرات، تمتعت بالطعام والشراب، سافرت وركبت أفخر السيارات، وقرأت أطناناً من الكتب، وشهدت نهاية البعثيين ومجيء الأميركان والكوارث كلها، وهذا يكفيني، بررت لروحي ونحن نجول في ذلك الريف النائي، الريف الذي أجزم أنه كان من الأرياف المحيطة ببغداد. لا أخشى الموت. وكان الصمت مطلقاً. الغبار يتسرب إلى ملابسي ورئتي وشعري وداخلي.

تحولت إلى ذرة تراب في مكان غير معروف. كلا لم أمت. عوضاً

عن ذلك سلمت إلى مجموعة ثانية ما أن توقفت السيارة في مكان مجهول. رائحة حقول. رائحة طين. رائحة فجر به شيء من البرودة. والقبضة التي امسكتني من زندي مختلفة القوة، وذات أصابع متينة وخشنة، يجب أن أستبق الأحداث وأقول إن المجموعة التي سلمتني إلى هؤلاء قبضت ثمن الإختطاف ومضت، وهي لا تعرف شيئاً عني، ولا لماذا جلبت إلى هذا المكان، ومن هم سادتي الجدد، قبضت نقودها تاركة إياي في عهدة البيت الجديد، وهذه المعلومات عرفتها لاحقاً، بعد أن أطلق سراحي. قادني شخص من يدي وأدخلني إلى بيت متكون من غرف عدة حسب ما أخبرتني أحاسيسي، وأنا أعبر عتبات غرف عديدة، ثم وسط إحداها أوقفني الشخص وطلب مني النزول على درج، أرجعت جسدي إلى الخلف، حمل قدمي اليسرى وثبتها على درج خشبي ينزل من فتحة في أرضية الغرفة إلى الأسفل، وكان شخص آخر يوجه قدمي من الأسفل لكي لا أسقط في ذلك الجب، أو الحفرة، أو ما لا أعلم.

أنزل تحت الأرض، وفوجئت بهذه الفكرة، إنهم يخفونني في ملجأ أرضي أو حفرة تحت البيت وهذا ما أدهشني جداً. أتشبث بالدرج الخشبي بقوة، وأنقل قدمي بدقة وتمهل إلى أن شعرت بوقوف رجلي على أرض ثابتة، أرض مصبوبة من الخرسانة، وقد رفع الرجل في الأسفل القطن عن أذني وأزال الخرقة التي كانت تظلل عيني وأطلق وثاق يدي، ورأيته يخرج من الثقب الأعلى رافعاً الدرج معه، ثم انطبق الظلام على الوجود. ولم أعد أرى أي شيء حولي، فهل أنا وحيد هنا؟ هذا أول سؤال جد إلى ذهني. نسيت أن أخبرك أن الشخص الذي سحب الدرج والقطن من أذني والقماشة عن عيني همس في أذني قائلاً: أية كلمة تنطق بها

تقـودك إلى الموت، إذن لا كـلام في هذا المكان، وهذا هو الدرس الأول الذي ينبغي علي الإلتزام به، الأمر يعني أن هناك اشخاصاً آخرين معي، إسـتنتـاج لمع في رأسي مـثل برق، والظلام دامس، والرطوبة تختـلط بالحرارة. السواد يوحي بالأسرار. شعرت بوجود حياة بشرية في وسط تلك الظلمة. حياة بشرية يجب علي البحث عنها واكتشافها. سأستعيض عن العينين بالأصابع، أحول مساماتي إلى عيون، وأنفي إلى آذان، هنا لم تمر سوى لحظات حتى سمعت قرقعة وكرجاً وأصواتاً في الأعلى، وحركـة أداة تذهب وتجيء فـوق الثـقب الذي نزلت منه، ومن خبـرتي بالهندسـة إستنتجت أنهم يغلقون الفتحة بالإسمنت، وهذا صوت المالج يسوي الطبقة الإسمنتية لكي تخفي الجب عن الناظرين. سجن تحت غرفة معيشة، هل تتخيل الذكاء الشيطاني الذي يمتلكونه؟

وفي غمرة الصمت المطلق والكلي مرة أخرى. يداي طليقتان، عيناي مفتوحتان، أذناي تسمعان حركة العنكبوت. في الظلام أرواح ما. هناك بشر حولي أستشعر ذبذبات أجسادهم. مشيت حذراً، إلى أن اصطدمت بجدار صلد، وبركت في مكاني وبدأت أنصت للظلام، الظلام لغة بليغة يا زاهر، لقد دفنوني حياً في هذا الجب، لم أفهم السبب، هل يخافون من رؤية جثتي لو كانوا أقدموا على قتلي في الخارج؟. ممن يخافون؟. منذ هذه اللحظة غاب الوقت عني، لا يمكن تمييز الليل من النهار، لا يمكن معرفة مـرور الأيام، وهناك أنين وتثـاؤب وتأوه يأتي من بقـعـة مـا في الجب، والروائح لا تطاق، والحرارة خانقة، هم غير عابئين إذا ما اختنقنا أم لا.

لا تخـمن كم قـضـيت من وقت وأنا أراجع أحداث حـيـاتي. بعض التفاصيل استعيدها بروائحها وأصواتها وألوانها وحواراتها. زمن تلك

التفاصيل أصبح في رأسي كتلة واحدة. مقهى مام علي الذي كنا نجلس فيه في مدينة السليمانية. الأفلام التي شاهدناها في سينما سيروان. مشهد الحريق في الغابة في الفيلم الياباني ديرسو أوزولا للمخرج كيروساوا. وجوه زميلاتنا في القسم، وكيف كنا نستمني عليهن في المراحيض. حبيبتي سماهر وليالينا الحمراء في البياع. خرجت وسألتني ما الذي تنوي عمله، فقلت لك سوف أذهب إلى مكة، للحج، وأخبرتك أنني تركت الخمر وبدأت أصلي بانتظام، ولم أسأل عن حبيبتي سماهر. اندهشت أنت وقتها. سأقول لك الآن إن أول تحول أصابني وأنا في ذلك الجب حين تذكرت قصة يونس الذي ابتلعه الحوت، هل تذكر تلك القصة القرآنية؟ ظل أياماً في بطنه إلى أن أنقذه الله فلفظه الحوت من بطنه على الساحل، وفكرت طويلاً في معجزة الله تلك، وسألت نفسي في وسط الظلام وتأوهات الأشباح غير المرئية التي تنام حولي، هل يمكن لي يوماً أن أخرج سالماً من هنا؟. الذي أخرج يونس من بطن الحوت يمكنه فعل ذلك، وبدأت تحولاتي، ويمكنك أن تسخر مني لكنني في تلك الساعات يمكن لي أن أكون أي شيء من أجل خروجي من محبسي. أدعية. آيات في رأسي.

تعاويذ. نذور. كل ما يخطر على ذهنك من ترهات وخرافات. وفي فترة غير محددة سمعنا طرقاً خفيفاً في الأعلى، نقر على السقف. ومطرقة تدق، ولحظات رأينا النور يندلق من الأعلى. أيها الخونة والعملاء، كلوا كي لا تموتوا، خاطبنا صوت من الفتحة، ثم أنزل السلم الخشبي وتلمس طريقه إلى الأسفل بمساعدة ضوء يدوي. يحمل صندوقاً بلاستيكياً وضع فيه خبزاً وقناني مياه، ركمه على الأرضية. يضيء

زوايا الجب فأرى رجالاً مسوخاً، ملتحين وسخين عيونهم غادرتها الحياة منذ زمن طويل. حوالي أربعة، كما أتذكر الآن. رمى الرجل لكل واحد منا قنينة مياه ورغيف خبز بارد، ثم كرر تحذيره بغضب: أي كلمة يقولها الشخص تقوده إلى الذبح. ليس بالمسدس بل بسكين مثلمة. وأدار ظهره وصعد السلم ثم استمر الضوء يتدفق من الفتحة لعدة دقائق، وكانت هذه الدقائق تعادل سنة بكاملها، هل حقاً أرى الضوء من جديد؟ الضوء القادم من شمس تسبح في سماء زرقاء تطير فيها العصافير؟ أعجوبة يا زاهر أن ترى ذلك السائل الأصفر وهو ينزلق على جدران الملجأ ويزيح برقّة ظلام الأعماق. إنها معجزة. إنكم شلة النجمة لن تتخيلوا جمال ذلك الضوء، أنتم تهيمون بأحلامكم وأوهامكم مثل أطفال سذج، تمرحون مع أحلام وسواها، وتشربون البيرة والعرق، وتأكلون الكباب، وتتناقشون علناً في السياسة والثقافة والإحتلال والحرية وسط عالم ضوئي معلن، غير مدركين لوجود عالم مظلم في الأسفل، تحاك فيه مؤامرات للإختطاف، للقتل، للتشهير، للقوادة، للسرقات، للرشاوي، لكل ما لا يخطر على أذهانكم الساذجة.

تذكر الحانة الصغيرة قرب الجريدة التي جلسنا فيها عدة مرات، ويديرها المسيحي اصطيفان، من عينكاوه، الذي يلقب نفسه أبو جسام؟ أخبرنا، إن كنت تذكر، عن شلل القتلة والمجرمين الذين كانوا يرتادون حانته بعد انهيار الدولة، كيف كانوا يخبرونه أثناء السكر عن جرائمهم، وكم قتلوا اليوم، وكم اختطفوا، وكيف اغتصبوا النساء؟ قصة ذلك المجرم الذي أخبره أنه كان يخرج بسيارته في الصباح الباكر ويقتل بعض المارة تعيسي الحظ من أجل التسلية؟ وذاك الذي قتل صديقه عند

كـورنيش أبو نؤاس من أجل دفع ثمن قنينة ويسكي؟ والقـواد زوج صبيحة؟ ما اسمه أبو شلال؟ هؤلاء وغيرهم هم الذين يديرون العالم السفلي الذي حدثتك عنه. تعيشون على السطح، مثل فقاعات هوائية على ماء، ويؤسفني أن أستخدم تعابير مثل هذه، لكنها الحقيقة، لا أريد أن أطيل عليك الكتابة، فبعد ما لا يحصى من الأيام، وبعد ملايين الكوابيس المرعبة التي مرت في رأسي، لا أعرف إن كانت كوابيس أم أحداثاً حقيقية، استجوبني شخص ملتح وفظ في الغرفة العلوية. كل الموجودون يطلقون عليه كلمة سيدي، وكأن نصف مليون جندي أجنبي لم يجتاحوا البلاد، وكأن حياتنا التي أعقبت ذلك الزلزال ليست سوى وهم خادع، تختفي خلفه حياة تحت أرضية من نوع آخر، ذلك النوع الذي عشناه خلال ثلاثين سنة.

التعذيب، الإهانات، قاموس الشتائم، الاستهانة بأرواح البشر، المؤامرات والأسرار والإشاعات. أخبرني الرجل المرعب عن تفاصيل حياتي، وتبين لي أنه يعرف إسم زوجتي وأولادي وأسماء أصدقائي وإسم عشيقتي، والجامعة التي درست فيها، وأنواع المقاولات التي اشتغلتها من البصرة جنوباً حتى كركوك شمالاً. لن نقتلك لأننا نريد فلوسك. وهذا الوعد قطعناه مع أنفسنا أمام فاعلي الخير. أنت لا تساوي قشرة بصلة. تخيل أنني لا أساوي قشرة بصلة في نظرهم. ما أن قبضوا النقود خفضها فاعلو الخير إلى خمسين ألف دولار، حتى نقلوني من الحفرة تحت إلى غرفة في البيت. معاملتي اختلفت، تخيل حياتك وقد تعلقت بقرن في رأس شخص موتور، يمكنه سحقك مثل قملة في زنزانة، وصاروا يطعمونني من أكلهم، ويحرصون على ممازحتي بعض الأحيان رغم أنني

لا أراهم ولا أسمعهم، ولم يرفعوا القطن من أذني ولا العصابة من عيني. وفي صباح شتوي بارد جاءوا إلي وقالوا سنطلق سراحك اليوم، لم أصدق ذلك للوهلة الأولى. فهؤلاء لا يؤتمنون، كيف يمكنك الوثوق بقتلة؟

في تلك اللحظات تمنيت أن لا تداهمنا القوات الأميركية أو العراقية، لأن حصول أمر مثل هذا قد يعرضني للتصفية، وعند الظهيرة تماماً أوقفوني على قدمي وألبسوني دشداشة من قماش البازة، وألبسوني بشماغاً ووضعوا عقالاً غليظاً على رأسي، وثبتوا العصابة جيداً ثم ألبسوني نظارات سميكة، ووضعوا حذاء مطاطياً في قدمي، من تلك الأحذية التي يرتديها الفلاحون، وصرت أشبه بفلاح الجريدة أبو شعبان. يغيرون هيأتي لكي لا أجذب الأنظار إذا ما خرجنا إلى الشارع. وقبل أن يقودونني خارج المنزل، فوجئت بهم يزنرون وسطي بحزام ثقيل، لم أفهم قصته ولم استطع تخمينها، وقالوا لي عن الخطة بصراحة: هذا حزام ناسف، لففناه حول خصرك، وسنقودك معنا في السيارة حيث سنطلق سراحك قرب حي المنصور، وأي حركة تعملها لجذب أنظار أحد سنفجرك بثانية واحدة، وقالوا هناك سيارة أخرى ستسير خلفنا. تخيل وأنت تنتظر لحظة الحرية يأتي من يلبسك حزاماً ناسفاً ويقول لك سنقودك إلى بيتك؟ أي خلل في خطتهم معناه أنني سأتحول إلى شظايا. شتاء بغداد جميل كما تعرف، الهواء كان رقراقاً ورطوبة الحياة تتسلل إلى الخلايا مثل خمرة معتقة، وأشعة شمس خفيفة تصبغ الموجودات حولنا، أتخيلها تلامس سعف النخيل وسطوح البيوت الفلاحية وأجنحة النوارس الطائرة فوق الحقول، نمتلك كل هذا الجمال لكننا لا نعيشه، نصف أعمارنا ذهب هدراً في حروب ظالمة، دون أن نعرف كيف نعيش هذه الحياة. فكرت بكل

ذلك، وفكرت أيضاً ونحن نسير في طرقات ريفية، وشوارع فرعية، أنهم قد يفجرون بي دورية أميركية أو مبنى حكومياً فهم استخدموا هذ الأسلوب من قبل، تذكر كم مرة لغموا سيارة بشكل سري وكلفوا واحداً من السذج ليوصلها إلى مكان معين ثم في الطريق، وفي اللحظة المناسبة يفجرونها على هدف ما، هذه القصص سمعنا بها كثيراً، وتحدثنا حولها في شقة النجمة أكثر من مرة، أليس كذلك؟ كما قلت لك، لا يمكن الوثوق بقتلة. رحت أحس ضجيج السيارات بوضوح.

فمن كثافة ذلك الضجيج أدركت أنني أدخل بغداد، لكن من أي اتجاه لا أعلم. من الراشدية، من أبو غريب، من اليوسفية، من طريق بعقوبة، كل هذا جائز، سيارة تاكسي عتيقة ذات رائحة عفنة من دخان السجائر، ومن سعة المقاعد خمنت أنها من نوع شيفروليت، وكنت جالساً في المقعد الخلفي مثل صنم، لا أجرؤ على الحركة، لحيتي كانت كثة. ومظهري بالتأكيد يشبه فلاحاً يحاول التحضر، ورائحتي مثل رائحة فطيسة، أنوس بين الفرح بإطلاق سراحي، ولقاء زوجتي وأطفالي، وبين الرعب من أنهم قادمون إلى تفجيري في مكان ما من بغداد، فكبسة زر من يد مجهولة وأتحول إلى خبر عاجل في الفضائيات. هذا أدركه جيداً. رأسي ممتلئ بحفرة نتنة مظلمة مغلقة على كائنات بشرية دلالة الحياة فيها أصوات الجسد وروائحه فقط، أولئك الذين نسيتهم خلفي في ذلك الجوف المدفون تحت الغرفة، في ريف ناء لا ينتمي إلى أي اتجاه، أولئك الذين يمثلون الجانب المظلم من أرواحنا، في هذا التاريخ المليء بالمآسي. ظلمات صنعت حكايات هذا البلد منذ قرون، قطع الآذان وجدع الأنوف ورش الفلاحين بالغازات الكيمياوية ودفن البشر أحياء، إبادة مدن

وتجفيف أهوار وقصف جبال وتلغيم صحاري هجرها البدو منذ عقود، ظلمات هذا التاريخ وهي تنبثق في عقولنا كلما مررنا بمنعطف خطير، وسيكون تفجيري بالحزام الناسف نقطة في بحر تاريخنا المظلم.

لقد خرج يونس من بطن الحوت في النهاية، وتلك معجزة لا أصدقها حتى أنا، فأنت تعرف معرض بغداد الدولي أليس كذلك؟. أمام المعرض توجد عشرات شركات النقل والمكاتب، وعادة ما تكون الأرصفة هناك مزدحمة، والمكان لا يبعد عن بيتي سوى نصف كيلومتر، نعم في تلك المنطقة المزدحمة توقفت السيارة وحلوا الحزام من وسطي، ثم فتح لي رجل الباب وقال لي باحتقار: هيا أخرج، لكن لا ترفع النظارات السوداء إلا بعد خمس دقائق، وإلا سنمطرك بالرصاص ونمضي، ولاحظ مصطلح نمطرك، كم هو لطيف وحي، وفعلاً سمعت صوت سيارة يغيب على مهل، ولبثت أكثر من عشر دقائق واقفاً. لحد الآن وأنا اظن أنها مزحة. مقلب من مقالبهم الشهيرة. رفعت النظارات، وأزلت العصابة عن عيني، وفاجأني نور الشمس وكأنه مخارز تسدد إلى روحي. ما حدث بعد ذلك تعرفه جيداً، لم أعد أستقر في بيت إلا بعض اسابيع لأنتقل إلى بيت آخر، أخشى أن يعاودوا اختطافي، وأنت الآن تعرف لماذا غيرت حياتي مئة وثمانين درجة، كما كنت تردد أنت أمام الأصدقاء، ولن أقول لك بعد قصتي هذه إلا جملة واحدة فقط: إرحل عن هذا البلد، ولا تنظر إلى الوراء أبداً، فالبلد يحترق يا صديقي.

شخصيات الرواية تلتقي في شقة متواضعة أطلقوا عليها اسم النجمة. وهي تقع في حي مشهور من أحياء بغداد هو حي البتاوين. في هذه الشقة تجري حوارات حول الأحداث اليومية في العراق، وتحكى قصص عن الخطف، والقتل على الهوية، وتترجع اصداء التفجيرات وهي تلف الأفق. فالعاصمة تعيش وسط ايقاع العام ٢٠٠٦، وتنتشر فيها ميليشيات، وجيوش اجنبية، وتدور فيها صراعات بين أحزاب ومدن وطوائف. ووسط كل ذلك تحاول شخصيات الرواية ايجاد جدوى لحياتها، وقراءة معالم بغداد كشارع الرصيد والبتاوين وأبو نواس، وممارسة طقوسها الحياتية من مغامرات نسائية، ومعاقرة خمور، وتداول اخبار العالم الخارجي. وكأن القارئ يدخل الى عالم من قصص، وحكايات، وطرائف، تبدو انها غير مترابطة، لكن يجمعها في النهاية جو شقة النجمة الذي يشرف على سطوح بيوت بغداد، ومآذنها، وعماراتها البعيدة، ونخيلها الذي يبدو مثل غابة من الريش في وقت الغروب.

ISBN 2-84306-043- x
9 782843 080432